

المدينة المفتوحة

قصص من بنغازي

إصدارات

مجلس الثقافة العام

الإشراف العام

أ. د. سليمان صالح الفويل

لجنة الإعداد والإشراف

ناصر الدعيسي

علي الفلاح

هايل البويجو

جابر نور سلطان

محمد عبد الله الترهوني

سالم أحمد الأوجلي

المدينة المفتوحة

قصص من بنغازي

أحمد محمد العنيزي

الناشر

مجلس الثقافة العام

المدينة المفتوحة (قصص من بنغازي)
أحمد محمد العنزي
2008 م
385 2008 م (دار الكتب الوطنية)
1 - 855 - 38 - 9959 - 978

اسم الكتاب
اسم المؤلف
سنة النشر
رقم الإيداع
الترقيم الدولي

علي العباني
مباركة المغربي
دار قباء الحديثة - القاهرة

تصميم الغلاف
لوحة الغلاف
التنسيق الفني

الجمهورية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية لعظمى

إصدارات

مجلس الثقافة العام

المقر الرئيس - حنج الميرمراب - سرب

هاتف 002185468622 - بريد بصور 002185473161

فرع طرابلس - عمارة الواحات - شارع عمر المختار

هاتف 00218214449894 - بريد مصر 00218213335388

ص 2764 طرابلس

فرع بنغازي - القويهات الغربية - الطريق الدائري الثاني

هاتف 00218612241577 - 00218612241578

بريد مصر 00218612241576 ص 9351 سعدي

بريد إلكتروني - Yahoo.ca 2005 LCC2

(حقوق الطبع والترجمة محفوظة)

تنبيه

جميع الأسماء الواردة في هذه المجموعة القصصية (المدينة المفتوحة) ليست أسماءً لأشخاص معينين، وإذا صادف تطابق في الاسم بين شخصية حقيقية وإحدى شخصيات هذه المجموعة فإن ذلك قد ورد مصادفةً وعن غير قصد.

المؤلف

obeikandi.com

الأهداء

إلى أطفالنا الذين يحملون على ظهورهم (رزمة)
ثقيلة من المناهج التي تنوء بحملها ظهور الرجال ،
ويحلمون بإطلالة مستقبل مشرق تتحقق فيه
طموحات الأجيال ...

إليهم جميعاً أهدي هذه الصفحات التي تصور
نمط الحياة التي عاشها الآباء والأجداد وهم
يواجهون تقلبات الزمن ...

المؤلف

obeikandi.com

الفهرس

رقم الصفحة	الموضوع
13.....	الرتبة العسكرية
27.....	عام الصابة
43.....	الجيران
53.....	مولد يوم جديد
63.....	أبو سعديّة
71.....	الاختيار
83.....	بوك عبّو
93.....	عودة المجندين
101.....	الخبر السيئ

الموضوع	رقم الصفحة
الختان.....	109.....
المدينة المفتوحة.....	119.....
رائحة البيت.....	135.....
معطف النقيب.....	149.....
التحولات.....	161.....
المشوار الطويل.....	177.....
المحطة.....	185.....
العرس.....	193.....
القارب المهجور.....	201.....
حلاق امشيليا.....	217.....

الموضوع	رقم الصفحة
اليوم المشهود.....	237
لعبة الكراسي.....	249
حافة المستنقع.....	263
لحظات الوداع.....	273

obeikandi.com

الرتبة العسكرية

من أضيق شوارع المدينة مدخلاً شارع الحم-ام الذي ينقرع من سوق الجريد، والذي لا يزيد عرضه عن خطوتين كما كان يقيس مساحته الأجداد، يمشي الداخل إليه مسافة ستين خطوة كأنه يقطع ممراً ضيقاً بين جبلين، ثم يبدأ في الاتساع عندما يبلغ المار مبنى جامع المكحل المعروف بذلك الشارع، ومن أبرز البيوت في ذلك الممر بيت مشيد على الطراز العربي يقع على يمين الداخل والذي يُرى مدخله المرتفع يعلوه قوس مقسم إلى مربعات صغيرة تتحدر من جانبيه حتى تصل العتبة العالية وله بابان مقسم كل منهما إلى ثلاثة أضلاع متساوية مزخرفة بالنقوش المحفورة على الخشب وبكل باب حلقة نحاسية مثبتة في وسطه تستعمل للطرق عليه يسمونها (الدقاقة)، وأعلى البابين يوجد الشباك الحديدي الذي يتوسط القوس والذي يسمونه الضواية، ويقابل ذلك البيت العريق مبنى الحمام القديم ذي الجدران البيضاء الذي تعلوه قبة صغيرة، وهو الذي أطلق اسمه على ذلك الشارع. كان ذلك المبنى يبدو من الداخل معتماً لقلة

الإضاءة؛ إذ لا توجد به سوى نافذة واحدة صغيرة بها شباك حديدي تبدو كأنها كوة في حصن قديم، وكان مدخله واطناً ولا يرى المار ما بداخله، وإن كان يسمع صوت (حميدان) المشرف على العمل وهو يدلك جسم أحد الزبائن من التجار المنبسط على لوحة المرممر الساخنة ويردد أغنيته المفضلة والمعروفة في المدينة « في زنقة الحمام زوز اغزله، واحد خدا عقلي والآخر سلّه »، وما إن يجتاز الداخل ذلك الممر الضيق حتى يرى البيوت القديمة ذات الارتفاعات المختلفة الممتدة على جانبي الشارع الصغير حتى العطفة التي تؤدي إلى شارع سيدي الشريف، وفي هذه العطفة توجد خمسة بيوت مقابلة لضريح ذلك الولي المعروف أشهرها بيت سي معتوق الراضي وسي مسعود القاشط وهما الجاران القديمان في شارع الحمام وقد جمعهما جوار العمر. كان سي معتوق يعمل نجاراً وقد اقتطع جزءاً من بيته جعله ورشة عمل يصنع فيها (القباقيب وصفرات الأكل والمعاصد والمغارف)، وغير ذلك من الأدوات الخشبية التي تُستعمل في البيوت، وكان يعول زوجته وابنه الوحيد وبناته الثلاث بما يتوفر له من الدخل القليل. أما سي مسعود فقد كان يستأجر دكاناً في سوق الجلادة لصناعة الأحذية المحلية مثل الباغة الليبية والرقعة والسبايط والبوتيل، كما عرف أنه من

أمهر من يصنعون السروج المنقوشة بخيوط الحرير والفضة
وغير ذلك من المصنوعات، وكان دخله طيباً يوفر لعائلته
المكونة من زوجته وابنيه الاثنتين وبناته الأربعة حياة مقبولة ..

كانت حقبة العشرينيات من أشد السنوات وطأة على
المواطنين؛ حيث سادت حالة الكساد بسبب تدهور الحالة
الاقتصادية، وكانت جميع منافذ المدينة محاطة بالأسلاك الشائكة
ومغلقة بالبوابات فلا سبيل إلى الخروج منها إلا بتصريح كتابي
من سلطات الاحتلال الإيطالي، وقد أصبح المواطنون مشغولين
بمطالب الحياة اليومية التي ضاعفت من همومهم في تلك
السنوات العجفاء التي سعد فيها الفاشست إلى الحكم في إيطاليا،
كانوا في لقاءاتهم وسهراتهم لا همّ لهم سوى الحديث عن حالة
البلاد وما آلت إليه من تدهور، وكانوا يتحدثون بأصوات خافتة
خلف الأبواب المغلقة خشية أن يصل كلامهم إلى مسامع أعوان
(بوليس المستعمرات)، وهي قوة الشرطة السياسية التي
ابتدعها الحكم الفاشي للتحري عن لهم أقارب في حركة
المقاومة الوطنية، حتى يمكن إعادهم إلى معسكرات الاعتقال.

كان سي معتوق كلما التقى بجاره مسعود وجده يشكو من ضيق المعيشة ويتحدث عن الكساد الذي أصاب صناعته وسوء الحالة التي جعلته عاجزاً عن توفير لقمة العيش لعائلته، ولا يجد سي معتوق سوى الرثاء لحالة جاره الذي ضاقت به السبل، فيحاول تخفيف وطأة القلق عليه بجبر خاطره وتهدئة روعه بكل ما لديه من الأقوال المأثورة عن استحالة دوام الأحوال، وعن الصبر الذي هو مفتاح الفرج بعد الشدة .



كان مقهى (الحدادة) الذي يقع في ركن الميدان المسمى باسمه من أكثر المقاهي حركة نظراً لموقعه وسط السوق، وكان يرتاده القادمون للتسوق إلى جانب زبائنه الدائمين ممن يستمتعون بتدخين (الرقيلة) التي يملأ دخانها ذلك الجانب من الميدان، لم يعد المقهى كما كان في أيام الرخاء؛ من جراء حالة الكساد التي ألقَتْ بظلالها عليه حتى أصبح سي يحيى مضطراً إلى البيع بالدين تسهياً على الزبائن وتسجيل الديون حسب طريقته الخاصة، فهو يخط بالطباشير أسماء المدينين على لوحة سوداء معلقة بالجدار حتى إذا امتلأت تلك اللوحة عمد إلى الكتابة على ظهر الباب، كان يكتب اسم المدين ويظل يخط تحته

عدد المشروبات التي تناولها بخطوط أفقية وعمودية وحلقات تشبه الرموز التي يستعملها لاعبو الورق لمعرفة عدد النقاط التي أحرزوها خلال جولات اللعب، وهكذا يظل سي يحيى يسجل الديون وينتظر عملية التسديد التي لا يعرف متى يحين موعدها، وفي أحد تلك الأيام فوجيء رواد المقهى بالمدعو خميس العاقب الذي كان معروفاً (بالبراح)؛ لأنه يحترف المناداة على المسروقات والأشياء الضائعة وعلى مكافأة من يعثر عليها أو يدل على من كانت بحوزته، جلس البرّاح وسط المقهى وأخذ يحدث الرواد عن رغبة الحكومة في تجنيد متطوعين للخدمة العسكرية نظير مكافأة تدفع مقدماً وراتب شهري مغرٍ ..

- هذا هو الخبر اللي جابك لنا يا سي خميس، قال أحد الحاضرين.

- والله هذا اللي اطلبت مني الحكومة انبلغه لكم .. اللي يريد يركب عسكري اقدم علم وخبر من إمام المحلة ..

ولم يتكلم أحد لا بالنفي ولا بالقبول، وخرج خميس وهو

يقول:

- أنا درت اللي علي يا جماعة وشوفوا اللي يصلح بكم .

كان خبر تجنيد المتطوعين الذي أعلن عنه قد انتشر في المدينة بسرعة البرق، وفي اليوم التالي لذلك الإعلان كان سي معتوق في زيارة لـدكان جاره مسعود الذي قرر أن يستفسر عن حالته بعد ذلك اللقاء الذي انزعج فيه من سوء حالته، ولاحظ سي معتوق أن جاره مسعود لا يزال مهموماً، يضح بالشكوى حتى يكاد يبكي بالدموع من سوء الحالة وعدم قدرته على الإيفاء بمطالب العائلة اليومية، كان يخشى أن تتعرض عائلته للجوع، أشد ما يصاب به الناس من كوارث، وظل سي معتوق يستمع إليه ساكناً وقد بدا على وجهه التأثير، حتى تطرق بهما الحديث عما جرى في المقهى بشأن تجنيد المتطوعين للخدمة في عسكر الطليان وفاجأ مسعود جاره قائلاً :

- كان دامت هذي الحالة حتى انا نركب عسكري !!

وانذهل سي معتوق من هذه المفاجأة التي لم يكن يتوقعها، إذ كيف يفكر رجل عاقل مثل مسعود في الخدمة مع الطليان وفي جيشهم بالذات، أليست هذه الخدمة إعاقة لهم على ضرب المقاومة الوطنية وإنهاء حركة الجهاد !!؟ ولم يجد ما يرد به على جاره في تلك اللحظة، كان شعوره مزيجاً من الغضب والرأفة، الغضب مما يريد مسعود الإقدام عليه والرأفة بحالة

عائلته ومعاناتها التي تدعو إلى القلق والخوف، ولما لم يجد مسعود تجاوباً من جاره الذي ظل صامتاً وقد أطرق برأسه إلى الأرض قال بصوت مرتعش :

- خلينا أنا وإياك انقيدو في العسكرية خير من هالقعدة ..
- وعلى الفور انتفض سي معتوق وقام من مكانه قائلاً :
- مازالت غير هدي، تبيني نركب عسكري مع الطليان هذا حد عقاك ؟
- ما هو معاش اقدرنا على المعيشة . ايش اندير يا سي معتوق ؟
- دير اللي اتريده كان هذا ايساعدك، انا خليني عنك ..
- كلا انا نبي انقيد في العسكرية وانت على كيفك .
- والله ما تسمى علي ايقولوا معتوق ركب عسكري مع الطليان ..
- وكيف انديرو في المعيشة، كيف نلقوا قوت العيال .
- دير كيف ما يصح لك، انا إن شاء الله انموت وما حطيت على اکتوفي خرقة طليان .

وصمّت مسعود إذ لم يعد في إمكانه إقناع جاره بما يريد الإقدام عليه، وخرج معتوق من الدكان وقد تملكه الغضب مما طرأ على جاره الذي كان يكن له الود والاحترام ..



وفي مقر قيادة جيش المستعمرات دخل مسعود إلى ذلك المبنى لأول مرة في حياته؛ فهو لم يتعود التردد على المصالح الحكومية، ولم يكن يعرف سوى مبنى البلدية الذي كان يحضر إليه لتسجيل أسماء أبنائه في سجل المواليد، وهناك تمّ التحقق من شخصيته بواسطة شهادة (العلم والخبر) الصادرة عن أمام المحلة، وتمت إجراءات قيده بسرعة ثم اقتيد إلى مخزن في حديقة المبنى وسلمت له البدلة العسكرية المخصصة لجنود المستعمرات ولفت نظره أنهم لم يسلموا له حذاء وإنما أعطوه (صندلاً) لأنه لا يسمح لأمثاله من المواطنين بانتعال الأحذية المخصصة للإيطاليين، وعندما كان في طريقه إلى الخروج من مقر القيادة صادفه أحد المجندين من أبناء أريتريا يحمل على ذراعيه رتبة شمباشي، وهي عبارة عن قطعة قماش سوداء بها ثلاثة خطوط حمراء على شكل مثلث منحنٍ، وهي عكس الخطوط الذهبية التي يحملها الإيطاليون والتي تتجه خطوطها

إلى الأعلى، ونظر هذا المجند إلى مسعود وهو يشير بيده إلى رتبته العسكرية المربوطة إلى ذراعيه وقال بلهجة عربية تشوبها لكنة بلاده :

– توا انت يمشي يضرب (فلاقة) ياخذ شمباشي ..

وأدرك مسعود ما يقصده ذلك المجند الآتي من بعيد، فقد كان يعني أن من يحارب المجاهدين الذين يطلق عليهم الأريتريون (الفلاقة) يحصل على رتبة شمباشي مماثلة لرتبته التي يزهو بها ..



كانت جبهات القتال المتعددة بتعدد أدوار المجاهدين المنتشرة في الجبال والوديان لا تهدأ فيها الحركة ليلاً ونهاراً، فالمعارك المتتالية جعلت القوات الإيطالية في حالة استنفار دائم، تترصد حركات المجاهدين الذين يباغتونها بغاراتهم في كل حين وينزلون بها الخسائر في الأرواح والمعدات ويغنمون الأسلحة، وفي تلك الساحات الملتهبة التي تدوي فيها الانفجارات وتتصاعد فيها أعمدة الدخان السوداء كان مسعود ينتقل بين المواقع مع جحافل الطلاب والمجندين من مستعمرات إيطاليا في القرن

الأفريقي وغيرهم من المرتزقة وهو يحمل المعدات العسكرية على كتفيه ويعمل في حفر الخنادق وإنشاء المتاريس ويساعد جنود المدفعية في جر عربات المدافع الثقيلة في المسالك الصعبة وقد أنهكه العمل اليومي المضني، وظل هاجس العائلة يطارده فهو لا يعلم ماذا حلّ بها منذ أن تركها في سبيل توفير أسباب المعيشة لها، وأخذت الخواطر تتزاحم في رأسه كلما أراد استجلاب النوم لعينيه ليرتاح من عناء يومه، في هذه الميادين لا توجد مراسلات يمكن أن تبعث الطمأنينة في القلوب، وهكذا ليس في مقدور أحد معرفة أي شيء عن حالة أهله، وما إذا كان يُصرف لهم معاش منتظم أم لا، وهذا ما يدعو إلى القلق والتوتر، حتى كلمات جاره معتوق كانت تمر بذهنه فتزيد من أسباب معاناته: " انموت ولا حطيت على اكتوفي خرقة طليان"، ويظل الليل يمضي بطيئاً وهو جالس وسط الخيمة الصغيرة التي تهزها الرياح بين حين وآخر حتى يداهم النوم بعد انتظار طويل فيستلقي مهموماً .



وفي إحدى المعارك العنيفة التي شهدتها ساحات القتال في فترة اشتداد المقاومة الوطنية بالجبل الأخضر فوجئت القوة

الإيطالية التي توغلت في أحد الوديان لتتعبق الثوار الوطنيين بمقاومة عنيفة، فقد انهال عليها رصاص الثوار من عدة جهات، ووجدت نفسها محاصرة في ذلك الوادي العميق وفي مرمى القناصين المتحصنين في الكهوف والغابات، ورغم أن القيادة الإيطالية قد حشدت لتلك المعركة قوة كبيرة من المشاة والمدفعية والمصفحات إلا أنها فشلت في تقديراتها، فقد أذهلتها المفاجأة بما أوقعت في صفوف عساكرها من خسائر في الأرواح، حيث سقط العديد من الطليان والمجندين وغيرهم، وأخذتها نوبة من الغضب فأمرت بإطلاق نيران المدافع في كل اتجاه دون تركيز حتى أشعلت النار في أشجار الغابة التي ظل دخانها يتصاعد ويغمر ذلك الوادي باللهيب والضباب الأسود، وظننت القيادة الإيطالية أنها حققت نصراً على أعدائها، إلا أن استمرار الثوار في إطلاق الرصاص بعد توقف المدفعية قد زاد في ارتباكها ودفعها إلى إصدار الأمر بالانسحاب، وأخذت فلول قواتها المنحدرة تخلي الموتى والجرحى وهي تتراجع في حالة من الفوضى، وفي ذلك الجو المشحون بالاضطراب والخوف، كان بعض المجندين يجرون عربات المدافع الثقيلة في طريق صاعدة ومن بينهم مسعود القاشط الذي كان يحادي إحدى العربات وهو يتعثر في خطاه وقد أرهاقه التعب، وفجأة

اصطدمت العربة التي كان يحاديها بحجر كبير في الطريق فتراجعت منحدره إلى الخلف ودهست رجله اليمنى فصرخ من الألم ووقع على الأرض، كانت رجله قد تهشمت والتصق بها الصندل المنقوع في الدماء، فقد كانت وطأة العجلة الخشبية التي يحيطها شريط حديدي قوي جعلته يواصل الصراخ حتى ألقى به في عربة شحن مع بعض الجرحى لتنتجه بهم إلى المدينة حيث يوجد المستشفى الوحيد الذي ما زال في مرحلة البناء .



كان مسعود قد بدأ يفيق من تأثير المخدر عندما سمع أحد الجراحين الإيطاليين يحدث زميلاً له باللغة الإيطالية وهما واقفان بجوار السرير الذي يتمدد عليه، وتفرس فيهما ملياً وهو يمسح عينيه بيده كأنما يريد إزاحة الغشاوة عنهما، كان أحدهما مسناً طويل القامة بينما الآخر يبدو شاباً نحيل البنية ينصت إلى محدثه باهتمام، وأخذ مسعود يحاول الجلوس في السرير إلا أن الجراح الكبير الذي انتبه إلى حركته منعه من ذلك طالباً منه البقاء متمدداً ليكون في وضع مريح، ثم سأله :

- ما هو اسمك أيها الجندي ؟

- مسعود بن سعيد القاشط .

- ماذا كنت تعمل قبل التحاقك بالجندية ؟

- صانع أحذية في سوق المدينة .

- هذا أحسن لن تعوقك الإصابة عن ممارسة عملك .

قال الجراح ذلك ولم يذكر له أنه اضطر إلى بتر رجله عند نهاية الساق، وأراد الجراح الصغير أن يخفف هول الصدمة عليه فقال :

- أنت بطل شجاع كما يبدو عليك ..

وهمّ مسعود أن يقول له إنه كان بطلاً رغم أنه شهد عدة معارك ولم يطلق خلالها رصاصة واحدة، وهو مرتاح إلى ذلك لأنه لم يكن سوى حمال ينقل المعدات على كتفيه إلا أنه خشي أن يسخر منه الجراح فأمسك عن الكلام، ثم سأله الجراح الكبير :

- هل لك عائلة وأبناء ؟

وتنهّد مسعود وكاد ينفجر بكاءً، لقد مسّ السؤال شغاف قلبه؛ أليست العائلة هي سبب ما حلّ به من متاعب؟ ولولا هموم العائلة ما كان في هذه الحالة، وتنهّد مرة أخرى وقال :

- نعم يا سيدي، لي عائلة كبيرة لم أرها منذ زمن، إنني مهموم بأمرها ومشتاق إلى رؤيتها.

وصمت قليلاً ثم أردف :

- إنني أتعجل الزمن وانتظر اللحظة التي تجمعني بها ..

ورد عليه الجراح مواسياً :

- لا تبتئس ستعود إليها قريباً، وستحصل على رتبة عسكرية مناسبة،

وفي تلك اللحظة تذكر مسعود كلمات ذلك المجند الاريثري الذي قابله في مقر القيادة عندما حضر للتطوع في الخدمة العسكرية، هذه الكلمات التي لن تمحي من ذاكرته ..
« توا تمشي تضرب الفلاقة وتأخذ رتبة شمشاشي » .



عام الصابئة

في صبيحة أحد أيام الصيف التي أعقبت موسم الحصاد، كان سالم بن خليل تاجر الغلال المعروف جالساً أمام دكانه المطل على ساحة الفندق القديم، كان منهمكاً في احتساء القهوة وتدخين سجائر طرابلس ذات التبغ الفاخر المسماة اكسترا والتي يحرق منها سجارة إثر الأخرى دون توقف، ويترك دخانها يتبدد في جو الساحة الكبيرة، لقد بدا في تلك الجلسة منشغلاً بالتفكير العميق، وقد استبد به القلق، فقد كانت مشكلة ابنه البكر هي المسيطرة على اهتمامه، فهذا الابن الذي كان يعول على صلاح أمره، وقد وفر له كل ما يشتهي شاب في سنه كي يحقق ما يريده منه وهو تهيئته للعمل بالتجارة كعادة أهله، فهو بدلاً من أن يتفرغ للدراسة ويجتهد في التحصيل ترك المدرسة الابتدائية التي تعثر في الدراسة بها ورسب عدة مرات، وظل يتسكع في شوارع المدينة ويسهر في دور السينما، ويعود إلى البيت في ساعات متأخرة من الليل ..

لقد طغى التفكير على ذهن سالم رغم حركة ساحة السوق

التي تضح بالنشاط ووضوء باعة الخضروات التي تختلط
بنهيق حمير المزارعين الذين يحضرون الخضروات من القرى
القريبة ورغاء الجمال المحملة (بغراير) القمح والشعير
والقابعة عند نهاية الساحة في انتظار تفريغ أحمالها التي ترعى
تحت وطأة ثقلها، كان من الممكن أن يكون السيد سالم أكثر
التجار سعادة بما حققه من أرباح في هذه السنة التي كانت من
الأعوام النادرة، وقد سميت بعام الصابية، وهو من الأعوام التي
تبقى أحداثها عالقة بالذاكرة؛ لأن المواطنين كانوا يؤرخون بها
أعمار المواليد، ولكنه ظل رغم الضجة المحيطة به غارقاً في
همومه حتى نما إلى مسامعه صوت شقيقه صالح الذي انتشله
من دوامة التفكير وهو يطلق عليه تحية الصباح ويجلس بجانبه،
كان صالح هو الآخر تاجراً إلا أنه يزاول تجارة الأصواف
والجلود التي شهدت رواجاً تلك السنة بسبب نشاط حركة
التصدير إلى الخارج، لقد لاحظ صالح وهو يرتشف القهوة أن
شقيقه سالم يبدو منقبض النفس وأدرك السبب الذي دعاه لطلب
حضوره عندما أرسل له نادل المقهى ليستدعيه؛ فلا بد أن يكون
سالم قد تعرض لمشكلة من مشاكل التجارة يريد إشراكه في
حلها، فأخذ يستدرجه ليعرف منه ما دعاه للقلق ولم يلح عليه
كثيراً، فقد كان سالم محتاجاً إلى من يجلس معه ليفضي إليه بما

مشادات كلامية وينعتها بأقذع الصفات ثم يعتدي عليها بالضرب ويلعن أهلها، ويردد على مسامعها أبغض الكلمات التي تجري على لسانه في سهولة دون مبالاة بما تؤدي إليه من عواقب، كلمات سهلة في نطقها خطيرة في مفعولها (عدي راك مطلقاً) لقد ظلت هذه الكلمات تتكرر على لسان عامر كلما حضر إلى البيت في حالة سكر حتى بلغ عدد الطلقات ثلاثة إن لم تكن أكثر من ذلك لأن هذا ما أمكن لوالد عامر حصره، وقد وجد حلاً للطلاق الأول ثم حلاً للطلاق الثاني إلا أنه ظل عاجزاً أمام الطلاق الثالث الذي كان حداً فاصلاً بين الزوجين، لقد أصبحت الزوجة محرمة على زوجها شرعاً، وخيم الحزن على عائلتي آل خليل بعد عودة حليلة إلى بيت أهلها، وتحت ضغط الظروف القاسية التي عصفت باستقرار هاتين العائلتين اللتين كانتا تعيشان حياة هائلة وفرها لهما دخل التجارة التي يزاولها الشقيقان، وبعد مشاورات استقر رأي كل من الشقيقين على ضرورة إيجاد حل لمشكلتهما بأية طريقة حفاظاً على رابطة الزواج بين أبنائهما، وهداهما التفكير إلى أن الحل يكمن في زواج التحليل، وأن عليهما أن يجدا من يقبل الزواج من ابنتهما بصفة مؤقتة، ولهذا قررا البحث عن من يقبل بأن يكون محللاً فيتزوج من حليلة ثم يطلقها بعد مدة قصيرة، وبذلك تصبح

عودتها إلى زوجها السابق شرعية، ولكن من يقبل بهذه المغامرة؟ وكيف يتم ذلك؟ لا بد أن يكون من يقبل مثل هذا رجلاً فقيراً لم تتوفر له فرصة الزواج، وتذكراً أن جارهما المبروك الأزرق لازال عازباً، وهو في نحو الثلاثين من العمر كما هو معروف بين الجيران، فهو يعمل ساعياً للبريد يرونه كل يوم يطوف الشوارع بدراجته لتوزيع البريد على البيوت والمحلات التجارية، وبعد أن استعرضا حياة جارهما مبروك وسلوكه رأيا أنه خير من يمكن التعويل عليه في حل هذه المشكلة المستعصية إذا قبل القيام بهذه المهمة .



كان الوقت عشاءً عندما جاء سالم بن خليل إلى ذلك البيت القديم القابع في نهاية الشارع والذي كان مدخله مقوساً وله باب كبير يتوسطه باب آخر صغير من الطراز المعروف بـ (البَحْوَحَه) والذي يكتفى بالدخول إليه من الباب الصغير المستعمل لهذا الغرض لأن الباب الكبير لا يفتح إلا إذا أريد إدخال عربة أو حيوانات كما هي عادة الأجداد، وبعد تأمل مد سالم يده إلى الحلقة الحديدية العالقة بالباب الصغير وطرق عليه طرقات خفيفة تحسباً لما يثير القلق كما هو معروف في طارق

يعتمل في صدره، فاندفع يحدث أخاه بكل ما يلاقيه من متاعب بسبب تصرفات ابنه عامر التي سبق أن حدثه عنها من قبل، وتأسف صالح كثيراً لأن مثل هذه التصرفات تسيء إلى سمعة عائلة آل خليل المعروفة بالاستقامة، وتبادل الشقيقان الرأي في كيفية تقويم سلوك عامر حتى توصلوا إلى فكرة رأيا فيها الحل لمشكلتهما، هذا الحل الذي سيقوم سلوك عامر هو الزواج، ولما كان لصالح ثلاث بنات أكبرهن حليلة التي تقارب عامر في السن فهي أصغر منه بسنتين، فقد اقترح سالم أن يجمعا بين ابنه وابنة شقيقه صالح، ولما كان هذا الأخير يحبذ هذه الفكرة التي سبقه إليها شقيقه فقد وافق على ذلك مبتهجاً وأبدى استعداداه للمساهمة في هذه المناسبة التي كان يتمناها، وهكذا اتفق الشقيقان على الإسراع في إقامة العرس للجمع بين عامر وحليمة؛ فبذلك يمكن تقويم سلوك عامر والمحافظة على تماسك عائلتيهما وحصر الزواج بين أبنائهما ..



أقام سالم بن خليل عرساً كبيراً لابنه عامر ظل الجيران يتحدثون عنه مدة طويلة، فقد كان عرساً مشهوداً في تلك السنة التي عرفت بـ (عام الصابة) والتي تعددت فيها الأفراح، إذ

أحيت ليلاليه المطربة المعروفة نجمة، تلك المرأة الكفيفة التي لا تغيب عن أفراح المدينة والتي كانت أغانيها تطرب النسوة فيصفقن ويرددن معها مطلع كل أغنية ويرقصن على نقرات الدربوكة التي برعت نجمة في الضرب عليها بأناملها الغليظة، فقد كانت هذه المرأة بدينة، وكان صوتها العذب يطرب كل من يستمع إليها وهي تشدو بالألحان الشعبية الموروثة وتردد أغانيها المحببة إلى النسوة من أمثال الأغنية المشهورة التي يقول مطلعها: « نا يا بوي إجميلي جاء، عليه نورد ونجيب الماء »، والأغنية المعروفة التي يقول مطلعها « شينك قبلي صرهادي، حازك يا الغالي في الوادي »، إلى جانب (غناوي العلم) ذات المعاني الجميلة التي تؤدي في الأفراح وتقابل بوابل من الزغاريد ...



لسوء الحظ لم تدم فرحة آل خليل طويلاً، فقد أطلت عليهم مشكلة جديدة أكثر تعقيداً من المشكلة السابقة التي ظنوا أنهم وجدوا لها حلاً وارتاحوا من معاناتها، لقد عاد عامر إلى سيرته الأولى بعد الزواج بمدة قصيرة، إذ ظل يواصل سهراته خارج البيت ويعود في أواخر الليل مخموراً فيشتبك مع زوجته في

الليل غير المرغوب فيه، وسرعان ما قام المبروك بفتح الباب ليجد أمامه جاره سالم الذي بادره بإلقاء تحية المساء بصوت خافت ليبيعث الطمأنينة في قلبه، ورد مبروك تحية زائر الليل مستغرباً تلك الزيارة المفاجئة ودعاه إلى الدخول، وفي المربوعة بدأ سالم يمهد لفكرته بكلمات رقيقة ثم أخذ يسرد على مسامعه ما جاء من أجله وهو البحث عن محل مشكلة الطلاق الذي أدى إلى تحريم زوجة ابنه وقال له إنه لم يجد أصلح منه لحل هذه المشكلة، وظل المبروك ينصت إليه باهتمام وتوجس من هذا العرض المفاجئ، بينما استمر سالم في كلامه بقصد تبديد مخاوفه من الإقدام على هذه المهمة التي لا تكلفه شيئاً سوى الموافقة بأن يكون محلاً فيتزوج المطلقة بصورة مؤقتة ولمدة محددة، وانتظر المبروك حتى توقف سالم عن الكلام وقال وهو مرتاب :

- لكن أنا رجل فقير ومعاشي طق دوب الحنك !

- أنا عارف حالتك رقيقة ما اتخمن على شيء .

ولاحظ سالم أن المبروك يبدو متردداً فواصل كلامه كي يطمئنه بأنه هو الذي سيتولى مصاريف الفرح وما عليه إلا أن يقبل هذا العرض الغريب، وهكذا تمكن سالم من إقناع المبروك

بالزواج المؤقت، فقبل الأخير ما عرضه عليه سالم وتعهده بطلاق المرأة بعد إنهاء مهمته، وتمّ الاتفاق بينهما على تحديد موعد الزفاف والإعداد للعرس في أقرب وقت، وخرج سالم وهو مطمئن إلى نجاح مهمته الصعبة وظل طوال الطريق إلى بيته مفكراً في إعداد العرس المقبل عليه والذي لم يكن هذه المرة من نصيب ابنه وإنما هو عرس آخر فرضته عليه ظروف لم يكن يحسب لها حساباً .



كان قد مرّ على زواج مبروك من حليلة ثلاثة شهور عاشتها تلك العائلة الصغيرة في سعادة، فقد مرّت بها أيام جميلة لم تكن تحلم بها ولم يذكر مبروك أنه رأى يوماً واحداً مماثلاً لهذه الأيام منذ أن فتح عينيه على الدنيا، إذ لم يكن يحلم بأن تكون له زوجة مثل حليلة التي ملأت حياته بهجة وبرقتها وحنانها حتى أنسته أيام المعاناة، ولم يكن هو أقل منها حناناً فقد أحسن معاملتها وبادلها شعور المودة، حتى أخته رابحة الأرملة التي أوقفت حياتها على رعايته والعناية بشؤونه قد وجدت في حليلة من يونس وحدثها فغمرت بها بحبها وحنانها مما جعل حليلة

تتعلق بها وترى فيها أمأً حنونة أنستها متاعب الأيام التي لم ترَ فيها الراحة ولم تذق فيها طعم السعادة في زواجها بابن عمها،

لقد مرّت الشهور الثلاثة على تلك العائلة ولم ترَ فيها ما يكدر صفوها حتى حدث ذات مساء ما كان متوقفاً، لقد عاد المبروك إلى البيت في حالة غير طبيعية فقد كان مهموماً وما كاد يصل إلى حجرته حتى استلقى على السرير وهو شارد البال، ولما كانت حليلة لم تشهده في هذه الحالة منذ وطأت قدماها أرض ذلك البيت القديم، فقد لجأت إلى شقيقته رابحة تستجد بها لترى ما حلّ بشقيقها، وعندما جلست المرأتان بقرب المبروك وهو مستلقٍ على الفراش في حالة استرخاء كمن كان يقوم بعمل شاقٍ أخبرهما بما أزعجه وطير صوابه وهو الخبر الذي زفه إليه أحد الجيران الذي قال له إن سالماً عم حليلة سيحضر إليهم لإنهاء موضوع الزواج المؤقت، وقد أوقع هذا الخبر الخوف في قلبي المرأتين اللتين سرعان ما تساقطت دموعهما وأجهشتا بالبكاء، فهما تعلمان أن السيد سالم لن يأتي إليهم في زيارة ودية، ولا بدّ أنه يريد مطالبة المبروك بإنهاء علاقة الزواج الذي نعماً في ظله بالسعادة، وبينما استمرت المرأتان في

النحيب، أخذ المبروك يفكر في كيفية التصرف حيال هذه المشكلة التي تواجهه لأول مرة فهو يدرك جيداً أن زواجه من حليلة مقيد بشروط سبق له أن وافق عليها، وأنه لا بد أن يأتي اليوم الذي يطالب فيه بالإيفاء بوعده وتسريح زوجته لتعود إلى أهلها، فليس في الأمر مفاجأة له، إلا أن الأيام التي مرت به خلال فترة الزواج القصيرة التي شعر فيها بسعادة لم يألفها جعلته يترك موضوع التخلي عن زوجته للظروف، ولكن ها هو الآن يواجه امتحاناً عسيراً، كيف يمكنه التخلي عن زوجته بسهولة؟ هل يذعن لإرادة أهلها ويطلقها كما يريدون؟ إن مجرد التفكير في الطلاق يصيبه بدوار، وتتابععت التساؤلات في ذهنه وأحس كأن كابوساً يضغط على قلبه ويكاد يخنق أنفاسه، لقد قطع عهداً على نفسه ولا يعرف كيف يمكنه التوصل من هذا العهد المقيت، لكن رغم ما في الطلاق من تضحية بسعادته وما يشعر به من ألم عند ذكر هذه الكلمة البغيضة، إلا أنه قرر بينه وبين نفسه أن يذعن لمشيئة أهل حليلة إذا ما ألحوا عليه في طلبهم، فهو لا يريد أن يقال عنه إنه تمسك بالمرأة طمعاً في ثراء أهلها ..

وبينما المبروك غارق في أفكاره قطعت حليلة الصمت
الذي ران على البيت وأسلمهم للحزن وهي تعلن عن رأيها في
صراحة :

- أنا ما نبيش نعاود لهلي، ما نبيش نفارق !

وشعر المبروك كأن أحداً انتشله من بئر عميقة أسقط فيها
عنوة، واعتدل في سريره جالساً وقال مستفسراً :

- كان زروا علينا هلك شنو انقول لهم ؟

وهنا انبرت رابحة قائلة بلهجة حادة :

- قول لهم حليلة ما تبيش لفراق وما نقدرش انطلقها .

- مادام حليلة ما تبيش افراقنا حتى انا مش هاينة علي .

- اماله دير كيف ما قلت لك طردهم !

ولم يعلق المبروك على كلام شقيقته واكتفى بالتمدد على
السريير صامتاً، ليفكر كيف سيلقي أهل حليلة، الآن عليه أن
يستعد لرفض طلبهم بعد أن اطمأن إلى أنها تفضل البقاء معهم
ولا تريد الإذعان لرغبة أهلها، لقد كان رفض حليلة العودة

لأهلها حافظاً له على الاستعداد للمواجهة الحاسمة مهما يكن
الأمر ...

في مساء اليوم التالي، الذي أعقب ما حدث في ذلك البيت
القديم وعكر صفو العائلة الصغيرة، سمع المبروك طرقاتاً على
باب البيت الذي يلفه السكون، ذكره بطرقات خفيفة حدثت منذ
ثلاثة شهور، وأدرك أن الطارق لابد أن يكون سالم عم زوجته
فهو لم يعرف أحداً سبق له الاهتمام بزيارتهم ليلاً ولا حتى
نهاراً، وقام مسرعاً ففتح الباب ليجد أمامه السيد سالم كما توقع،
غير أن هذا الأخير لم يكن وحده هذه المرة فقد كانت تصحبه
امرأة بدينة عرف المبروك أنها الحاجة جميلة والدة زوجته
فرحب بالقادمين غير المرغوب في حضورهما ودخل وهما
يتبعانه إلى وسط الحوش، وبينما جلس المبروك مع عم حليلة
أمام مدخل حجرة النوم وقامت رابحة بإعداد الشاي دخلت
الحاجة جميلة مع ابنتها إلى الحجرة التي أخذت تتقرس في
جدرانها الشهباء التي تبدو أنها لم تمر عليها فرشة طلاء منذ
أمد بعيد، ثم قالت :

- هابا عليك دار اتحشم يا ابنتي !!

- أنا ما القيت راحة إلا في هالدار .

- راحتك مش هنا عاودي لهلك خيرلك ..

- أنا ما عنديش دار انعاودلها، هضوم هم هلي .

كانت حليلة تتكلم بصوت مرتفع وكان عمها يستمع إليها
في استغراب وهو يهز رأسه أسفاً على ما تفوهت به، بينما
المبروك يجلس صامتاً وهو يشعر بصدق حليلة في إبداء رأيها
دون مبالاة بكلام أمها وتحريضها ..

- لو كان ما تاخذي كلامي معاد تبقي لي بنت ..

ولم ترد حليلة على كلمات أمها فقد أجهشت بالبكاء
وبينما خرجت أمها غاضبة انتفض عمها واقفاً ووجه كلامه إلى
المبروك الذي كان يدخن في صمت :

- الكلام معاك أنت يا سي المبروك ليش ما اطلقها ؟

وررت كلمة الطلاق في أعماق المبروك فأحسّ برعشة
تسري في أوصاله فلم يسبق لـه أن تعرض لموقف مثل هذا،
وظلّ برهة صامتاً يفكر في كيفية الخروج من هذا المأزق ثم
قال في نبذة حادة :

- أنا كنت ناوي انوفي بعهدي لكن توا معش نقدر ..

- ليش ما تعطيها كلمتها وتريحنا من هالحصلة ؟

- ما نقدرش لأجل حليلة ما تبيش الفراق كان تفهم ..

- العتب مش عليك علي أنا اللي نحساب عندك كلمة !

وشعر المبروك بالإهانة من كلام السيد سالم إلا أنه لم يرد عليه خشية أن يتطور الموضوع إلى معركة تلفت نظر الجيران وتثير ضجة في الشارع ..

وخرجت الحاجة جميلة وهي تلعن اليوم الذي وافقوا فيه على زواج ابنتها من هذا الرجل الذي أخذ بوعده وخذله، وقالت موجهة كلامها لسالم :

- البنت ما تبيش تعاود لدارها هذا هو قداها .

وضرب سالم كفاً بكف متحسراً على فشل مسعاه في عملية التحليل التي خطط لها ولم تتجح، وقال :

- هيا اطلعي فكينا من هالساعة .

ثم خرج تتبعه السيدة جميلة وهما في حالة غضب شديد وفسى إثرهما المبروك بمشي صامتاً حتى إذا غادرا البيت شعر

كأن كابوساً انزاح عن كاهله فأوَّصد الباب بالمزلاج وقال يحدث

نفسه :

- قالك طلقها، هذه طرشه وهذي ما تسمع !

obeikandi.com

الجيران

كان شارع بوخمسين أحد شوارع المدينة القديمة الذي لم تصل إليه الكهرباء، لأن شبكاتها كانت مقتصرة على إضاءة شوارع الحي الغربي حيث تسكن العائلات الإيطالية وتوجد دوائر الحكومة والمؤسسات التجارية، أما الأحياء الشعبية في شرق المدينة وشمالها فقد كانت تُضاء بواسطة فنارات الكيروسين الموزعة على الشوارع بمعدل فنار واحد لكل شارع يُثبت في جدار البيت الذي يتوسطه ويُكلف أحد عمال البلدية بمهمة إضاءته في المساء وإطفائه في الصباح الباكر، وكان سي فرج فضل هو المكلف بهذه المهمة في شارع بوخمسين باعتباره أحد سكانه ومن العاملين في البلدية، فكان يخرج من بيته كل مساء يحمل سلاًماً صغيراً على كتفه وبيده (تناكة) مليئة بالكيروسين وفي جيـب سترته بعض الخرق الخاصة بالتنظيف، فيقوم بإسناد السلم على الجدار المثبت به الرف الحديدي الذي يحمل الفئار ثم يصعد عليه، فيُنزل الفئار ويقوم بتعبئته بالكيروسين ويمسح زجاجه ثم يفتح بابه ويوقد طرف

الفتيحة يعود تقاب، وبعد هذه العملية يقوم بإغلاق بابه وإعادته إلى مكانه تاركاً إياه مضيئاً، ولا يعود إليه إلا مع انبلاج أضواء الصباح ليقوم بإطفائه بعد الاستغناء عن ضوءه الشاحب.



كان كل شيء في ذلك الشارع يسير على وتيرة واحدة لا تتغير فيه طريقة المعيشة ولا تتبدل فيه عادات سكانه الذين ألفوا حياة الفقر وتكيفوا معها، هكذا كانت الحالة حتى أُقيم فرح (آل السعداوي)، ودام مدة الأيام المعتادة ثم انتهى قبل أن تنتهي طقوس (العراسة) الذين وجدوا أنفسهم بلا مكان يواصلون فيه سهراتهم حتى نهاية الأسبوع، فقد طلب منهم ميلاد صاحب البيت، الذي قضاوا فيه أيام الفرحة الثلاثة، أن يقوموا بإخلائه بعد انتهاء المدة التي يستعان فيها ببيوت الجيران طيلة أيام الفرحة، كما جرت العادة، فاضطر العراسة إلى البحث عن مكان آخر يواصلون فيه سهراتهم حتى يوم الأسبوع، فمازالت لديهم الرغبة في الترفيه عن أنفسهم بمواصلة ليالي الأناج، رغم أنه في كثير من الأحيان تنتهي هذه الليالي بالشجار وتبادل اللكمات ويطلع عليهم الصبح وقد تورمت وجوههم من أثار اللكمات واحمرت عيونهم وثقلت رؤوسهم من تأثير الخمر، وبعد تفكير اهتدى جماعة العراسة إلى

بيت صغير تملكه امرأة تُدعى طامية هي سليمة العائلة التي أُطلق اسمها على الشارع، كانت هذه المرأة قد خصصت بيتها للإيجار وأوكلت مهمة تأجيره إلى جارها سي الفرجاني بعد أن ذهبت للإقامة مع أقاربها في حي بوزغيبية؛ لأنها لم تعد تطيق الإقامة فيه وحدها، وظلَّ المستأجرون يتداولون على ذلك البيت فتؤجره عائلة لفترة من الزمن ثم تغادره لتحل مكانها عائلة أخرى، وهكذا حتى أصبح شاغراً في تلك الفترة التي تزامنت مع ذلك الفرح الذي انتهت مدته، وكانت الفرصة مواتية لجماعة العراسة الخمسة المقيمين في الشارع بعد ذهاب الرجال القادمين من الأحياء الأخرى، فقاموا باقتحام ذلك البيت الشاغر بعد تكسير القفل، وأحضروا لوازم السهرة من الخمر وتوابعه، كما أحضروا امرأة كانت معروفة بملازمة سهرات العراسة لتقوم بدور الساقى وإضفاء جو من المرح عليها، غير أنه عندما دخلوا البيت خلسة بعد الغروب وجذوه مظلماً، فليست به وسيلة إضاءة، وانقلبت فرحتهم بالعثور على المكان إلى قلق وتفكير في كيفية التغلب على هذه المشكلة التي لم يحسبوا لها حساباً، وفجأة خطرت لمفتاح الجطف، وكان أكبرهم سناً وأضخمهم جسماً، فكرة جعلته يصفق بيديه فرحاً ويُطلق صيحة :

- راحت والقيناها يا كوازي !

وهنقوا في صوت واحد مستقرين :

- شنو قلت يا مفتاح شني اللي القيتها ؟

- الفنار، فنار الشارع هذا اللي القيته ..

ورغم أن هذه الفكرة قد راقت لهم إلا أنهم ظلوا يتناقشون في كيفية إنزال الفنار من مكانه وليست لديهم وسيلة يصعدون عليها، فالمسألة تتطلب خبرة في إنزاله حتى لا يتعرض للكسر ويُفتضح أمرهم ..

كان الرف الذي يُوضع عليه الفنار مرتفعاً عن الأرض بمقدار أعلى من قامة أطول الرجال، وبعد تفكير اقترح مفتاح، باعتباراه أطولهم قامةً، أن يركب على كتفيه أخفهم وزناً وأحسنهم ذكاءً لكي يتمكن من إنزال الفنار بسهولة، ووقع الاختيار على محمد باعتباراه لائقاً لهذه المهمة، فصعد على ظهر مفتاح ثم جلس على كتفيه العريضين ومدَّ يديه حتى تمكن من الإمساك بالفنار الذي كان حامياً فأنزله بسرعة وبداه ترتعشان من الحرارة ..

وهكذا تَمَّت إضاءة الحجرة التي اختاروها لوجود بعض
(الحصران) القديمة بها، وبدأوا السهرة التي بذلوا جهوداً في
سبيل إعدادها فتحلقوا حول المرأة التي تصدرت المائدة وأخذت
توزع عليهم كؤوس (الانيزيتا) حسب العادة المألوفة في
الأفراح، فكان كلما جاء دور أحدهم منّت له الكأس وطلبت منه
أن يغني على كأسه وعملاً بطاعة أمر الساقية يقوم صاحب
الكأس بإطلاق العنان لصوته ويصدق بأغنية (علم)، يقاطعها
الحاضرون بالصياح في حالة استحسانهم لمعانيها كما يقال عادةً
جاءت على (الفاهق) ..



كانت أضواء الصباح قد بدأت تزيح عتمة آخر الليل
عندما خرج سي فرج فضل من بيته يحمل السلم على كتفه
كعادته كل صباح ليقوم بإطفاء ضوء الفانار الذي تنتهي مهمته
بعد ظهور النهار، وما كاد سي فرج يخطو خطوات في الشارع
حتى اعترته الدهشة وهو ينظر إلى موضع الفانار الذي بدا
خالياً، لقد فوجئ باختفاء الفانار واستغرب ما حدث، فهذه أول
مرة يُنزع فيها من مكانه، فمن تراه تجرأ على سرقة؟ ومن
يمكنه القيام بهذه الفعل الشنيعة؟ فالسرقة تكاد تكون معدومة في

المدينة التي يسودها الأمن ولا يوجد بها مجرمون محترفون، ولكن يبدو أن أموراً غريبة طرأت عليها !! وفيما كان سي فرج يتمشى في الشارع حائراً طرق سمعه غناء وضجيج فتتبع مصدره وتبين له أنه ينبعث من بيت طامية، وأدرك أنّ في الأمر سرّاً، فتوجه إلى بيت سي الفرجاني الذي وجدته يتهيأ لصلاة الصبح وأخبره بما حصل في الشارع وأسرعاً معاً إلى ذلك البيت الذي تقام فيه حفلة غنائية في غفلة من الجيران، وما كادا يصلان إليه ويدفعان بابه حتى انفتح بسهولة؛ إذ يبدو أن الجماعة في غمرة فرحتهم بذلك المكان نسوا إقفال الباب، فدخلوا وتوقفوا في السقيفة الطويلة يتتصتان، كان الجماعة في تلك اللحظة يرددون أغنية معروفة لدى العراسة يقول مطلعها: (يا ريم الجليليه كيف اندير، الخفة عيب والعشق مصيبة - كيف اندير)، كانوا يجلسون في ضوء الفئار الموضوع على حافة السدة الخشبية وهم في حالة انسجام وطرب، وفي ذلك الضوء المنبعث من الفئار تمكن سي فرج وسي الفرجاني من معرفتهم، مفتاح الجطف ومحمد وصالح وعطية ورمضان، كانوا هؤلاء الخمسة من سكان الشارع، ولم يكن بينهم غريب سوى المرأة التي كانت تدلق لهم الخمرة في الكؤوس وتمررها بينهم، وفوجئ الجماعة بصوت سي الفرجاني يتنحنح فتوقفوا عن

الغناء وقد أذهلهم الموقف الحرج واران عليهم الصمت، فلم يعد
يسمع منهم سوى بعض التآوهات والزفرات، وصرخ فيهم سي
فرج وهو في حالة غضب شديد :

- وبين تعرفوا العيب اللي اتغنوا عليه يا سكاره .، يا سراقه
الفنار !؟

وقال سي الفرجاني وهو يحوقل متأسفاً :

- مش عيب عليكم تعتلوا حوش الجيران هكي حشمتوا
بهلكم !؟

وقال سي فرج متوعداً :

- تـوا اتشوفوا شنو اندير لكم ياللي ماتستحوش على
وجوهكم ...

وهنا تحرك مفتاح الجطف بصعوبة، وقال في كلمات
مقطعة، فهو كان معروفاً عنه أنه يعب من الخمر في كل
مناسبة حتى يفقد وعيه ويبول في سرواله :

- شنو تقدر، ادير لنا، يا عنتر، يا بن شداد ..

وردّ عليه سي فرج مهدداً في سخرية :

- توا نعدى تشكى فيكم، وانحطك في دار خالتك يا افتوحه !

قال سي فرج ذلك رداً على تهكم مفتاح الحطف وخرج مسرعاً ليأخذ طريقه متوجهاً نحو مركز البوليس للإبلاغ عما حدث، وليكن ما يكون، وأدرك سي الفرجاني بفتنته خطورة الأمر إذا وصل الخبر إلى البوليس، ففي هذه الحالة يتم القبض على الجماعة الخمسة وصاحبتهم وتقديمهم إلى المحكمة التي لا بدّ تدينهم وتحكم بسجنهم، ويترتب على ذلك ضرر بالغ بهم وبعائلاتهم، إضافةً إلى حدوث فضيحة تُسيء إلى سمعة الشارع الذي عُرف سكانه، رغم فقرهم، بأنهم أناس طيبون ولم يحدث أن ظهر من بينهم لص يزاول مهنة السرقة أو الاعتداء على حرّامات البيوت، وإذا لم يحسم هذا الموضوع بطريقة ودية فإن عواقبه ستكون وخيمة على الجميع، كانت هذه هي الخواطر التي دارت برأس سي الفرجاني ودعته إلى اللحاق بسي فرج لإثباته عن قصده وإقناعه بالعدول عن الشكوى التي تهدد علاقات الجوار الطيبة بالانقسام، ولم يدع سي الفرجاني هذه الفرصة نقلت من بين يديه فأسرع يركض في إثـر سي فرج الذي انعطف إلى الطريق الغربي بحث خطاه مسرعاً، وأخذ سي الفرجاني ينادي على سي فرج وهو يركض خلفه وصوته يبدد

هدوء الصباح، إلا أن الأخير لم يسمعه، كان قد ابتعد، وزاد سي
الفرجاني من سرعته وهو يكرر النداء الذي لفت أنظار
الجزارين الذين بدأوا يتوافدون على (سوق السعي)
و(المجزرة القديمة) في ذلك الصباح الباكر، وبعد مجهود شاق
تمكّن سي الفرجاني من إدراك سي فرج الذي كان قد وصل
بمحاذاة محطة توزيع المياه، وهكذا فوجئ سي فرج بيد سي
الفرجاني القوية تمسك بذراعه وتوقفه عن السير، كان سي
الفرجاني يلهث من أثر المجهود الذي بذله في العدو السريع ولم
يستطع أن يتكلّم، ونظر إليه سي فرج وأدرك بقوة ملاحظته
ماهية الأمر الخطير الذي دعا سي الفرجاني إلى الجري وراءه
مسافة طويلة دون توقف، ولهذا لم يجادل أو يحاول الإفلات من
يديه، وهكذا سحبه سي الفرجاني من ذراعه فانقاد له صامتاً،
وعادا معاً يحثان الخُطى في طريقهما إلى شارع بوخمسين .

obeikandi.com

مولد يوم جديد

كانت الشمس لم تشرق بعد عندما علت بين مخيم المعتقلين صرخات مولود أيقظت بعض النزلاء، ولم تلبث أن تبدد صداها في فضاء الصحراء الشاسعة، وكان من بين من طرقت سمعه تلك الصرخات الحارس الإريتري الذي كان يربط قريباً من الخيمة التي شهدت ذلك المولود، لقد أرهف السمع لعل تلك الصرخات تتكرر إلا أنه لم يعد يسمعها، وأخذ يفرك عينيه ويهرش جلده في تكاسل، وبينما بدا الصمت يلف المخيم بعد تلك الصرخات كان هو لا يزال يشعر بوقعها على نفسه، وما كانت الشمس تشرق على تلك التلال الرملية حتى التقط البنديقية التي كانت مسندة إلى عمود خيمة الحراسة وانحدر نحو الخيمة التي انبعثت منها صرخات مولود جديد، وتوقف قليلاً يستمع إلى الأنين الصادر عن جسم واهن قبل أن يرفع (الرواق) برفق ويطل بوجهه الأسمر داخل الخيمة، حيث كانت هناك امرأة هزيلة ذات وجه ضامر تكسو وجنتيه الشاحبتين جدائل الشعر الأسود المقتول بخيوط من الصوف

المصبوغ بلون الشعر الذي يسمونه (العقوص)، كانت تلك المرأة تمسك الطفل الذي لم يمر على مولده سوى ساعة وتلصقه بصدرها وهي تعصر ثديها الهزيل تبحث له عن قطرات من الحليب تسكت صراخه الواهن، بينما جلست بجوارها عجوز ترفع يديها المعروقتين إلى السماء وتتمتم ببعض الأدعية، وأخذ الحارس يجيل النظر في زوايا الخيمة، ورأى رجلاً عجوزاً كفيف البصر يحتضن طفلة صغيرة كانت ترقد في حجره وقد بدا عليه الاهتمام وهو ينصت إلى صراخ الوليد بكل جوارحه، وتفوه الحارس بعبارات لم يفهم منها أهل الخيمة سوى قوله: (الله كريم، الله كريم)، ثم أسدل رواق الخيمة ومضى إلى مكانه، ورغم ما في كلمته من معنى الشفقة والرحمة إلا أن حواء انتفضت من وقعها على نفسها لصدورها عن شخص لم تعرف سوى أن لهجته تدل على أنه (مسوعي) واحتضنت وليدها بقوة .

عندما جلس ذلك الحارس في مكانه أخذ ينظر إلى أبراج المراقبة والأسلاك الشائكة التي تحيط بذلك المعسكر المقام وسط بحور من الرمال، ومع أضواء الصباح التي بدأت تغمر الآفاق بدأت تتداعى في رأسه صور تتلاحق لقرية صغيرة في إريتريا

وسرح بخياله بعيداً، حيث تراءى له منظر كوخ من (البوص)، وقد جلست بداخله امرأة سمراء ذات تقاطيع دقيقة ترضع طفلاً متعلقاً بصدرها وقد غرز أنامله الدقيقة في ثديها، ثم منظر فرس حمراء وإلى جوارها بجانب الكوخ أدوات حرائة ملقاة على الأرض، حيث تركت هناك مهملات ليأكلها الصدا، وتتابع في رأسه صور الوادي الكبير المحيط بقريته، ثم تخيل نفسه يركب سفينة تمخر عباب البحر وسط الأمواج المتلاطمة في طريقها إلى بلاده حيث تنتظره زوجته وابنه الذي وُلد يوم استدعائه للالتحاق بقوة عسكر إريتريا التي جندها الطليان ليأتوا بها إلى هذه البلاد التي يجلس فوق ترابها، ويشاهد ما يفعل بأهلها نون أن يدرك مغزى وجوده فيها، ومضت فترة لا يعرف مداها وهو يفكر في أشياء كثيرة مختلفة حتى نوى صوت (البوق) ليبدد الصمت الذي ران على المعسكر، ويعلن عن بداية يوم جديد كالأيام المتكررة بما فيها من مشاهد القهر والتعذيب، وأمال طربوشه الأحمر على جبينه وهرش مؤخرة رأسه ثم زفر بشدة وانطلق إلى نقطة المراقبة ليسجل انتهاء نوبة حراسته، كانت الحركة قد بدأت تدب في جميع أنحاء المعسكر وأخذت فرق العمل المكونة من المعتقلين الذين قُسموا إلى مجموعات تسمى كل واحدة (الفيلة)، ويشرف

عليها أحد أفراد شرطة الكرابينيري من المواطنين تباشر عملها اليومي المعتاد، دفن الموتى الذين يزداد عددهم بين المعتقلين مع مطلع كل شمس بسبب الأمراض الفتاكة، تجميع القمامة وردمها في حفر معدة لها، تنظيف المراحيض، نقل المياه من السيارات إلى الأحواض المنتشرة بين الخيام، وكانت كلما ارتفعت الشمس ازدادت حرارتها شدةً على أجسام الرجال الذين أنهكهم العمل المضني فيتسرب إليهم الملل وتفتر همتهم، وسرعان ما يلاحظ المشرفون ما حلّ بالرجال من تعب فيقومون بمهمة الجلد وترتفع السياط لتهوي على الأجسام في قسوة وفضاظة ويختلط أنين الرجال الذين تتصيب جلودهم عرقاً بأصوات السعال الحاد الذي يمزق صدورهم، وتظل الرمال تمتص بصاق المصدورين وتبتلع في جوفها جراثيم الأوبئة، ويظل الذباب يعشش على الوجوه التي غيرت ملامحها الأمراض ..



منذ أن أحضر المعتقلون من نجوعهم وقراهم إلى هذه الصحراء القاحلة وحُشِرُوا في هذا المعتقل الذي تحيط به الأسلاك الشائكة، ويتداول على حراسته عساكر من إريتريا مدججون بالسلاح، كان المواطنون يُطلقون عليهم اسم

(المسوّعة) نسبة إلى اسم مدينة في إريتريا يتردد ذكرها بين أولئك العسكر، منذ ذلك الحين والحالة تسير من سيئ إلى أسوأ، فقد انتشرت الأمراض وأدت إلى حصد الأرواح بسبب سوء التغذية والجوع وأعمال السخرة، هكذا كانت تمر الأيام شديدة الوقع على النفوس، حتى سرت ذات يوم إشاعة بأن هناك خبراً مهماً سيصدر عن إدارة المعتقل، وظل المواطنين يترقّبون ذلك الخبر بحذر شديد، فهم منذ أن جُلبوا إلى هذا الحبس لم يسمعوا خبراً مهماً يخفف عنهم المعاناة، ولم يطل الانتظار فقد أشرقت الشمس على يوم لم يكن في الحساب، فمذ الصباح أعلن عن صدور أمر من الحاكم العام في ليبيا يفيد بأن الحكومة الإيطالية بعد أن قضت على حركة التمرد في الجبل الأخضر وفرضت السلام في جميع أنحاء برقة قررت إغلاق جميع معسكرات الاعتقال وإطلاق سراح جميع المعتقلين، واستقبل المعتقلون هذا الخبر بالارتياح وهم يتطلعون إلى العودة لأراضيهم وممتلكاتهم، كانت أكثر العائلات فرحاً عائلة (سي غيث) وفي مقدمتها حواء التي أخذت تضم ابنها (مراجع) إلى صدرها وقد انبعث من عينيها بريق الأمل بعد يأس طال مداه، ثم أعطت الطفل إلى جده الضرير الذي احتضنه وأخذ يتحسس ملامحه بيده وقد غمره شعور من الراحة، وأدركت (حواء) ما يجول بخاطر عمها

غيث الذي فقد بصره إثر مقتل ابنه صالح، وأخذت الزكريات تمر تباعاً في رأسها، بدأت بذلك اليوم المشؤوم الذي داهمت فيه قوات الاحتلال نجوع الجبل الأخضر وقامت بترحيل القبائل إلى المعتقلات التي أعدتها لحبسهم، كان الوقت ظهراً وكانت هي تعد طعام الغداء لزوجها الذي عاد لتوه من الغابات بعد أن قام بتسليم المؤن التي جمعها سكان النجع إلى قيادة المجاهدين في معقل الجبل عندما داهمتهم قوات السواري المؤلفة من سلاح الفرسان والمدعومة بطابور من المشاة من عساكر إريتريا وبعض المرتزقة، وفي لمح البصر أحاطت تلك الجحافل بالنجع وتقدم القائد الإيطالي بجواده حتى اقترب من البيوت وأخذ يتكلم باللغة الإيطالية، قال كلمات كثيرة ترجمها ملخصة أحد المرتزقة كان فحواها أن حكومة صاحب الجلالة ملك إيطاليا المتوج بعناية الله قررت وضع حد نهائي لتمرد العصاة بهذا الجبل وفي سبيل تحقيق هذا الهدف رأت أنه من الضروري ترحيل النجوع إلى أماكن بعيدة لحرمان أولئك العصاة من الدعم الذي تقدمونه لهم، ونزل هذا القرار الجائر على نفوس المواطنين كالمصاعقة، لم يستطع أحد أن يحتج، وليس في إمكان أحد أن يعترض وهم محاطون بقوة لا قبل لهم بمواجهتها. وأمر ذلك القائد المواطنين بالخروج من البيوت والوقوف في صف بالعراء، ثم أشار إلى

عساكر المسوّع بتفتيش (بيوت الشعر) وسرعان ما اقتحم أولئك العساكر هذه البيوت وأخذوا يعتدون على الرجال بالضرب ويخلعون الحلي من آذان النساء ويسلبون الأمتعة، وظلت بيوت الشعر تتهاوى تحت سنايك الخيل التي باشرت قوة الخيالة في هدمها، هذه ذكريات ذلك اليوم المشؤوم الذي تمّ فيه ترحيل النجوع إلى عدة معتقلات من بينها هذا المعسكر الذي يسمى بـ (حبس العقيلة) والذي شهد مقتل زوجها ظلماً، وما كانت تصل إلى هذه الواقعة حتى تداعت في ذهنها ذكريات الفاجعة الثانية التي أعقبت عملية الترحيل والتي كانت بالنسبة لها أعمق تأثيراً في نفسها لأنها تنكرها بزوجها، كان زوجها (صالح) قد أراد ذات يوم أن ينزع السوط من يدي أحد عساكر (المسوّعة) الذي كان منهمكاً في ضرب المواطنين الواقفين في طابور أمام خيمة التموين انتظاراً لأخذ حصتهم من الشعير، لقد حاول صالح انتزاع السوط غير أن قواه المنهكة لم تساعد على ذلك، حيث استطاع العسكري أن يدفعه بعيداً وينهال عليه ضرباً بالسوط الغليظ ولم يتركه حتى سقط مغشياً عليه، وعندما نقل إلى الخيمة لم يلبث أن لفظ أنفاسه الأخيرة بين يدي والده الذي فقد ما تبقى في عينيه من نور البصر إثر تلك الحادثة، كانت هاتان الفاجعتان قد تركتا روايب عميقة من

الحزن في قلب حواء، رواسب أثارها الذكريات في ذلك اليوم الذي أعلن فيه خبر الإفراج عن المعتقلين، ذكريات مريرة ظلت تنداعى في ذهنها حتى أيقظها صوت عمها الضرير الذي كان يحتضن حفيده الذي يرى فيه امتداداً لابنه صالح والذي أطلق عليه اسم (مراجع) يوم مولده ..

- ردّي بالك من مراجع يا حواء، هذا ما خلى الزمان يا بنتي والتفتت حواء إلى داخل الخيمة بعد أن كانت تجيل النظر لترى ما يجري وسط المعسكر، فرأت عمها يمرر يده المعروفة على عينيه كأنه يبحث عن دموع لم تسعفه في تلك اللحظات التي اهتزَ فيها قلبه وهو يحتضن حفيده في حنان، كما رأت عمته التي كانت هي الأخرى تحتضن حفيدتها التي تنظر إليها في استغراب وهي ترى الدموع التي تسيل على وجنتيها المغضنتين، وبينما لم تعرف الطفلة سبب تفجر الدموع من عيني جدتها، كانت حواء قد أدركت أن العجوزين تذكرتا ابنتهما الوحيد الذي لقي حتفه على أيدي الجراد المتوحش، وطافت بذهنها صورة زوجها صالح وساورها شعور بأنه لم يموت وأنه لا يمكن أن يختفي من حياتهم، كانت تشك في موته رغم علمها بذلك، واستسلمت للأوهام وقد غطت عينيها ضبابية من الدموع ..



كانت الحركة تجري على قدم وساق يوم الإفراج عن المعتقلين، وقد بدأ النشاط يدب بين الرجال الذين لازالت بهم بقية من العافية ولازالوا قواهم البدنية متماسكة بعد أيام المعاناة الطويلة التي أكلت جدهم، وتمّ تحميل السيارات بما تبقى من أمتعة قليلة لا تعدو بعض الملابس القديمة والأغطية البائدة وأدوات الطبخ، لقد كانت أحاديث الرجال والنساء متباينة في ذلك اليوم، وكانت مشاعرهم متناقضة، منهم من كان يعصر قلبه الحزن على الأقارب الذين أودعهم المقابر الجماعية في تلك الفيافي، ومنهم من غمره شعور بالارتياح وهم يرون في نجاة القليل من الرجال وبقائهم على قيد الحياة ما يعوّض المفقودين في تلك المأساة، وانتهت عملية الإجلاء وتحركت السيارات بحمولاتها من الرجال والنساء والأطفال وهي تغادر ذلك المعتقل الذي بدأت الرياح تعبث بما بقي فيه من خيام كانت منذ ساعات تعج بالحركة ثم أصبحت خاوية كأنها لم يسبق لها أن استضافت أناساً أُجبروا على سُكناها بالقوة، الشيء الذي لم ينتبه إليه أحد من ركاب تلك السيارات الكبيرة وهي تغادر بوابة ذلك المعتقل الرهيب الذي سمي (حبس العقيلة) هو الجندي الواقف

أمام نقطة الحراسة وقد بدت على وجهه الأسمر علامات الارتياح، وانفجرت أسنانه البيضاء عن ابتسامة عريضة وهو ينظر إلى الأطفال الجالسين في أحضان أمهاتهم كأنه يبحث بينهم عن طفل أسمر تركه في بلاده البعيدة، ولم يكن ذلك الجندي سوى الحارس (المسوّعي) المسلم الذي أيقظه صراخ الصغير (مراجع) في ذلك الفجر الذي شهد مولده .

أبو سعديّة

لازلت أذكر ذلك الحي الشعبي الذي يقع خارج السور القديم في الطرف الشمالي من المدينة، وهو الحي المعروف باسم (زرايب العبيد)، والذي يكوّن مجموعة من أكواخ الصفيح التي تسكنها جماعات من القبائل المنحدرة من أصول سودانية وأفريقية، كان لابدّ لكل من يريد دخول ذلك الحي أن يجتاز القوس الحديدي العالي الذي يتوسط جدار السور الذي شيده الطليان، وكان بعد المدخل الرئيسي للمدينة أيام المقاومة الوطنية قبل أن يتآكل باباه الكبيران بفعل الصدأ المتراكم عليهما ويفقد قيمته مع مرور الزمن وتطور أحوال المدينة، كان هذا الحي يتكوّن من عدة صفوف مترابطة من الأكواخ المعدة من صفائح (الزينقو) تفصل بينها ممرات ضيقة لها أبواب من نفس الصفيح تقفل بسلاسل حديدية تتوسطها أقفال كبيرة كل ليلة ولا تفتح إلا في الصباح الباكر، وأمام هذه الأكواخ توجد ساحة كبيرة يقع في شمالها سوق صغير مكوّن من الأكشاك الخشبية التي تباع فيها المواد الغذائية والخبر

والتبغ، وتقع في جنوبها البناية الوحيدة المشيدة بالطوب والإسمنت والتي تتصدر بطلائها الأبيض غابة من الأكواخ التي صبغها الصداً بلونه البني الداكن، كان يسكن تلك البناية أحد الإيطاليين الذي أقام بها حانة تحمل اسمه (حانة كورادو) ظلّت لا تخلو يوماً من الرواد، ففي كل مساء يرتادها الحمالون وعمال النظافة وبعض العاطلين عن العمل الذين يقدم لهم السنيور كورادو الخمر مجاناً لاتقاء شرهم والاستعانة بهم في إخراج المشاغبين من الحانة وإبعادهم عنها، كان ذلك الحي الذي يبدو معزولاً عن بقية أحياء المدينة لا يمكن لأحد من الغرباء الدخول إليه من جهة الغرب إلا إذا كان مدعوّاً لحضور عقد زواج أو ختان ومشاهدة العروض الفنية التي تُقام في ساحة تقع عند نهاية صفوف الأكواخ في جهة الشرق كلما حلّت مناسبة شعبية أو دينية ففي تلك المناسبات تقوم كل قبيلة بعرض فنونها التقليدية فتصطف حلقات الرقص على إيقاعات (الدنقه) والتصفيق المصاحب لحركات الراقصين والراقصات كما تتطلق الأصوات الجماعية بالغناء، كانت الحفلات في المناسبات الدينية تُقام عادةً في فترة ما بعد الغذاء وتنتهي عند الغروب، أما حفلات الزواج فإنها تُقام داخل

الأكواخ وتستمر حتى ساعات متأخرة من الليل تحيبتها فتيات ذوات أصوات جميلة يجدن أغاني الفن المزركاوي منها أغنية يقول مطلعها: « لو يضربوني بالجريد وسله، ولو يكتفوني بالحديد انحله»، كان يتعذر على الغرباء الاستمتاع بتلك الأصوات العذبة التي يتردد صداها وسط ذلك الحي الغني بالفنون المتعددة، وكان بعض المحبين لذلك الغناء يسترقون السمع من وراء الأكواخ، كانت هذه طريقة أهل حي الزرايب في حفلاتهم الدينية والتقليدية، أما حياتهم اليومية فكانت تبدأ عندما تفتح الأبواب في الصباح الباكر وتدب الحياة بين السكان فيخرج الحمالون في طريقهم إلى الميناء، وتخرج بعض النسوة اللائحي يتجهن إلى داخل المدينة، منهن من تحمل على رأسها (قفة) مليئة بالفول الساخن مغطاة بعناية حتى يحتفظ الفول بسخونته، ويقبل على شرائه تلاميذ المدارس، ومنهن من تحمل على رأسها (قفة) معبأة بالأعشاب الطبية ذات الأسماء المتنوعة لبيعها في سوق الجريد، حيث يتواجد باعة تلك الأعشاب الذين تعودوا الجلوس أمام ضريح سيدي بالخير الذي يتوسط السوق.



من هذا الحي الشعبي المعروف بالزرايب كان يخرج عجوز اشتهر بلقب (بوسعدية)، لا يعرف أحد اسمها الحقيقي ولم يفكر أحد في معرفة سيرته الذاتية، كان رجلاً قصير القامة نحيل الجسم تزين وجهه البشوش لحية بيضاء خفيفة وابتسامة مشرقة توهي بطيبة قلبه، وكان يرتدي ملابس مرقعة تحيط بها عقود من العلب الفارغة منها علب (البوية) و (السردين) و (الطماطم) من مختلف الألوان والتصاميم، تغطي صدره وتلتف حول ذراعيه وساقيه، كما كان يحيط خصره بحزام من الجلد الأحمر تتدلى منه عدة أنواع من عظام الأغنام، منها عظم الفكين والكتف وغيرها تظل تتأرجح وتحدث خشخشة كلما أتى بحركة، وكان يغطي رأسه بطربوش من الخيش مثبتة به قطع مستديرة من زجاج المرآيا تظل تلمع تحت شعاع الشمس، أما أهم أدواته فهي (القيثارة) البدائية التي تشبه (الربابة) بها أربعة أسلاك معدنية، هكذا كانت هيئة بوسعدية بخصوصيتها التي يطل بها على السوق في شارع بن عمران فيزدحم حوله الصبيان يتابعون حركاته باهتمام وإعجاب كلما حضر وأخذ يداعب القيثارة فترسل الأنغام التي يشرع في الرقص على إيقاعاتها وهو يضرب الأرض بخفّه المرقع ويغني ويدور حول نفسه بحركة بطيئة، فيختلط صوت القيثارة مع خشخشة العظام وقرقعة العلب

الفارغة، كان يحضر أغلب الأحيان في أيام الجمع وكان مواظباً على الحضور في أيام الأعياد والمواسم (الكبائر) التي يجد فيها إقبالاً شديداً على ما يقدمه من فن يدخل السرور إلى النفوس خاصة عندما يندمج في الغناء بعفوية وهو يهتز بجسمه النحيل، رغم اختلاط كلماته مع ما تصدره بقية الأدوات وتعذر فهمها، وهكذا تعود الناس على رؤيته والاستمتاع بما يقدمه من الفن الشعبي الأفريقي الذي أطربهم وأجلى عن نفوسهم الأقدار وأنساهم متاعب الحياة ومشاكلها، فكان أصحاب الدكاكين يعطونه النقود المعدنية من فئة (النيكل) و(الصولدي) الكبير فيتأقفا ويلقيها في جوف القيثارة وهو يغني: (مولاي سلم اسياي، مولاي نجّي أولادي)، ويدور حول نفسه بسرور بين الصبيان والأطفال الذين كانوا يصاحبونه بالتصفيق الذي ينسجم مع موسيقاه وهم في أحسن حالات الطرب .



هكذا ظلّ بوسعدية محافظاً على ظهوره لا يغيب عن مشاركة الصبيان والأطفال في أفراحهم ولهوهم وحتى الكبار ممن كانوا يتابعون شطحاته كانوا يرون فيما يقدمه لهم نوعاً من التسلية تبعد عنهم الملل الذي يملأ حياتهم التي تتشابه

أيامها وتمر ساعاتها مشحونة بالقلق، وأخذت الأيام تمر في رتابة والناس ينتظرون إطلالة بوسعدية للاستمتاع برقصه وغنائه، وكما كانوا ينتظرون حضوره كان هو الآخر يفرح بلقائهم كلما التفوا حوله في ساحة السوق أو بأحد الشوارع، كان الشيء الوحيد الذي يزعجه هو ما تقوم به بعض الأمهات اللاتي يخوفن أبناءهن بالنداء عليه ليحضر إليهم ويأكلهم إذا لم يطيعوا أوامرهن، فهو لا يحب أن يظهر بصورة الوحش أمام الصغار الذين تعودوا الاستئناس به، وهذا ما حاول بعض الكبار إبعاده عن تفكير بوسعدية لأنهم لاحظوا اطمئنان الأطفال إليه كأن شيئاً خفياً يجذبهم إليه، فقد كان مقبولاً لديهم لما يتسم به من بشاشة تضيء ملامحه وتوحي بالود والمؤانسة، فهو حتى عندما يحاول أحد الأطفال المساس بأدواته كان يبتسم ويعاتبه بقوله: (رد بالك يا حمرة وذن، بوسعدية يقرص الوزن)، وعند ذلك كان جميع الأطفال يضحكون ويصفقون طرباً وحبوراً فيجعلونه أشد حماساً لإطرابهم، وهكذا ظلت الأمور تسير على هذه الوتيرة بين الناس الذين أنساهم بوسعدية هموم الحياة وتقلباتها حتى حدث ما لم يكن في الحسبان، لقد اختفى بوسعدية فجأة، لم يعد يحضر إلى السوق والشوارع كما اعتاد أن يفعل، واحتار

الناس في سر اختفائه، منهم من قال لقد عجز بوسعدية عن الحضور بسبب تقدمه في السن، ومنهم من قال لا بد أن يكون داهمه المرض فألزمه الفراش، وقيل حتى إن بوسعدية لقي وجه ربه، ولم يجد أحد من المسؤولين ما يؤكد صحة أقواله، لقد تحسّر الناس على فقدانه وظلّ سر اختفائه غير معروف لدى الجميع، وإن ظنّت ملامح شخصيته الفارقة التي ظهرت في فترة من فترات الزمن وزاحمت الأحداث تشغل حيزاً من ذاكرة المدينة العريقة.

obeikandi.com

الاختيار

مفاجأة غريبة الوقع تمثلت في خبر غير مسبوق لم يخطر ببال أحد من سكان شارع باله الذين تلقوا هذا النبأ بين مصدق ومكذب، خاصة جماعة (الشوكة) الذين تعودوا الجلوس في زاوية الشارع المحاذية لشارع السوق، وهم الثلاثي المعروف باسم (قيادة الأحوال)، لقد انتشر الخبر في الليل بعد صلاة العشاء، ولما لم تتح الفرصة لجماعة الثلاثي بالتحقق من صحة ذلك الخبر فقد ظلوا يترقبون طلوع الصباح بفارغ الصبر حتى يهرعوا إلى الشارع لتقصي الخبر ومعرفة ما إذا كان صحيحاً أم أنه مجرد إشاعة أطلقها أحد ظرفاء الحي، وفي الصباح أخذ كل من حمد الفحام وأبوعقيلة وأبو الصادق، وهم الثلاثي المتخصص في تتبع أخبار الحي يستفسرون من الجيران ومن أصحاب الدكاكين والمقاهي وحتى من المارة الذين لا علاقة لهم بالخبر ولا يربطهم بذلك الشارع سوء قضاء حاجاتهم من الدكاكين لقربها من مساكنهم، كان ما سمعه سكان الشارع لا يعدو خبر زواج حمودة بن عبدالله الذي كان مضرباً عن الزواج دون أن

يعرف أحد سبباً لذلك التصرف المستهجن في المجتمع، وبعد
تقصي الحقائق التأم شمل الثلاثي في المكان المعتاد ..

- هذا يا سي حمد اللي كنت اتقول عليه يموت وما يجوز،
أهو دارها !

- مازلت عند قولِي والله ما هو حاق وليه يا الصادق ..

- أنا خبرني أخوه الدوة صحيح مش كذب الراجل وتي
وصار منه ..

- ارفس يا بوعقيلة كان صار منه اضرب في هذين مقص !
قال هذه الكلمة في إصرار وهو يمسك بشاربه الطويل
ويفتله ..

- بالكلي هذا وين سخر له ربي ما اتعجب في شيء يا سي
حمد ..

- لو جرى ما جرى مانِي امصدق هالخبر يا بوالصادق ..
- أنا اتقول كل مر الراجل يسير منه ما يببش يقعد ديمه
اشكابلي ..

- نبقى ما نيش حمد الفحام كان اسمعتو زغروده في حوش
حموده يا بو عقيله .



ها هي قد هلّت ليالي الفرح وانطلقت الزغاريد في بيت
آل بن عبدالله الذي ازدان بعناقيد الأضواء، وبدأت حفلة
العزومة التي دُعِيَ إليها الضيوف تُقام وسط ذلك الحوش
الفسيح المفروش بالحصران الملونة، والحاضرون يلتهمون
الطعام المكوّن من الرز المغطى بالحمص والزبيب، ويتبادلون
الأحاديث التي لا تخلو من الاستغراب والتعجب، تارة همساً،
وتارة أخرى جهراً، هكذا كان أغلب الحاضرين بما فيهم
الطاقم الثلاثي المعروف بأصحاب الشوكة عدا واحد منهم هو
سي حمد الفحام الذي ظلّ صامتاً لا يعلّق بشيء ولا يتكلم كما
اعتاد في كل المناسبات التي تُقام بذلك الشارع الذي يقيم فيه
منذ وعي على الدنيا، كان يسيطر عليه شعور بالكآبة نتيجة
لإخفاق توقعاته باستحالة زواج حمودة بن عبدالله الذي كان
على مدى سنوات طويلة يرفض الزواج رغم تجاوزه الثلاثين
عاماً، والذي كان هو الأعزب الوحيد بين زملائه سائقي
القطارات الذين يعملون في مصلحة السكة الحديدية، كان سي

حمد الفحام لا يدرك أن حمودة قد أقسم أن لا يتزوج إلا الفتاة التي يراها بعينيه ويرتضيها زوجة له، وظلّ مصرّاً على رفض الزواج بالطريقة المتبعة في المجتمع، اقتناعاً منه بأن الزواج عن طريق الخطابات عادة عقيمة أوقعت بعض الناس في مشاكل انتهت بفشل الزواج بسبب سوء اختيار الخطابات اللاتي لا يثق في سلوكهن لما فيه من محاباة أحياناً وإيثار للأقارب أحياناً أخرى، حتى الأهل والأقارب لم تفلح مساعيهم في إقناعه بالعدول عن رأيه، لكن أنى له أن يحقق رغبته ورؤية الفتاة قبل الزواج؟! هو أمر محذور فرضته عادات أهلنا التي توارثوها جيلاً عن جيل؟، هكذا كانت حالة حمودة بن عبدالله حتى هذه المناسبة التي تُقام فيها حفلة العشاء، فما الذي حدث وجعله يقرر الزواج متأخراً؟ هل أذعن لرأي أهله ورضي بالواقع؟ أم أنه غير رأيه بعد معاناة طويلة لا طائل من ورائها؟ كانت هذه التساؤلات تدور في أذهان زملائه وهم يتحلّقون حول مائدة العشاء ..



هكذا ظلّ أمر زواج حمودة بن عبدالله لغزاً لا يدرك أحد معناه، ومن كان في مقدوره أن يدرك أن حمودة راودته فكرة

غريبة رسخت في ذهنه حتى حَقَّق بها أمنيته وبلغ بها غايته؟! وكان من نتيجتها هذا الزواج المفاجئ الذي لم يعرف أحد الطريقة التي تحقَّق بها سوى سي جاب الله الوراد الجالس في ركن المربوعة، والذي كان يراقب حمودة وهو يقوم بتقديم أواني الأكل وزجاجات المشروب للضيوف ويصب الماء على أيديهم لغسلها بعد فراغهم من الأكل، وكان يبتسم كلما التفت عيناه بعيني حمودة الذي كان يبادلُه الابتسام، كانت الفكرة التي راودت حمودة وظلَّت تلح عليه لمدة طويلة تتجسم في شكل تساؤلات ربما لم يفكر فيها أحد قبله،

- لماذا يكون لبعض الرجال الحق في رؤية النساء دون حجاب رغم أنهم غرباء عنهن؟ ولماذا يدخل هؤلاء الرجال إلى البيوت دون استئذان؟ وكيف يسمح لهم أهل الحي بذلك؟

لقد جرت العادة بمنع النساء من الظهور أمام جميع الرجال بدون غطاء عدا المحارم، إلا أنه لاحظ، كما هو معروف في مدينتنا الطيبة، أن هناك فئتين أو ثلاثة من الرجال، بغض النظر عن دخولهم للبيوت ولقائهم بالنساء اللاتي يظهرن أمامهم دون حجاب، ولم يجد مبرراً لهذه العادة سوى أن هؤلاء

الغريباء قد اكتسبوا هذا الحق بمجرد أنهم خدّام يترددون كل يوم على الشوارع بحكم عملهم، فمنهم البائع المتجول الذي يحضر لوازم النساء من أدوات الزينة وأسلاك الخياط والأمشاط وغيرها، والكناس الذي يجمع القمامة، والورّاد الذي يجلب المياه للأحياء التي لم تعرف الحنفيات بعد، وإذا كان هذا ما جرت عليه العادة عندنا فلماذا لا يستغل هذه الظاهرة المنتشرة في المدينة؟ لماذا لا يجرب حظه إذ ربما عن طريق هذه العادة يتمكّن من رؤية الفتاة التي يريد اختيارها بنفسه؟ ولكن كيف يمكن المجازفة بدخول بيوت الناس حتى لو تتكرّر في شخصية الورّاد؟ ومن يرضى أن يسمح له بتقمص شخصيته؟ ..

لقد ظلّت هذه التساؤلات تتدافع في ذهنه دون أن يجد لها إجابة، ومع مضي الوقت كاد ينسى التفكير في هذا الموضوع الذي استبعد إمكانية تحقيقه ..



لولا حدوث ما أحيا هذه الفكرة في ذهنه فقد وفدت على الشارع عائلة جديدة تُدعى عائلة (آل البحري)، وأقامت في بيت الحاجة (سَبَبْ) الذي استأجرته، وتبيّن أن لهذه العائلة بنتاً

وحيدة تحدثت عنها نساء الشارع بما فيهن والدته اللاتي أعجبين بحسنها وأخلاقها ومقدرتها على إدارة شؤون البيت عندما قمن بأداء الزيارة لتلك العائلة للتهنئة بالمسكن الجديد كعادة الجيران، لقد أحيت هذه العائلة في ذهنه الفكرة التي طالما طافت بخياله وأرقته قبل أن يتمكن من صرف النظر عنها فترة من الزمن، فما هي الفكرة تعود تلحّ عليه وتشتغل باله من جديد وتجعله يفكر، فما هو الحل؟ وماذا في إمكانه أن يعمل؟ ورأى أنه لابدّ من التصرف إما بترك الفكرة نهائياً وإما بالمجازفة في تنفيذها، وبعد تفكير اقتنع أنه لا سبيل إلى تركها وعود على التحضير للقيام بتنفيذها مهما كانت الصعوبات، وقرر تقمص شخصية (الورد)؛ لأنه هو الشخص الوحيد المسموح له بدخول البيوت حتى أعماقها دون إذن مسبق، فما عليه إلا أن يفتح الأبواب التي غالباً ما تكون مواربة ويتحنح حسب العادة ثم يذف إلى الداخل وهو يحمل (التناكات) المليئة بالمياه، وظلّ يتحين الفرص لتنفيذ فكرته بتقمص شخصية الورد حتى يتمكن من دخول بيت آل البحري ورؤية ابنتهم التي شاع خبر جمالها بين سكان الشارع رغم ما في ذلك من المخاطر إذا افتضح أمره وساعت سمعته ..

في اليوم الذي حدده حمودة لتنفيذ فكرته ارتدى قميصاً أبيضَ وسروالاً عريضاً أزرقَ وشنه غطت رأسه حتى نصف أذنيه، كانت كلها من ملابس والده، واستعدَّ لتمثيل الدور فرفع البنطلون حتى ركبتيه وخرج إلى الشارع حافي القدمين يتربقّب حضور عربية المياه، وأثناء ذلك حضر الكناس يدفع أمامه (البرويطه) وخاف أن يكشف أمره فدخل إلى بيتهم، حتى إذا انتهى الكناس من جمع القمامة وأخذ طريقه نحو محطة التجميع تنفّس الصعداء وأخذ يسترق النظر من وراء الباب حتى تناهى إلى سمعه صوت عربية المياه قادمة من مدخل الشارع الغربي ولمح سي جاب الله الورّاد يقود الحصان الذي يجر الكروسة المحمّلة بالمياه والتي كانت تتمايل وهي تجتاز حفر الشارع المتناثرة وتتطاير منها دفقات من المياه المتسربة من الفتحة الصغيرة في أعلى الخزان المعدني المستدير (البتيّة)، وما كاد سي جاب الله يوقف العربية بجوار الحائط ليفسح مجالاً للمارة في ذلك الشارع حتى أخرج صفيحتين من الصفائح الأربعة المعلقة في عارضة خشبية تحت العربية وأخذ يملؤها بالماء من الصنبور المثبت في أسفل الخزان ثم يطرق الأبواب واحداً تلو الآخر كما كان يفعل لمجرد التتبيه، ويدخل محملاً بالماء حتى يصل أماكن (أزيار) الماء ..

ظلَّ حمودة كامناً وراء باب البيت حتى اقتربت عربة المياه من بيت (آل البحري) الذي صمم على دخوله، وانتظر حتى دخل سي جاب الله إلى أحد البيوت الأخرى فأسرع وأخذ صفيحتين من المعلاق الموجود تحت العربة فمأهما بالماء بسرعة وطرق باب البيت المقصود ثم تتحنح ودخل يحمل الصفيحتين الثقيلتين يتمايل بهما يميناً وشمالاً والماء يفيض منهما على البلاط، وكان أول من وقع عليه بصره الحاجة (فطومه) ربة البيت التي كانت منهمكة في إعداد وجبة الإفطار، ولم تنتبه ما إذا كان الداخل هو الوراد المعروف أم أنه وجه جديد، بينما انتبهت له ابنتها (عواشه) التي كانت تتشر بعض الأغطية على حبل الغسيل لتعرضها للشمس وسط الحوش، انتبهت عواشه إلى ذلك الشاب واستغربت دخوله المفاجئ لأنها لم تتعود على رؤيته بينما اعتادت على رؤية سي جاب الله منذ أن سكنوا هذا البيت، ولم تدر ما تفعل أمام تلك المفاجأة، هل تغطي وجهها أمام هذا الوراد الجديد أم تدعه سافراً بينما هو يسترق النظر إليها وهو يفرغ الماء في الزير القابع في زاوية البيت، غير أن خروج حمودة مسرعاً جعلها تعدل عن التفكير في تغطية وجهها، وهكذا تخطى العقبة الأولى ليجد نفسه أمام سي جاب الله الذي كان غاضباً من تصرفه فأنهال عليه بالتأنيب والتهديد باقتضاح أمره ..

- مش عيب عليك يا قليل الحياء؟ داير روحك ولد ناس !!

- أنا ما درتش عيب يا سي جاب الله، أنا انريد .، انريد ..

- انت العملة اللي درتها ما تخطر حتى عالشياطين، إيش
انريد اتقول ..

- سامحني، الله يسترك، شفعة وتوبة .

- من اللي يسامحك أنا والا العرب اللي تعديت على حرمهم !؟

ولم يعد في إمكان حمودة الاستمرار في مواجهة غضب
سي جاب الله الذي كان شديد الانفعال، فجرى مسرعاً نحو
بيتهم وهو يعصر الماء الذي بلل ثيابه، وبينما ظلت
(عواشه) تستعيد صورة حمودة في ذهنها وهي مستغرقة
في تفكير عميق، هل يمكن أن يكون هذا الشاب الذي تبدو
عليه مظاهر النعمة وراداً يحترف بيع المياه؟! ظل حمودة
هو الآخر يستعرض صورتها التي لم تفارق ذهنه، لقد بهره
جمالها الذي لم يشاهد له مثيلاً سوى في مجلات الأزياء
والموديلات، ومنذ ذلك اليوم انشغل في الإعداد للفرح الذي
كان يحلم به منذ سنوات ..



وها هو حمودة يبدو سعيداً وهو يشرف على مأدبة العشاء التي أقامها ليلة زفافه على غير العادة المألوفة، مثل ما حدث في الطريقة التي تمَّ بها اختيار الزوجة، لقد كانت حفلة عشاء رائعة أعقبته سهرة فنية أشاعت البهجة والسرور بين الحاضرين بما تخللها من الأغاني الشعبية المشهورة التي كانت من تأليف وتلحين فنانيين من أبناء حي اخريبيش، وعلى هذه الأنغام التي ملأت فضاء الحي وأسعدت الأهل والأقارب بليلة من ليالي العمر النادرة التقى حمودة للمرة الثانية بعواشه، كان اللقاء الأول لقاءً خاطفاً لم يجر فيه حديث بينهما فقد اقتصر على اختلاس النظرات المتبادلة من بعيد، أما هذا اللقاء الثاني فقد كان وجهاً لوجه وبقدر ما فيه من فرح طافح على وجهيهما فقد بدا عليهما نوع من الدهشة وظلاً يتبادلان النظرات في صمت لم تلبث أن قطعت عواشه وهي تتفحص الرجل الواقف أمامها وهو يرفل في ثياب من الحرير والملف ..

- مش أنت ..، اللي جيت لحوشنا وجبت لنا اميه في غياب سي جاب الله ؟

تساءلت في حياء فلم تستطع أن تتطق العبارة التي تدل على لقب الشخصية التي انتحلتها يوم اقتحامه لبيتهم حاملاً إليهم

الماء، وأدرك هو بفطنته ما أحجمت عن قوله حياةً منه فردّ عليها ضاحكاً :

- قـصدك انقولي الورد، صحيح أنا كنت وراة .. مرة واحدة في حياتي، مدة ساعة بس!

- ليش درت هكي؟ كنت اتعاون في سي جاب الله؟

- لا، أنا كنت انريد انحقك بعيني بس، وهذا اللي صار !!

وأطرقت عواشه برأسها ولم تعلق على ما قاله حمودة، فقد عرفت هي الأخرى مغزى دخوله المفاجئ إلى بيت أهلها في ذلك الصباح القريب وهو يتعثر بحمله الثقيل من الماء الذي سالت دفقات منه على بلاط البيت .

بوك عبود

كانت جماعات القبائل المنحدرة من أصول أفريقية قد تعودت القيام بزيارة سنوية لضريح سيدي داود، ذلك الولي الذي يتوسط ضريحه المقبرة الصغيرة المعروفة باسمه في ضاحية البركة، فما إن يقترب موعد تلك الزيارة حتى تنطلق النساء للطواف على الأحياء الشعبية في المدينة وطرق أبواب البيوت لجمع التبرعات وكانت ربات البيوت اللاتي تعودن على الاستجابة لطلب الزائرات كل عام يسرعن بتقديم ما في استطاعتهن من الحبوب والدقيق والسكر والشاي والزيت وغير ذلك من المواد الغذائية، وهكذا تستمر عملية جمع التبرعات حتى يتجمع لدى منظمي برنامج الزيارة ما يكفي إقامة مهرجان فني كبير حول ضريح ذلك الولي الصالح كما جرت العادة المتوارثة لديهم ..

وفي إحدى تلك الزيارات السنوية بينما كانت تلك الجماعات السمرات قد تجمعت حول الضريح في ساحة المقبرة، حيث كانت كل قبيلة قد كوَّنت حلقة خاصة بها وبدأت في القيام

بضرب (الدنقه) والرقص على إيقاعاتها المصحوبة بالغناء والزغاريد، وكانت ألحان التراث الأفريقي تتردد في جو المقبرة المهيب وتستحوذ على مشاعر المتفرجين الذين انبهروا بتلك الاستعراضات الحافلة بالرقصات المتنوعة التي كانت تؤديها الفتيات والفتيان برشاقة وحيوية، وبينما كانت أصوات المردين تختلط مع إيقاعات التصفيق المتواصل والزغاريد المتتالية حدث شيء غير متوقَّع أثار فضول الحاضرين، من كان يرقص منهم، ومن كان يتفرج، فقد تناهت إلى أسماع الجميع أنغام مزمار حاد الصوت يصدح بألحان شعبية لم تلبث أن اختلطت مع إيقاعات ذلك المهرجان الصاخب، ولم يلبث أن أطل عليهم في تلك اللحظة رجل أسمر طويل القامة يبدو أنه في سن الكهولة، كان يرتدي قميصاً أبيض طويلاً على غير عادة أهل المدينة الذين يفضلون القمصان القصيرة ويلف خصره بشملة حمراء عريضة، كما يحيط رأسه بعمامة بيضاء ذات طيات كثيرة، وينتعل (ريحة) مطرزة بخيوط الحرير الملون، كان أبرز ما لفت الأنظار (الزكرة) التي يحتضنها تحت إبطه الأيمن وينفخ فيها بدون انقطاع حتى تحتفظ بالهواء الذي يضخه في الزمارة المزودجة المعروفة بالمقرونة المثبة فيها والتي يداعبها بأنامله حتى تتبعث منها الأنغام الشجية التي تهتز لها القلوب طرباً،

وكان يسير ببطء وكلما اقترب من حشد المهرجان ازداد صوت المقرونة ارتفاعاً وازداد اهتمام الحاضرين الذين أدهشتهم الألحان الشعبية ذات الطابع المرزكاوي المشهور، فأفسحوا له الطريق ليستقر في وسط المهرجان ويقوم بالرقص فيدور حول نفسه في خفة وبراعة على نغمات الألحان المتنوعة التي يعزفها بطريقة عجيبة ملأت الجو بهجة وسروراً، وأثارت مشاعر الحاضرين، حتى جعلت البعض من جماعة القبائل يلتفون حوله ويشاركونه في الرقص وترديد مقاطع الأغاني التي كان يؤديها كلما توقف عن النفخ في الزكرة بين لحظة وأخرى، وضجت ساحة المقبرة بالغناء والتصفيق الحاد فاستقطبت الكثير من المتفرجين الذين أخذوا يتابعون ما يجري أمام أعينهم من رقص وغناء وهم في حالة انسجام مع المقرونة التي تصدح بروائع الفن الوطني، وكان أكثر المتفرجين فرحاً هم الصبيان الذين لم تسبق لهم معرفة بذلك الزمار ولا مشاهدة الزكرة التي أعجبتهم أنغامها فأخذوا يصفقون ويرددون مقاطع الأغاني الجميلة حتى نهاية ذلك العرس الشعبي الكبير مع إطلالة الليل ...



لقد حقق ذلك الزمار المدعو عبده نجاحاً تجلّى فيما قدّمه من أغاني ورقص بمهرجان سيدي داود السنوي الذي شارك فيه بالعزف على الزكرة وأبهر جميع من حضر في ذلك الحشد الكبير بألوان الفن المرزكاوي المعروف بعراقته في الواحات الزاهرة، وظلّ صدى ذلك النجاح يدوي في أعماقه، حتى جعله يفكر في كيفية اتخاذ العزف مهنة يعيش على دخلها بدلاً من البحث عن عمل آخر مماثل لعمله في الواحة التي قدم منها وهو احتراف الزراعة ذات الدخل المحدود، وإذا أراد تجربة حظه في الاعتماد على المزمار لا بدّ له من بداية أول خطوة وهي زيارة الأسواق والمداومة بالغناء في ساحاتها حتى يعتاد الناس على حضوره ويصبح مشهوراً في المدينة، هكذا بدأ عبده يفكر حتى توصل إلى هذه القناعة، وقرّر عرض الفكرة على ابن عمه خميس الذي يعمل في كوشة القش بشارع البعجة والذي كان قد استضافه في بيته عند قدومه من الجنوب، وكان الوقت ظهراً عندما جلس الاثنان يتناولان طعام الغداء، فقد انتهاز عبده الفرصة وحدث ابن عمه بما حظي به من ترحيب عند اشتراكه في ذلك المهرجان الحافل ولاحظ خميس علامات الارتياح البادية على محيا ابن عمه وهو يحدثه بحماس عن حفاوة أهل المدينة به وقرّر أن يقدّم لـه نصيحة قد تفيده في مستقبل أيامه :

- لو كان تأخذ كلامي يا عبده اتدير كيف ما ايدير الزمار
المسمى (المحروق) ..

- من هو المحروق؟ ووين يزمر في الحيشان والا في
الاسواق؟

- المحروق شايب كبير له زمان ايزمر في العراسي ما فيش
حد كيفه، يطرب النسوان ويخليهن يشطحن طول الليل ..

- هذا رايك يا سي خميس، تبيني انقعمز وسط النسوان، هدي
حاجة ما نقدرش انديرها ولا يقبلوها الرجاله، والا كيف؟

- ما فيهاش عيب توا الزمار يخش وسط النسوان ويزمر نين
يطلع عليه الفجر، وما عادش فيه حد ينقد عليه، الرجالة
مش كيف قبل يا سي عبده !

- لا والله كلاً انا ما نقدرش اندير كيف المحروق اللي اتقول
عليه، كل حد يعرف اللي تصلح بيه !

لم يقتنع عبده بما اقترحه عليه ابن عمه خميس، فهو منذ
أن حضر إلى المدينة لم يفكر في الاحتراف ولم يخطر بباله أن

يكون زماراً يجلس في البيوت بين النساء بما له من خصوصية غير مألوفة بالمدينة، إلا أن ما رآه من إقبال الناس على الفن الأصيل عندما رقص وغنى في ذلك المهرجان الكبير جعله يفكر في اقتحام الأسواق والأماكن العامة وإطلاق العنان لأنغام الزكرة كي تصدح في الفضاء الرحيب بدلاً من أجواء البيوت المحدودة، وكانت أول خطوة قام بها هي زيارة سوق الفندق البلدي في صباح اليوم التالي، فبينما كان ذلك السوق مزدحماً بالمواطنين الذين كانوا يُحدثون ضجيجاً وهم يتفاوضون على الأسعار ويحلفون بأغظ الأيمان بشأن الترويج لسلعهم، قطع عليهم صوت الزكرة ذلك الضجيج المزعج حينما سعد عبده أقواس الفندق ودخل إلى الساحة الفسيحة وهو يزمر ويتحرك بخفة ويمرر أنامله على تقوِّب الزمارة لتتبعث منها أروع الأنغام التي جعلت التجار وأصحاب المقاهي يخرجون من محلاتهم وهم في حالة إعجاب شديد وتتوقف حالة البيع والشراء ويتجمع المواطنون الذين حضروا للتسوق ليكوِّنوا دائرة حول ذلك الرجل الأسمر الذي يجمع بين الرقص والغناء والنفخ في الزكرة بملء شذقيه لترسل الألحان الشعبية، وبهذا الأداء الرائع استولى عبده على اهتمام الباعة والمتفرجين الذين تجاوبوا مع فنه، وظلَّ يأبى طلباتهم بالاستمرار في العزف حتى شعر

بالتعب وتوقف عن الرقص والغناء، ثم أخرج منديلاً من جيب
الفرملة ليمسح حبات العرق التي تلالأت فوق جبينه واختلطت
بالدموع التي ترقرت على خديه، كان قد غمره شعور بالفرح
العميق وهو يشاهد ذلك الحشد الكبير من المواطنين الذين
أحاطوا به في تلك الساحة الفسيحة وهم يصفقون له ويغمرونه
بالعطايا إعجاباً بفته الذي أحيا فيهم روح البهجة والمرح
وأعادهم إلى منابع الفن المرزكاوي الأصيل، لقد أجهد نفسه في
إدخال السرور على نفوسهم مدة من الزمن ألتهتم عن مزاوله
نشاطهم الذي يعتبر أساس وجودهم في ذلك السوق الشعبي
الكبير .



بعد ما لقيه من نجاح لم يكن يتوقعه وطّد عبده العزم
على مزاوله حرفة الزمار وأخذ يواصل جولاته التي شملت
جميع أحياء المدينة، فطاف الأسواق وتجوّل في الشوارع
وغنى ورقص حتى انتشرت أغانيه بين الناس وأصبح
معروفاً باسم (بوك عبده)، وهو الاسم الذي اشتهر به في
المدينة، وظل يلازمه كلما أطلّ على المواطنين بقامته
الفارحة وابتسامته الحلوة التي كانت تصاحب أغانيه التي

يزخر بها تراثنا الشعبي الأصيل والتي تتنوع دلالاتها، إلى جانب الأغاني الفكاهية التي كان يؤلفها ويؤديها برشاقة ومنها أغنيتان وجد أنهما يلاقيان ترحيباً لدى جميع المحبين لفنه وهم أغلبية مستمعيه، إحداهما فكاهية تثير الضحك كان يؤديها وهو يرقص على أنغام المزمارة ويدور حول نفسه وقميصه الأبيض الفضفاض يكون دائرة واسعة حول ساقيه تدور معه في حركته الرائعة، كان مطلع تلك الأغنية يقول : « بوك عبدو سرواله راح - يا شريفه حطي البرّاح »، ولا يعرف أحد ما إذا كانت شريفة التي يستجد بها لتكلف منادياً للبحث عن سرواله الضائع هي زوجته فعلاً أم أنها مجرد اسم وهي لازمة للأغنية، أما الأغنية الثانية فهي غزلية تصور جمال الفتيات القابعات بين جدران البيوت واللائي لا يراهن أحد إلاّ خلسة وفي لمحات خاطفة وأوقات نادرة تحدث عند فتح الأبواب وقلها بسرعة، يقول مطلعها: « بين الباب وبين اشقوقه - خد البنّت انقول ابروقه »، وهي أيضاً يؤديها في حركة وشيقة تثير اهتمام الصبيان فيصفقون لها، كما يُقال عنها إنها تُعجب النساء اللاتي يسترقن السمع إليها من وراء الأبواب المواربة ومن خلال شقوق الأبواب القديمة وأن بوك عبده هو الآخر كان يتطلع إلى أبواب البيوت ويسلط النظر

إلى ما وراءها وهو منهمك في الرقص والغناء، غير أنه إذا صحَّ ما يقال عن استمتاع النساء بتلك الأغنية فإنه لا ينطبق على ما قيل عن بوك عبده من أنه كان يتطلع إلى أبواب البيوت لأنه لم يكن مهتماً بما وراء الأبواب المغلقة التي يظن البعض أنه يسלט النظر عليها ليرى ما وراءها من خلال شقوقها التي لا تظهر سوى ظلال النساء وهن يتحركن داخل البيوت، كان دائماً منهمكاً في النفخ في تلك الزكرة التي يحتضنها في زهو، يتجلى في ابتسامته المشرقة عندما يترك النفخ ليردد أغانيه، ويدور حول نفسه بسرعة متتالية تثير الدهشة ويرسل الأنغام الرائعة التي تشيع البهجة في النفوس، كان لا همَّ له سوى إدخال السرور على قلوب الناس المتعطشة إلى كل ما ينسيها هموم الحياة وتقلبات الأيام، وهكذا غن-ى بوك عبده ورقص وأطرب المواطنين الذين تعودوا على استقباله بالترحيب وتقديم النقود إليه إعجاباً بما يقدمه من أغانٍ شعبية أصيلة تهزّ المشاعر بكلماتها الجميلة وألحانها الرائعة حتى ذاعت شهرتها واستهوت الصبيان الذين ظلوا يرددونها كلما خرجوا ليلاً ليسهروا على أعتاب البيوت الملاصقة لبعضها ويملأون الشوارع صخباً، في زمن ندرت فيه وسائل الترفيه بمختلف أنواعها وظلّت أنغام بوك عبده

تَسَدَّ فِراغاً في عالم الطرب لم ينقطع صداها حتى نشبت
الحرب العالمية الثانية فروّعت المدينة الأمانة وشرّدت أهلها
في القرى والبراري .

عودة المجندين

هناك أيام تمر عادية لا تحمل في طياتها أحداثاً مهمة، وهناك أيام أخرى تحفل بأحداث مؤثرة تترك آثاراً عميقة في النفوس وتبقى تفاصيلها عالقة بالذاكرة، وهذا ما حدث لي ذات صباح مبكر من أيام النصف الأخير من الثلاثينيات، عندما شاهدت جموعاً من المواطنين تتجه ناحية الميناء، كانوا يتطلعون إلى البحر الساكن كأنهم يرونه لأول مرة وقد بدت على وجوههم آثار الفرح وهم يتبادلون الأحاديث بأصوات عالية، ورغم عدم معرفتي لما يحدث، وجدت نفسي منساقاً وراءهم بدافع الفضول لمشاهدة ما يجري في مدينتنا ذلك الصباح، وسرعان ما اتضح لي الأمر من خلال الأحاديث التي كانت تدور بين بعض الشيوخ الذين يسرون في المؤخرة : أن ما كان يحدث أمام عيني ما هو إلا احتفال بعودة المواطنين الذين جندتهم الحكومة الإيطالية للمشاركة في الحرب التي شنتها على الحبشة، وتذكرت في تلك اللحظات، وأنا أسير وسط الجموع الزاحفة نحو الميناء، مقولة بها كلمات تهديد ووعيد لإمبراطور الحبشة تقول عباراتها: « أيها

النيقوس جهّز قبرك؛ فالإيطاليون سيقصمون ظهرك»، ووسط ذلك الحشد من المواطنين الذين غمرتهم الفرحة بعودة أولادهم من تلك البلاد البعيدة تبخرت من ذهني تلك المقولة الإيطالية وحلّت محلها صورة رجل أسمر كنت أدعوه عمي فرج كما عودّني أهلي الذين يعتبرونه أماً لوالدي رغم ما بينهما من اختلاف في الخلقة واللون، فبينما كان والدي أبيض البشرة كان عمي فرج أسود البشرة، وكنت لا أعرف شيئاً عن الأخوة التي تربط بين الاثنين، ولهذا ظللت أتساءل بيني وبين نفسي عن سر تلك العلاقة التي جمعت بين والدي وعمي فرج، ذلك الإنسان الطيب الذي أحببته لشدة حبه عليّ عندما كنت صغيراً، بقيت مدة من الزمن أكرر تساؤلاتي عن ذلك السر الذي لا أعرفه حتى سمعت من جدتي الإجابة الشافية التي وضعت حداً لتلك التساؤلات، وأزالت القلق عن نفسي وجعلتني أزداد تعلقاً بعمي فرج الذي عرفته إنساناً ودوداً، لقد حدتتني جدتي ذات ليلة وهي تستعيد ذكريات الماضي عن السر الذي جمع بين والدي وعمي فرج، كان له حكاية طويلة بدأت عندما داهم وباء الطاعون، مدينتنا سنة 1914 وأدى إلى حصد الكثير من أرواح المواطنين، الأمر الذي جعل سلطات الاحتلال الإيطالي تقتحم كل بيت تشبّه أنه حدثت به حالة وفاة وتقوم بإخلاء البيت من سكانه ونقلهم إلى

المحجر الصحي الذي عُرف باسم (الكرائتينا)، وهذا ما كان يخشاه المواطنون فيقومون بدفن موتاهم سرّاً في ظلام الليل حتى لا يتعرضون للعزل الإجباري ويعانوا من هول المتاعب، كان الوباء قد انتشر في كل أنحاء المدينة وكانت أكثر الأحياء تضرراً حي الأكوخ المكوّن من جذوع الأشجار والقش والمعروف باسم (زرايب العبيد) الذي كان سكانه من إخواننا المنحدرين من أصول أفريقية قد جمعهم في هذه المدينة ظروف قاسية، وأدى ما حلّ بذلك الحي الفقير إلى اتخاذ إجراءات سريعة فعمدت السلطات الإيطالية إلى نقل هؤلاء السكان إلى مخيم مؤقت ثم قامت بإضرام النار في ذلك الحي الذي سرعان ما احترق وتحول إلى رماد، وبعد ذلك الحادث المحزن الذي تسبب في تشريد الأطفال الذين فقدوا ذويهم، أخذت بعثة التبشير الإيطالية تجمعهم في مقرها بالفويهات استعداداً لتربيتهم على تعاليمها ..

وذاًت يوم من تلك الأيام التي شهدت هذه الأحداث المأساوية كان جدي عائداً من خارج المدينة يمتطي حماره عندما سمع أنين طفل بين الأشجار التي تحيط بمقر إرسالية التبشير، وما كاد جدي يقترب من مكان الأنين حتى برز منه طفل أسود كان يبكي وقد غطت الدموع وجهه الصغير، وخشي جدي أن

يعترض الطفل طريق الحمار فترجل وأمسك به ليبعده عن طريق الحمار خشية أن يدهسه، إلا أن الطفل تسبب بعباعته وهو ينشج، وحاول جدي أن يتخلص منه خوفاً من رؤية الرهبان له الذين قد يتهمونه بمحاولة سرقة، غير أن ذلك الطفل التصق به وازداد تسبباً بعباعته مما جعله يرثي لحاله ويأخذه معه فوضعه أمامه على ظهر الحمار وانطلق به مسرعاً ليبعد عن إرسالية الرهبان، وفي بيتنا ترعرع فرج كما أسماه جدي وعاش بين عائلتنا كأحد أفرادها حتى بلغ أشده، والتحق بالعمل في إحدى شركات المقاولات الإيطالية، وسافر مع أفواج المواطنين إلى أفريقيا الشرقية، حيث عمل باريتريا والصومال، ثم انتقل إلى الحبشة بعد احتلالها، وانقطعت عنا أخباره بانقطاع رسائله ..

كانت هذه حكاية عمي فرج كما روتها لي جديتي، إنها حكاية ذلك الرجل الأسمر الذي طافت بذهني صورته وأنا أتابع أقوال المواطنين الزاحفين نحو الميناء في ذلك الصباح وهم يتحدثون عن المغتربين الذين سافروا إلى القرن الأفريقي، سواء منهم من كان مجنّداً أو من كان عاملاً، وتدفقت أحاديث المواطنين في رأسي وشعرت في تلك اللحظات بشوق إلى رؤية عمي فرج، وتمنيت أن يكون بين أولئك العائدين الذين وصلت

بهم السفينة لتوها، ومن يدري لعله يكون بينهم فعلاً؟ ولعلي أحظى برؤيته بعد سنوات من الغياب ..

عندما وصلت الميناء رأيت العساكر ينزلون من سفينة ضخمة تحمل العلم الإيطالي ويصطفون على الرصيف وهم يحملون أمتعتهم على ظهورهم ويشدون على أكتافهم البنادق الطويلة، حيث بقوا في حالة استعداد حتى جاء ضابط إيطالي تزين صدره الأوسمة التي تلمع في ضوء الشمس، لم أتبين رتبته العسكرية لبعد المسافة بين مدخل الميناء حيث أقف والرصيف، فتفقد صفوفهم ثم صاح بصوت مرتفع يأمرهم بالسير : (بتاليوني أفانتي مارش)، واخترق طابور العسكر وسط الميناء في خطى ثابتة، كانت تبدو على وجوههم آثار التعب والإرهاق وهم ينظرون إلى معالم المدينة التي طالما شدهم الحنين إليها أثناء غيابهم عنها في جبهة القتال، وما كادوا يخرجون من بوابة الميناء حتى قابلتهم جموع المستقبليين بالتصفيق والزغاريد والمناداة على أسمائهم من قبل أقاربهم الذين لم يستطيعوا خرق الطابور الطويل ومعانقتهم فرحاً بعودتهم سالمين، وسار ذلك الطابور العسكري الطويل الذي يتكون من وحدات عسكرية مختلفة وسط حشود الجماهير المصطفة على جانبي الشارع،

كانت كل وحدة تحمل شعارها المتمثل في (الشملة المحلية)، فقد رفعت وحدة المدفعية شملة صفراء فاقعة اللون، ورفعت وحدة المشاة شملة زرقاء باهتة اللون، أما وحدة المهندسين فقد رفعت شملة حمراء بها خطوط سوداء متساوية، وكان في مقدمة كل وحدة جنديان يحملان شعار وحدتهما، وهي عبارة عن (شملة) مربوطة بين بندقيتين يهزانها في حماس، وكان الجميع يرددون المجاريد التي تنطلق من حناجرهم مدوية: « بعد موح وياس امشقين، يا ناجينا من وطن يقولو بسينا »، وواصل ذلك الموكب العسكري سيره على طول شارع البحر وسط جموع المستقبلين الذين رافقوه منذ خروجهم من بوابة الميناء حتى وصل نهاية الشارع وانعطف يمينا في شارع المستشفى الذي سار فيه حتى وصل إلى المعسكر المعروف بـ (كامبو الجريد)، وأصدر له الضابط الإيطالي المرافق أمراً بالوقوف، ثم تفقد الصفوف للمرة الثانية وأمر العساكر بالانصراف، فتفرقوا وسط تصفيق الحاضرين، وبينما سعد ذلك الضابط الإيطالي سياراً صغيرة كانت تسير وراء الموكب انطلقت به ناحية الشمال، سار العساكر في اتجاهين، منهم من دخل المعسكر متعجلاً رؤية أهله المقيمين بداخله، ومنهم من أخذ طريقه متجهاً عبر شوارع المدينة إلى حيث يقيم أهله، وارتفعت

الزغاريد داخل ذلك المعسكر المحاط بسياج من جريد النخيل والذي يقع في ميدان واسع يتوسط المباني السكنية وقد صفت به بيوت الشعر التي تقيم بها عائلات المجندين التي تم حشدها من عدة مناطق عندما تم إرسالهم لخوض غمار الحرب في الحبشة التي عادوا منها لتوهم، وتفرقت جموع المستقلين ولم يبق منهم هناك سوى بعض الذين توافدوا على المعسكر، منهم من حضر لتهنئة العائدين بسلامة العودة ومنهم من جاء للاستفسار عن قريب سافر إلى الحبشة للعمل هناك، ولم يعد مع من عادوا من العساكر في ذلك اليوم، ووسط صخب الحاضرين لم يجد المستفسرون أحداً من العائدين يملك معلومات عن أقاربهم الغائبين، وذهبت تساؤلاتهم أدراج الرياح، فلم يسمعوا سوى قول أحد المجندين إن العائدين كلهم من العساكر الذي اشتركوا في الحرب ولم يكن بينهم أحد من العمال الذين يستفسرون عنهم، وهكذا لم تتح لي الفرصة لمعرفة أي شيء عن عمي فرج الذي سافر كغيره من المواطنين للعمل في تلك البلاد البعيدة ولم يعد ولا نعرف عنه شيئاً، وقد أحسست بخيبة الأمل، وبينما بدأ المستفسرون ينسحبون من أمام المعسكر الذي لاتزال ترتفع منه الزغاريد وسط أعمدة الدخان التي تتصاعد من تحت القنور التي تقور بلحوم الذبائح التي نُحرت ذلك الصباح سمعت رجلاً مسناً

يقول ما يتردد بين المواطنين في مثل هذه الحالة : « الحي يروح
ولو بعد حين » .

الخبير السيئ

لازلت أذكر ذلك اليوم الذي كانت تتخلله سحابة شفافة من الضباب، كانت أمواج البحر قليلة الارتفاع بسبب هبوب الرياح الخفيفة، وكان سكان الشوارع المطلّة على البحر، والتي لا تبعد سوى خطوات معدودة عن الشاطئ ما زالوا يترددون على أماكن السباحة ويجلسون على الرمال النقية للاستمتاع بذلك الجو الرائع، وكان البعض منهم يتحدثون عن أساطير البحر وأهواله، بينما كان البعض الآخر يتطلعون إلى الأفق البعيد ويراقبون حركة السفن التجارية التي لا ينقطع تدفقها على الميناء منذ أن تظهر السفينة صغيرة في الأفق حتى يظل حجمها يكبر رويداً رويداً وهي تشق عباب البحر حتى تقترب ويتضح شكلها ثم تدخل الميناء، فيختفي نصفها السفلي بينما تبدو صواريخها العالية المحاطة بالرافعات ومداخنها الكبيرة ظاهرة من وراء الكتل الإسمنتية المسلحة المحيطة بالميناء وهي تتهدى في سيرها البطيء متجهة نحو الرصيف، وبينما كانت هذه حالة الكبار المهمين بتبادل الأحاديث ومتابعة حركة السفن كان هناك من لا

يهتم بذلك، فالصبيان المتواجدون على الشاطئ ذلك اليوم كانوا يمرحون ويركضون حفاةً لا يباليون بشيء ولا يشد انتباههم سوى تحليق أسراب النوارس البيضاء وسط غلالة الضباب الخفيفة وهي تحدث بوقوتها أصواتاً يرتاحون لسماعها، لقد تعودوا على أجواء البحر منذ أن تفتحت أعينهم على الحياة وتوالت لقاءاتهم على ذلك الشاطئ الجميل ..



ومن بين ما ظللت أذكره جيداً من أحداث ذلك اليوم الرائع أنني كنت قد أعددت بمشاركة صديقي رجب مصيدة للأسماك، وهي عبارة عن (صونية) طعام كبيرة وضعنا فيها قطع من الخبز وغطيناها بقطعة قماش بيضاء أحكمنا ربطها وتركنا في وسطها ثقباً صغيراً لدخول الأسماك، ثم وضعناها في البحر وجلسنا على صخرة نراقب تراحم أسماك البوري الصغيرة عليها، ظللنا هكذا حتى تناهت إلى أسماعنا أصوات صرخات متتالية، وأرهفنا السمع فتبين لنا أن تلك الصرخات كانت صادرة من جهة الشوارع التي تضم بيوتنا، فتركنا المصيدة وانطلقنا نركض وفي إثرنا بعض الصبيان، وما كدنا نصل شارع المدينة حتى تبين لنا أن البيت الذي صدرت عنه تلك الصرخات

المزعجة والتي لاتزال مستمرة لم يكن سوى بيت العمة (برنية) تلك المرأة الطيبة التي أحبها جميع الجيران لاسيما الأطفال الذين كانت تحنو عليهم، لقد تأثرنا وتأسفنا لما حدث في ذلك البيت الهادئ الذي اهتزت لفاجعته القلوب لأن ذلك النوع من الصراخ الحاد لا يحدث إلا في حالة الوفاة، وسرعان ما انفتحت البيوت كلها في آن واحد واندفعت النساء إلى الشارع في (أرديتهن)، كنَّ قد تركن (الجرود)، فلم يعد هناك متسع من الوقت لارتدائها، ومنهم من تركت حتى (سبَّاطها) وهي في عجلة من أمرها وخرجت تجري حافية القدمين، وفي ذلك البيت القديم ذي المدخل العالي انفتح البابان الكبيران على مصراعيهما واندفعت النساء إلى داخله وهن يصرخن بأعلى أصواتهن وازدحم البيت والسقيفة بالمعزيات فتم إحضار (كلّه) ذات خطوط ملوثة ربطت بإحكام بين البابين لتكون (ستارة) تخفي النساء عن الشارع، واشتدَّ الصراخ والعيويل في وسط البيت المترب والحجرة الكبيرة، وارتفعت كلمات المراثي التقليدية التي تعودت النساء على ترديدها في مآتم المدينة وعلى تغيير نصها حتى تجعلها تنطبق على كل حالة وملائمة لجنس الميت إن كان ذكراً أو أنثى، وكانت مجموعة من النساء قد تحلقن حول صندوق خشب-ي كبير يضربن عليه بالعصي حتى يحدث نخباً ويرددن

في أصوات منسجمة : « هابا يا مرزي في شبابه، يا طايح من دون أصحابه »، بينما ظلت مجموعة أخرى يتحلقن داخل الحجرة حول (أم علي) تلك العجوز العمياء وابنتها برنيه، كن قد جلسن على الأرض المفروشة بالحصران، وقد غطت كل منهن وجهها بطرف الرداء وأخذت تتنحب وتردد مع المجموعة كلمات أقوى تأثيراً من الأولى : « يانا يا المرزي، يا خي برنيه الفردي، يانا يا بي »، وبينما كانت العجوز العمياء تبكي فلذة كبدها وابنها الوحيد وهي تهتز يميناً وشمالاً، كانت ابنتها الوحيدة برنيه تبكي بحرقة وقد بُحَّ صوتها من شدة الغريد، كانت الفاجعة التي أودت بحياة شقيقها الوحيد قد زلزلت كيانها، وزاد في تعميق مأساتها كونها لم تُرزق بولد تعده ذخراً لما بقي من أيام حياتها .



كانت السهرية قد أُقيمت في الشارع وقد توافد عليها العديد من المعزين الذين أحزنهم خبر تلك الفاجعة التي روّعت أهل المدينة، وكان في مقدمة الذين حضروا العاملون بالميناء من رياس وبحارة وحراس سواحل، وقد دارت الأحاديث بين الحاضرين طوال ليلي السهرية الثلاثة عن كارثة السفينة المسماة (أتيليو) والمعروفة لدى البحارة باسم (بابور بالآ) نسبة إلى

صاحبها الإيطالي (إيجينو بالآ)، تلك السفينة التي ذهب ضحية غرقها ثلاثة بحارة من أبناء المدينة هم علي الرابطي ورفيقاه ..
تساءل أحد البحارة مستفسراً عن أسباب غرق السفينة :

– أعتقد أن الجو كان صحواً عندما تحركت السفينة، ولم يكن هناك ما يدعو للقلق وإلا كانت إدارة الأرصاد الجوي حذرت من الإبحار لتفادي الخطر، فكيف حدثت الكارثة ؟

وقال العريف بورميله التابع لحرس الميناء :

– ربما خابت تقديرات إدارة الأرصاد الجوي، واطمأن قبطان السفينة إلى سلامة الرحلة حتى فوجئ في عرض البحر بتيارات لم يتوقع حدوثها أنت إلى هذه الكارثة .

وقال الرياس صالح قائد (اللانشه) التي ساهمت في البحث عن الغرقى :

– أنا لا أستبعد حدوث التغييرات الجوية المفاجئة، ومهما كان الأمر فالإبحار مهمة صعبة محفوفة بالمخاطر، والتغييرات طالما خيبت تقديرات الرياس وفراسة البحارة، وخذلت من صارعوا أمواج البحر، وقاموا تياراته سنوات عديدة ..

وتساءل البحار احميدة شلقم :

- لقد قيل إن قبطان السفينة نجى بنفسه مع امرأة واحدة تعلقت بصندوق من الخشب بعد أن سقطت ابنتها الرضيعة من بين يديها، ألم يكن في إمكانه إنقاذ جميع الركاب باعتباره مسؤولاً عن سلامة السفينة بمن فيها ومن عليها ؟

وردّ الرايس صالح :

- عندما يكون الحادث مفاجئاً مثلما حدث لهذه السفينة - كما سمعنا - لا يمكن لأي قبطان مهما كانت مهارته إنقاذ جميع الركاب الموجودين على ظهر سفينته .

وقال بورميله :

- أعتقد أنه ربما اختلّ توازن السفينة بسبب الحمولة الكبيرة التي قيل إنها من القمح الوطني وإنها أكبر من طاقتها مما جعلها تهوي إلى الأعماق بسرعة ويتعذر إنقاذ كل ركابها الذين مات منهم أحد عشر شخصاً .

وعلق أحد الحاضرين على ما دار من حديث قائلاً :

- لقد تمّت الكارثة ومهما قيل في تفسير ما حدث لا يهون فداحة المصيبة، ولا يعوض خسارتنا في علي ورفيقه، لقد ذهبَت السفينة بما فيها ومن عليها، ولم يقدر لها أن تصل إلى وجهتها المحددة وتبلغ المكان المقصود .

وهكذا انتهت (السهرية) التي شغلت الناس بالحديث عن
مأساة السفينة الإيطالية التي عُرفت لدى المواطنين باسم
(بابور بالآ)، وكانت مناسبة لتأبين الرجال الثلاثة الذين ذهبوا
ضحية غرقها، وهم الذين طالما أبحروا على ظهرها فعبرت بهم
عباب البحر الأبيض المتوسط، وطالما نزلوا بمرفئ الجنوب
الإيطالي، وطافوا بالمدن الساحلية الجميلة، ثم عادوا يحملون
أجمل الذكريات، حتى كانت تلك الرحلة المشؤومة التي أودت
بحياتهم ولم تبق سوى ذكراهم التي خلّدها الشاعر عبدالهادي
الشعالية الذي أسرع إلى الميناء للتأكد من الخبر السيئ الذي
انتشر في المدينة بسرعة البرق، وهناك شاهد بعينه جثث
الغرقى الإحدى عشرة مسجاة على (الصقالة) ومغطاة بقماش
(المشمع) الغليظ الذي تغطى به البضائع في رصيف الميناء،
فأثار ذلك المنظر الرهيب مشاعره الرقيقة فهتف من أعماقه
معبراً عن تلك المفاجعة بقصيدة هزت المدينة بأسرها، مطلعها :

« جانا الخبر يا شينك خاربه بابور باله راح في تياره »



obeikandi.com

الختان

من كان يعرف العم بوخريص بائع الأعلاف في ميدان سوق الحوت، حيث توجد محطة (العريبات) لابد أن يكون عارفاً أن ذلك الكهل طويل القامة ذا الوجه المستطيل الذي تبرز عظام فكيه خلف جلدة الوجه من شدة النحافة كان من أشد المعجبين بأغاني العلم التي تختزن ذاكرته الكثير منها، وقد برع في أدائها حتى إنه كان يُدعى لأفراح معارفه للمساهمة في إحياء لياليها، وكان يبدأ يومه جالساً في الزاوية الملاصقة لدكانه ذي المدخل الواسع وأمامه موقد النار الذي لا يفارقه البراد الذي يفور بالشاي الأخضر منذ الصباح حتى المساء، فهو قد تعود على الإفطار والغداء في دكانه الواسع الذي لا يفارقه إلا عند حلول الظلام أو عند زهابه إلى الفنق القديم لإحضار الأعلاف المكوّنة من التبن والحشائش البرية، التي يبيعهها لأصحاب العريبات التي تتجمع في المحطة المجاورة لدكانه، والذين يلتفون حوله منذ حضورهم بعرباتهم في الصباح، ولا يفارقه أحد منهم إلا إذا وجد ركاباً، كانوا يستمتعون بما يروييه من قصص الأغاني الشعبية

ذات المعاني الرائعة التي كانوا مولعين بها، ولا يملون من ترديدها وهم يعبرون الطرقات بعرباتهم ذهاباً وإياباً بين المدينة وضواحيها، تارة بصوت مسموع وتارة أخرى بصوت خافت، طبقاً لخلو الطرق من المارة أو ازدحامها بهم ..



ورغم أن العم بوخريص كان يقضي يومه مع (العرابدية) في مرح وضحك إلا أنه بدأ يتغير سلوكه كلما عاد إلى البيت في المساء، خاصة عندما يأتي ابنه الصغير ميلود لاستقباله وتفتيش جيوبه للبحث عن الحلوة التي تعود إحضارها له، ورغم سروره بقاء ابنه الذي يحبه إلا أن ذلك اللقاء كان يثير في نفسه القلق الذي بدأ يلزمه منذ أن حضر حفلة ختان ابن جاره رزق الذي يصغر ابنه ميلود بثلاثة أعوام، لقد اعتاد الناس على ختان أولادهم منذ بلوغهم سن الرابعة، وها هو ابنه قد بلغ الثامنة من عمره ولم يستطع إيجاد تكاليف الختان الذي يقام له عرس كما جرت العادة، والذي هو حاجة ضرورية، لقد ظل مشغولاً بهذه المشكلة التي ظلت تؤرقه كلما أوى إلى فراشه، حتى أثارت قلق زوجته، فتوسلت إليه أن يخبرها بما كان يدفعه إلى التفكير منذ عدة أيام، فأدرك اهتمامها بما يشغل باله،

وأخبرها بما كان يفكر فيه، والذي لم يكن سوى ختان ابنهما الذي يتطلب تكاليف باهظة ليس في مقدوره توفيرها، فقد كان يتوق إلى إقامة فرح كما كان يفعل الجيران من حوله وهم يحتفلون بختان أولادهم، وتأثرت زوجته التي أدركت مدى انشغال زوجها بختان ابنهما ميلود، فربتت على يده بحنان وقالت:

- يا ريتك تأخذ العقد والسوار والتكليه واتبيعهن في السوق واتخلينا نفرحو بإطهار أوليدنا مش كنت اتقول الذهب نلقوه عند العازه؟

وفوجئ العم بوخريص بما قالته زوجته، فلم تخطر بباله حكاية بيع الحلبي للإفناق على الختان، فقال مندهشاً:

- من جدك هالكلام اللي اتقولي فيه؟ من جدك يا غزالة!؟

- شورك تحسابني نكذب، من بكره عدّي بيع اللي قلت لك عليهن وعول على إطهار العيل .

وكاد الحاج بوخريص يطير فرحاً عندما تأكد من إصرار زوجته على بيع الحلبي التي كانت تخاف عليها ولا تستعملها إلا إذا دُعيت لحضور أحد الأفراح، وقال:

- يا ريتك درتيها من زمان وريحتينا من التخميم يا اغزولة!

قام العم بوخريص ببيع حلي زوجته واشترى كبشا ليكون عقيقة كما جرت العادة وأحضر لوازم الفرح، ثم اتفق مع الحاج الزروق صاحب محل الحلاقة المعروف بممارسة الطب الشعبـي على القيام بعملية ختان ابنه، كما تولت العمه غزالة التحضير لإعداد الموائد ودعوة كل معارفها لحضور ليلة الفرح التي قررت إقامتها وأرسلت عجوزا للاتفاق مع اليهودية العمياء المدعوة (بطة) لإحياء تلك الليلة بالأجر المعتاد مع اجرة ركوبها ذهابا وإيابا وإحضار زجاجة بوخة لها إضافة إلى إعداد عشاء زوجها رحمين الأحول، الذي سيحضر شخصيا لتسلّمه..

وفي اليوم المحدد لإجراء عملية الختان جرت الاستعدادات لهذه المناسبة السعيدة، فتمّ ذبح الكبش وإعداد وليمة الغداء، وما إن انتهت صلاة الجمعة حتى توافد على بيت ال بوخريص جميع المدعوين وفي مقدمتهم الحاج الزروق المعروف بالطهار، وبعد تناول طعام الغداء وبينما الحاضرون مشغولون بالحديث وشرب الشاي تمّ طرح (نطع) صوف رُشّت فوقه طبقة من الرمل وقام العم بوخريص بإحضار ابنه ميلود الذي كان يرفل في قميص أبيض فضفاض كتبت على صدره بماء الزعفران الأصفر عبارة

(ما شاء الله) وتحتها رسم لخاتم سليمان، وما إن بلغ موضع النطع حتى جلس فوقه القرفصاء ووضع ابنه في حجره ورفع قميصه ثم أحكم إمساك يديه ورجليه لمنعه من الحركة عند إجراء العملية الجراحية، وعند ذلك تقدّم الحاج الزروق الذي كان يتحفّز لأداء مهمته فأخرج من شنطته المقص المشحوذ وقطع الزائدة الجلدية التي أعقبها نزول قطرات من الدم فوق النطع وحتى لا يتمكن الطفل من الصراخ تقدّم خاله ليحشو فمه ببيضة مسلوقة وما إن انتهت تلك العملية حتى قام الحاضرون بإلقاء النقود المعدنية في حجر الطفل الذي كان وجهه ممتعاً، في حين كانت تبدو على وجه أبيه علامات الارتياح ؛ لأنه تمكّن أخيراً من تحقيق ما كان يريده وهو إيصال ابنه إلى نطع الطهار ..



وفي مساء ذلك اليوم الذي توالى فيه الزغاريد ابتهاجاً بعملية الختان ازدحم بيت آل بوخريص بالنساء اللاتي جلسن وسط الحوش تتوسطهن الدرباكة (بطة) تلك اليهودية العمياء، وهي تجلس على نطع، وقد أسندت ركبتيها التي تحمل الدربوكة على وسادة ناعمة، وكانت الأنظار متجهة إليها وهي

تحتسي جرعة من (البوخة) ذات الرائحة النفاذة، بدأت بعدها بالنقر على الدربوكة وأطلقت لصوتها العنان، فظلت تصدح بالأغاني الشعبية التي كانت تُغنى في الأفراح، وانسجمت النساء مع إيقاعات الدربوكة التي بدأت تتناغم مع التصفيق المنتظم، كانت الأغاني تصل إلى أسماع العم بوخريص الذي كان جالساً على البنك الخشبـي وقد أسند ظهره على وسادة تقيه رطوبة الجدار منشغلاً بإشعال السجائر التي ينفث دخانها وهو في حالة نشوة منسجماً مع ألحان الأغاني القديمة التي كانت تؤديها (بطة) بصوتها الجميل، لم يكن يعكر صفوه سوى حركة الأطفال الذين كانوا يمرون من أمامه خارجين إلى الشارع أو داخلين بين حين وآخر، وظلت الساعات تمر والغناء يزداد تنوعاً والحاج بوخريص في قمة النشوة، حتى تبدلت تلك الأغاني الجميلة فجأة وحلّ محلها لحن آخر كان مقدمة لأغنية أطارت صوابه فقفز من فوق البنك غاضباً ودخل الممر الذي يفصل بين السقيفة وداخل البيت وأخذ يدق على الباب وهو يصيح :

– يا غزالة،، يا غزالة، شنو هالبلاء !؟

كانت النساء في تلك اللحظات يرددن مع (بطة)

مقاطع الأغنية التي أثارت غضبه، ويطلقن الزغاريد التي يتردد صداها في أرجاء البيت دون أن يتأثرن بكلماتها المفجعة التي تقول: « في حال يا ناشد علينا حاله، حين كنتي حياة مذباله، حياة القهرة، حياة الجمل اللي مكسر ظهره، واحد جبد سكين يبي نحره، والآخر خدا الساطور وادناله »، ومع اشتداد الدق على الباب وتوالي الصباح توقّف الغناء الذي كان يملأ البيت صخباً، فقد فوجئت النساء بذلك الصباح الذي أفسد عليهن متعة الطرب وخرجت العمّة غزاة ترتعد، فقد ظننت أن فاجعة حلّت بالبيت فجعلت زوجها يصرخ في تلك الساعة المتأخرة من الليل ..

- شنو هالكلام الشين اللي اتقول فيه اليهودية؟ الله يقطع قولها..

ولم تستطع زوجته أن ترد على القول، فقد كانت فعلته قد أرعبتها، فأردف :

- تسمعي فيش انقول ولآ انطرشتي ؟

- كذك شنو صار لك اترعش فينا عقاب الليل ؟

- نبيك تطردي هاليهودية ما نبيش نسمع غناها المعفن ..

- شورها طربقت فينا عين، هدى اللي كنت خايفة منها!

- عين ولا ودن علي اليمين ما هي بايته في حوشي هالجيفه !

ولم يعد في إمكان غزالة إثناء زوجها حتى يتخلى عن موقفه الحاسم، بعد أن تفوه بالطلاق، الأمر الذي أدى إلى إحداث إرباك بين النساء اللاتي توقفن عن الغناء، وأخذن في انتظار ما يسفر عنه ذلك الموقف الطارئ الذي يدعو للأسف، فدخلت تكفكف دموعها وتلققتها زوجة شقيقها مستسرة في استغراب :

- انت كنتك شنو صار؟ حسك رعشتيني ؟

- دونك لي يا سالمة، وريني كيف اندير؟ بوخريص قال لي طردي اليهودية، وحلف بالطلاق ما انتبات في حوشنا ! وين نبي انطردها في هالليل .

- اقطع قوله بوخريص، نلقاها ما دار فينا خير !

وجلست المرأتان تفكران في إيجاد حل لهذه المشكلة التي أوقعهما فيها بوخريص بذلك التصرف الأحمق الذي لا يقدر العواقب، وبعد قليل من التفكير توصلت سالمة إلى حل يساعد أخت زوجها على الخروج من ذلك المأزق وإنقاذ الموقف :

- خلاص ما تخافيش يا غزالة توا انشيل بطة انتبات معاي في حوشنا .

ونظرت غزالة إلى زوجة شقيقها مستغربة وتساءلت
كيف يمكن إيواء بطة في بيت شقيقها وهو لم يعد بعد من
سهرته؟ وماذا سيحدث إذا عاد ووجد تلك الدرباكة نائمة في
بيته، خاصة إذا كان في حالة سكر كعادته ..

- انا خايفة خوي خليفة يروح سكران وايدير لك هرجة كيف
دوت بوخريص؟

- انا ما نيش ساهلة كيفك، نعرف كيف انخليه ما يردش كلامي
واعي ولا سكران .

- نلقانك تربي في أجر كان فكيتيني من شر هالليلة .

- خلاص عدّي رضّي الصباية اللي يرجن فيك وخليهن
ايدربكن ويرقصن نين يطلع عليهن الصبح .

obeikandi.com

المدينة المفتوحة

عندما التحق أسعد بالعمل في شركة المقاولات العامة التي يمتلكها أحد الأثرياء الطليان والتي تقوم بإنجاز المشاريع الاستيطانية لم يجد بين موظفيها الإيطاليين سوى مواطن واحد كان يعمل مترجماً في إدارة تلك الشركة، كان ذلك المواطن يُدعى الكيلاني وهو رجل طويل القامة غليظ التقاطيع متجهم الوجه حاد النظرات، ولذلك كان أسعد يتحاشى نظراته الصارمة ولا يتبادل معه الكلام إلا حين يحضر له القهوة ويطلق عليه تحية الصباح، كانت المرة الوحيدة التي أطال فيها الكلام معه يوم التحاقه بالعمل في الشركة عندما أخبره بأن مهمته هي نقل البريد الصادر وإحضار الرسائل الواردة من مكتب البريد كل صباح مع إحضار الصحيفة اليومية والقيام بتلبية مطالب الموظفين داخل الشركة مع التحلي بالصدق وأداء العمل بأمانة، وهكذا استمر أسعد في العمل دون أن يعير اهتماماً لسي الكيلاني الذي لم يشعر بأن هناك شيئاً يقربه إليه، حتى حدث ذات صباح بينما كان يحضر الصحيفة اليومية إلى مكتب نائب المدير العام أن وجد

سي الكيلاني يتحدث مع صاحب المكتب عن حالة عامل من المواطنين سقط من فوق (السقالة) وهو يحمل على كتفيه كيساً من الإسمنت ليوصله إلى الطوابق العليا في إحدى العمارات التي تقوم الشركة ببنائها، وقد أدى سقوطه إلى كسر إحدى ركبتيه ولم يحصل على تعويض عن إصابته، كان سي الكيلاني يتحدث عن حق ذلك المواطن في التعويض عن إصابة العمل وكان نائب المدير يحاجج بأن قوانين العمل الإيطالية لا تسري على المواطنين الليبيين ..



منذ ذلك اليوم أدرك أسعد مدى اهتمام سي الكيلاني بحالة ذلك المواطن وحرصه على المطالبة بحقه في التعويض عن إصابة العمل، لقد غير ذلك الموقف شعور أسعد نحو سي الكيلاني وزالت الجفوة التي كانت تحول بينه وبين الحديث مع ذلك الرجل الذي كان يراه غامضاً، ثم أصبح يجلس بقربه ويتبادل معه الحديث، واكتشف أن سي الكيلاني يتمتع بخبرة واسعة عن أحوال المدينة وأهلها، كما أنه كان معاصراً للشركة منذ إنشائها، فمنذ لقائه بصاحبها الذي ظل يحظى بإعجابه وثقته لما يتمتع به من أمانة وإخلاص في العمل، الأمر الذي جلب عليه

كراهية موظفيها الذين لم يتمكنوا بكيدهم له من إقصائه عن العمل...



عندما تنتهى إلى أسماع العاملين بالشركة صوت بائع الصحف علي الملقب ببيتزا نزل أسعد مسرعاً ليجد ذلك البائع المشهور يتأبط رزمة من صحيفة (الكوريري دي بنغازي) وينادي عليها بصوته المبحوح، وكان يحاول إطالة النداء حتى يسمع الإيطاليون الخبر المفاجئ المنشور في الصفحة الأولى بالبنط العريض (إعلان الحرب على بريطانيا العظمى)، وسرعان ما خرج أصحاب المحلات من الإيطاليين وغيرهم وأخذوا يتهافتون على شراء تلك الصحيفة ويتصفحونها في حالة من الذهول وهم يهزون رؤوسهم في استغراب، كانت هذه هي المرة الأولى التي تنفذ فيها جميع النسخ بسرعة لم يعهدها المواطن علي بيتزا الذي تعود الطواف بها حتى منتصف النهار والعودة بالرواجع، وفي داخل الشركة تلقف الموظفون نسخ الصحيفة التي أحضرها لهم وأخذوا يتناقشون في فحوى ذلك الخبر المفزع الذي أحدث صدمة في نفوسهم وجعلهم يتساءلون عن أسباب تلك الحرب المعلن عنها ودوافعها، ولقد ظلت تلك

التساؤلات تتردد في جميع أنحاء المدينة طيلة ذلك اليوم من شهر
يونيو 1940 ..



بعد صدور إعلان الحرب بدأت التعبئة العامة فنشطت
الحركة في جميع المعسكرات وبدأت تحركات قوات الجيش
الإيطالي بمختلف فروعه حيث شوهدت أرتال من الدبابات
والمصفحات والسيارات التي تجر مدافع الميدان تتجه شرقاً، وقد
نلى تلك الآليات رتل من السيارات الكبيرة التي تحمل أفواجاً من
المواطنين المجندين في الفيلق الليبي الذين كانوا يلوحون بأيديهم
مودعين الأهل والجيران، ثم صدر نداء من قيادة ميليشيات
المتطوعين يحث جميع المنتسبين إلى حركة (القال) من
المواطنين إلى الإسراع بالتجمع في مدرسة التدريب بشارع البحر
لغرض التدريب على أعمال الإسعافات الأولية وإطفاء الحرائق،
وهكذا ظلت عمليات التعبئة العامة تجري على نحو سريع في
جميع أنحاء المدينة، وظل المواطنون يتسارعون في كل مكان عن
مصير أبنائهم المجندين والمتطوعين ..

في غمرة تلك التساؤلات التي لا طائل من ورائها خرجت

الصحيفة الوحيدة (الكورييري دي بنغازي) تحمل خبراً أثار مشاعر الخوف لدى جميع السكان بما يحمله من تحذير وتعليمات صارمة لم يكن لها سابقة، إذ لم يكن ذلك الخبر سوى (إعلان الأحكام العرفية) الذي يتضمن أوامر شديدة تنص على منع التجول من بداية المساء حتى الصباح التالي، والالتزام بإطفاء الأنوار كلياً عند انطلاق أصوات صفارات الإنذار المثبتة في الميادين والأماكن العامة، والالتجاء إلى المخابئ المعدة لحماية السكان من الغارات الجوية المحتمل وقوعها، وبمجرد صدور ذلك الإعلان غير المنتظر نشطت حملة الدفاع المدني التي استهدفت طلاء المصابيح باللون الأزرق في الشوارع الرئيسية والميادين والأماكن القريبة من المنشآت العامة، وإثر هذه الحملة التي لم تشهد المدينة مثيلاً لها ساد التوتر بين السكان الذين أصبحوا يتربصون أحداثاً أخرى لا يعرفون مدى تأثيرها على نفوسهم ولا كيف سيكون حجم الأضرار التي ستلحق بالمدينة في حالة تعرضها للغارات الجوية التي يحذر من وقوعها إعلان الأحكام العرفية .



في شهر سبتمبر وبعد فترة من الهدوء الذي نعمت به المدينة ولم يشعر السكان خلالها بأي شيء يمكن أن يهدد أمنها أو يشكل خطراً على سير الحياة فيها، تمت المفاجأة إذ بينما كان السكان مجتمعين حول موائد العشاء في جو الليل الهادئ انطلقت أصوات صفارات الإنذار تبدي أصواتها المزعجة الشعور بالراحة والأمان، إذ سرعان ما أطفئت الأنوار وساد الظلام وعمّ سكون رهيب شمل المدينة بأسرها ولم يدم إلا قليلاً، فقد انبعث من علو شاهق هدير محركات له وقع غريب ظل يشتد كلما اقترب من سماء المدينة، ولم تلبث أن ظهرت الأضواء الكاشفة تجوب السماء بحثاً عن الطائرات المعادية، ولم يلبث أن تحول ذلك الهدير إلى أصوات مزعجة تصم الأذان وأعقبها دوي انفجارات قوية مادت لوقعها الأرض واهتزت الجدران بعنف حتى انفتحت أبواب البيوت والنوافذ التي أحدثت صريراً قوياً أرعب النساء والأطفال وهم يسمعون تتأثر الزجاج على الأعتاب وضجت البيوت بالصراخ والعيول وارتفعت فيها أصوات العجائز تستنجد بالأولياء لطلب الحماية والنجاة، ولم يكن الرجال أقل فزعاً من النساء والأطفال في تلك اللحظات الرهيبة، وإن ظلوا يكتُمون مشاعرهم بإشعال السجائر ونفت دخانها في الظلام الدامس المشحون بالخوف والقلق، وبينما كانت حالات الصراخ تتزايد في

البيوت خوفاً من انهيارها على ما فيها كانت الأنوار الكاشفة المنبعثة من المواقع العسكرية تسلط أشعتها المبهرة لملاحقة الطائرات الإنجليزية المغيرة وتمكين المدافع المضادة للطائرات من اصطيادها وضربها، إلا أن ما قامت به المدافع من محاولات لم تفلح في اقتناص تلك الطائرات التي ظلت تتاور بسرعة مذهلة حتى أفلتت من حصار الأضواء والنيران حتى اختفت ولم يعد يُرى لها أثر، وعند ذلك توقفت أصوات المدفعية وانطلقت أصوات صفارات الأمان إيذاناً بانتهاء الغارة الجوية التي روّعت سكان المدينة لأول مرة في تاريخها ..



ما كادت تشرق الشمس بعد ساعات مرت بطينة على المواطنين الذين ظلوا ينتظرون انبلاج الصباح في قلق وتوتر حتى خرجوا إلى الشوارع متلهفين على معرفة ما حدث بالمدينة بعد الغارة الجوية التي روّعتهم في الليلة الماضية، ولم تلبث أن انتشرت الأخبار عن الأضرار التي لحقت بالميناء وأدت إلى إغراق طراد حربي وإصابة العديد من القوارب وموت بعض الضحايا كان أشد الأخبار وقعاً على النفوس خبر القنبلة التي سقطت في شارع باله وأدت إلى مقتل ثلاث عائلات من

المواطنين جمعها الخوف في بيت واحد، فقد أدى هذا الخبر المحزن إلى تعميق الشعور بالكارثة التي حلت بالمدينة الآمنة، ومنذ ذلك اليوم بدأت أول عمليات النزوح التي قام بها المواطنون طلباً للملاذ الآمن في القرى والضواحي البعيدة عن المدينة، حيث بدأت عربات الكارو التي تجرها الخيل والحمير تخرج من الشوارع والأزقة محملة بالنساء والأطفال والعجائز وبعض الأمتعة الضرورية وأدوات الاستعمال اليومي، كانت تلك العربات تسير في طوابير غير منتظمة حتى تكاد تصطدم ببعضها وكان يتقدمها بعض الرجال من راكبي الدراجات ويسير خلفها رجال آخرون يمشون على أقدامهم وقد بدت على وجوههم أمارات القلق وهم يغادرون المدينة ولا يعرفون ماذا سيحل بأهلهم إذا طالت مدة الحرب، كانت هذه أول عملية نزوح جماعية تشهدها المدينة .



وهكذا استقر المواطنون في القرى والضواحي، وتغير سير الحياة اليومية في المدينة بسبب تغيير مواعيد العمل، وظل أصحاب المتاجر والعمال وغيرهم من العاملين في الشركات والمرافق العامة والصناعات المحلية يحضرون إلى المدينة في

الصباح الباكر ويغادرونها قبل حلول الظلام، فتبقى خالية من السكان طيلة الفترة التي تعقب ذلك الوقت حتى الصباح التالي، يلفها الظلام الموحش ويسودها سكون مطبق لا يقطعه سوى أصوات صفارات الإنذار التي يصحبها مواء القطط التي تجري مذعورة فوق الحيطان وفي الشوارع الخالية، ورغم الشعور بالأمان في تلك الأماكن البعيدة عن الخطر فقد ظل المواطنون يعانون من مشاكل النقل التي تلازم حركة تنقلهم اليومية بين المدينة والقرى والضواحي صباحاً ومساءً، وما يصحب ذلك من المعاناة اليومية القاسية التي ظلوا يتعاونون للتغلب عليها بكل ما يستطيعون .



يبدو أن الإنجليز لم يكتفوا بالغارات الجوية العنيفة التي توالى على المدينة وأدت إلى إحداث دمار واسع شمل المؤسسات والمرافق في الحي الغربي، منها مبنى البريد المركزي ومبنى المحافظة وقصر البرلمان السابق ومبنى فندق إيطاليا الذي يُعد من أجمل مباني المدينة، ومباني بعض البيوت الأهلية التي أصبحت خراباً شوه وجه المدينة، حيث فاجأوا السكان بغارة بحرية لأول مرة منذ بداية الحرب، فبينما كان النازحون في

القرى الساحلية يسهرون أمام البيوت والأكواخ شاهدوا أضواءً تومض وتخبو بسرعة في آفاق البحر المظلم، ثم تبعها دوي انفجارات متلاحقة بثت الخوف في نفوسهم بعد أن وجدوا الأمان بعيداً عن المدينة، توالى قصف السفن الحربية الإنجليزية التي ظلت تدك الميناء وما حوله من منشآت، ولم تقلح بطارية المدفعية الساحلية المنصوبة على شاطئ اللثامة في إيقاف تلك الهجمة المباغتة رغم ما أطلقتها من قذائف ثقيلة يبدو أن مداها لم يصل إلى حيث ترسو السفن المهاجمة، ودامت تلك الهجمة الإنجليزية مدة ساعة من القصف المنقطع ثم توقفت وتلاشت الأضواء التي كانت تومض وتخبو في آفاق البحر الذي أطبق عليه الظلام، ولم يعد النازحون يرون سوى ألسنة اللهب وهي تتصاعد من الحرائق التي اشتعلت في منشآت الميناء ..



لقد سمعت حالة السكان بعد أن أصبحت الطائرات الإنجليزية لا تغيب عن سماء المدينة ليلاً ونهاراً لشل حركة الدوائر العسكرية الإيطالية، ولم يعد في إمكان أحد الحصول على كفايته من المواد الغذائية التي بدأت تتناقص مع مرور كل يوم، واشتدّت الضغوط النفسية على جميع السكان بمختلف أجناسهم

وعمَّ الاستياء، وظلت الحالة غامضة، وبدأ الإيطاليون يشكون في صحة البلاغات الحربية التي كانت تصدر عن القيادة العامة لقواتهم المسلحة لأنها لا تعكس حقيقة ما يجري في ساحة القتال، وازداد الأمر سوءاً عندما انتشر خبر مزعج تسرب من بعض الجهات العسكرية مفاده أن قوات الجيش الإيطالي في ميدان سيدي البراني تواجه صعوبات شديدة في صد هجمات الإنجليز العنيفة الأمر الذي أذهل أصحاب الشركات والمؤسسات المالية وأصابهم بالذعر لأنهم توقعوا انهيار الجبهة وهذا يعني خسارة فادحة لهم، فأخذوا يلعنون من كان السبب في إشعال نيران الحرب، ويسبون القيادات العسكرية الفاشلة، ثم أخذوا يعولون على نقل عائلاتهم إلى طرابلس تحسباً لما سيحدث في أعقاب الانسحاب المباغت ..



وفي مقر شركة المقاولات العامة التي شهدت مناقشات حامية بين جميع موظفيها كان السنيور أنجلو صاحب الشركة يتحدث مع نائبه وقد احتقن وجهه وبدت عليه أمارات الغضب وهو يضرب بقبضة يده على طاولة المكتب ويصب اللعنات على القيادات العسكرية الفاشلة التي أوصلت قوات جيشهم الذي كان

يضرب به المثل إلى حافة الهاوية، هذا ما شاهدته وسمعه أسعد عندما دخل يحمل الصحيفة اليومية التي أخذها منه السنيور أنجلو وألقى بها في زاوية المكتب، فاستغرب ذلك التصرف الذي لم يعرف له سبباً والذي شهده لأول مرة منذ تعيينه في تلك الشركة، فخرج مسرعاً إلى مكتب سي الكيلاني الذي وجده جالساً يمعن النظر في نفس الصحيفة التي رماها السنيور أنجلو وأخبره بما كان يدور من نقاش بين الموظفين من جهة، وبين السنيور أنجلو ونائبه من جهة أخرى، وما طرأ على تصرف السنيور أنجلو الذي كان في حالة هيجان، ثم طلب منه أن يخبره عما كان يجري بين أروقة الشركة في ذلك الصباح، ولاحظ سي الكيلاني مدى اهتمام أسعد بمعرفة كل ما يجري بالشركة فوضع الصحيفة جانباً وقال :

- اسمع يا بني ما سأقوله لك حتى تعرف أشياء كثيرة عن حالة بلادنا وأهلها ..

في الأيام الأولى للاحتلال العسكري شهدت مدينتنا الأمانة التي روعها الغزو الإيطالي البغيض جماعة من المغامرين الإيطاليين الذي وفدوا مع جحافل ذلك الغزو بعد أن ضاقت بهم سبل الحياة في إيطاليا، فشدوا الرحال إلى بلادنا التي سرعان ما

وجدوا فيها مجالات عديدة للعمل في المشاريع العسكرية فأنشأوا مكاتب صغيرة للتجارة والملاحة والمقاولات لم تلبث أن تطورت بمساعدة ضباط القوات المسلحة الذين كانوا يعهدون إليها بتنفيذ تلك المشاريع نظير حصولهم على نسبة مئوية من تكاليف إنجازها، وبتلك المساعدات أصبح أولئك المغامرون من رجال الأعمال المرموقين خاصة بعد أن أتاحت لهم المشاريع الاستيطانية التي توالى إقامتها وأدت إلى اتساع دائرة أعمالهم، فأصبحوا من ملاك العقارات والمزارع والمصانع، ويُطلق عليهم اسم الرواد الأوائل، ومن بينهم السنيور أنجلو صاحب هذه الشركة الذي لفت نظرك ما حلَّ به من غضب، فهو لم يكن وحده يعاني من تلك الحالة، فجميع الرواد الأوائل كانوا مثله يعيشون أسوأ أيام حياتهم، يؤرقهم القلق ويزعجهم التفكير فيما آلت إليه حالة الحرب التي تنذر بالهزيمة والتي ستكون آثارها ضارة فيما لو حدثت لأن ذلك سيؤدي إلى فقدان كل ما أقاموه من مؤسسات كبيرة تقدر قيمتها بملايين الليرات، وهذا هو السبب الذي أدى إلى تنغيص حياتهم وجعلهم لا يستطيعون التحكم في أعصابهم لأنهم لا يعرفون ماذا سيحل بهم في المستقبل .



في تلك الظروف الصعبة التي كانت تمر بها السلطات الإيطالية المدنية وهي تترقب أسوأ النتائج، صدرت أوامر عسكرية عن القيادة العامة للأركان تفيد أن القوات المسلحة الإيطالية قررت الانسحاب من جبهة القتال لأسباب استراتيجية بصورة مؤقتة، ستعود بعدها إلى مواصلة القتال، وأنها حرصاً منها على سلامة السكان والممتلكات العامة والخاصة قررت جعل بنغازي مدينة مفتوحة حتى لا تتعرض إلى أضرار فادحة في الممتلكات والنفوس فيما لو نشب قتال داخل شوارعها، وامتثالاً لهذه الأوامر العسكرية طلبت السلطات المدنية من جميع السكان الالتزام بالهدوء وعدم التجول في الشوارع إلا عند الضرورة القصوى، مع توخي الحذر، وهكذا توقفت الحركة، فقد بقي السكان في أماكن تواجدهم خارج المدينة، وظلوا يتربصون في قلق ما يمكن أن يحدث بعد السكون المريب الذي أطبق على المدينة .

وفي صبيحة السادس من فبراير 1941 أطلقت طلائع القوات الإنجليزية على مشارف المدينة وتوقفت قليلاً عند تقاطع الطريق المؤدية إلى منطقة السلماني، كانت مؤلفة من المصفحات وناقلات الجنود المدججين بالسلح، وسيارات أخرى تحمل أجهزة

الاتصالات اللاسلكية ذات الهوائيات الطويلة، ثم تقدمت غرباً حتى عبرت (قم السور) مدخل المدينة الشرقي لأول مرة، ولم تواجه في زحفها أية مقاومة، إذ لم تُطلق ضدها رصاصة واحدة، فقد كانت المدينة مهياًة لاستقبالها بالاستسلام، ولن تلبث أن طافت بالشوارع وسط حشود من المواطنين الذي أسرعوا للترحيب بقدمها وهم يصفقون ويضربون البنادير والطبول، ثم وبعد أن استكملت جولاتها داخل المدينة للتأكد من عدم وجود قوات معادية استقرت في المعسكرات التي أخلتها القوات الإيطالية عند انسحابها، ومع حلول منتصف النهار فوجئ المواطنون بجماعات من جنود الاحتلال الذين تسللوا من المعسكرات ينتشرون في شوارع المدينة وأسواقها المقلقة، كانوا يبحثون عن المحلات والمتاجر الإيطالية ويحطمون أبواب الخمارات التي استولوا على ما فيها من بقايا المشروبات ذات الأنواع المختلفة التي عبوا منها حتى ذهب السكر بعقولهم، وأخذوا يعربدون في الشوارع والميادين ويقتمون بيوت الدعارة ويطاردون المومسات الإيطاليات اللاتي لم يسعفن الحظ بمغادرة المدينة مع من هربوا إلى طرابلس، ولم يتورع أولئك الجنود من التحرش ببعض الشبان من المواطنين ويشتبكون معهم بالأيدي ويتبادلون اللكمات وقد تمكن أولئك الشباب من التغلب على أكثر الجنود المخمورين ودامت

الاشتباكات حتى الأصيل حينما حضرت قوة من رجال الشرطة العسكرية نوي القبعات الحمراء، وقاموا بمطاردة الجنود السكاري وإلقاء القبض عليهم ونقلهم في سيارات شحن كبيرة، وعند ذلك عرف المواطنون أن أولئك الجنود هم من الفوج الأسترالي التابع للقوات الإنجليزية، ومع حلول المساء ساد الهدوء، ورغم ذلك ظل المواطنون الذين عادوا إلى المدينة في تلك الليلة يحكمون إقفال أبواب البيوت والنوافذ، ولا يفتحونها إلا مواربة إذا تطرق إلى أسماعهم صوت حركة ليستطلعوا ما يجري في الشوارع المظلمة التي يلفها السكون، كانت هذه أول ليلة يبيتون فيها داخل المدينة منذ خروجهم منها عند بداية الغارات الجوية الإنجليزية التي أرغمتهم على النزوح، ولم يخطر ببالهم أن يداهمم الخوف من عساكر المحتل الجديد الذين أشاعوا الفوضى بالمدينة منذ وطئت أقدامهم أرضها بتلك التصرفات الهمجية التي جعلتهم في حالة توتر أطارت النوم من عيونهم حتى اضطروا إلى أن يظلوا في حالة يقظة طوال تلك الليلة تحسباً للمفاجآت، وهكذا ظلت المدينة التي فتحت نراعيها لاستقبال القوات الإنجليزية والترحيب بقدمها، مفتوحة على جميع الاحتمالات ..



رائحة البيت

تفاقت الحرب التي ظلت تزداد مع مرور كل يوم خطورةً، وتوالت على المدينة أسراب الطائرات المتحاربة التي كانت تدك أرضها وتتقاتل في سماءها، وكانت أولى نتائج هذه الأحداث اختفاء الخبز من الأسواق، الأمر الذي أدى إلى إشاعة التذمر بين المواطنين والمقيمين عندما شعروا بهذه المشكلة الخطيرة، كانوا قد تعوّنوا منذ بداية الحرب على تقنين مواد التموين التي كانت تُصرف بالبطاقات بمقادير قليلة لكل فرد تكاد لا تسد حاجته اليومية والتي أصبح الحصول عليها يزداد صعوبة مع مرور الأيام لعدم توفرها بانتظام في مراكز التوزيع، وكانت هذه أول أزمة تتعرض لها المدينة وتكشف عن عجز السلطات الإيطالية على الإيفاء بمطالب السكان الضرورية الذين تحملوا نقص بعض المواد الأخرى، ولا يمكنهم تحمل فقدان الخبز ذلك الغذاء اليومي الذي لا يمكن لأحد الاستغناء عنه ..

كانت هذه المشكلة قد نجمت عن قيام تلك السلطات بتخفيض كميات الدقيق التي كانت توزع على المخابز والتي عجزت بدورها عن تلبية حاجات السكان من الخبز اليومي، وهكذا ظلت مشكلة نقص الدقيق تشغل السكان وتتصدر أحاديثهم اليومية وتثير القلق في نفوسهم، كما كانت تزج أصحاب المخابز الذين أصبح لا همّ لهم سوى التفكير فيما ستؤول إليه صناعتهم التي أصبحت مهددة بالتوقف بسبب غياب الدقيق الذي تعتمد عليه في عملها، وكان من بين الأحاديث التي كانت تثار في البيوت والأسواق وأماكن العمل ذلك الحديث الذي جرى في مخبز الشاطئ بين السنيور ميكيلي صاحب المخبز وصديقه المعلم رينالدي وخليفه زايد العامل في المخبز، قال السنيور ميكيلي وهو يتأمل مخزن الدقيق الذي أصبح خاوياً :

- من كان يتوقع أن يخلى هذا المخزن من الدقيق الذي كان يمتلئ بأكياسه حتى السقف؟ هل كان من الممكن أن يحدث هذا الفراغ المفزع لولا هذه الحرب اللعينة؟

- هكذا في حالات الحروب لابدّ من حدوث كل ما يسبب الإضرار بالناس، وما نعانیه من قلق في هذه الأيام هو مثال على ذلك، قال رينالدي ..

- أعلم ذلك جيداً، ولكن لم أتوقع أن تكون الأزمة بهذا الشكل المفاجئ الذي أذهل الناس، قال ميكيلي ..

- على المرء أن يتوقع كل المفاجآت التي لا تخطر على البال، فالحرب لا يعرف أحد كيف تبدأ ومتى تنتهي وما هي نتائجها؟ ، قال رينالدي ..

- إن نتائج هذه الحرب التي تبدو محتملة تثير الخوف في النفوس، ولا يعلم أحد ماذا سيحل بنا في النهاية؟

وتساعل رينالدي وهو ينظر إلى خليفة زايد الذي كان يتابع حديثهما وهو يجلس في زاوية المخبز ..

- أين أنت يا خليفة؟ ما هو رأيك فيما تطرقنا إليه حول المشكلة؟

وتردد خليفة قليلاً ثم قال :

- الحديث عن أزمة الخبز يذكرني بكلمة لموسولينى وردت في كتاب المطالعة بالسنة الثالثة الابتدائية، هل تسمحان لي بقولها؟

ونظر الرجلان إلى بعضهما في دهشة، ثم قالوا في صوت واحد :

- أسمعنا هذه الكلمة حتى نعرف رأي الزعيم في الخبز !

وأخذ خليفة في إلقاء كلمة موسوليني وهما يستمعان إليه
في انتباه :

- " أيها الإيطاليون، أحبوا الخبز، قلب البيت ورائحة غرفة
الطعام، احترموا الخبز، عرق الجبين ومجد الحقول،
شرفوا الخبز عطر الأرض وعيد الحياة " ..

- صحيح هذه الكلمة للزعيم قالها في إحدى زيارته لحقول
القمح بإيطاليا، قال رينالدي

وهنا بدأ الغضب على وجه ميكيلي وقال :

- وماذا في إمكان موسوليني أن يقول لنا فيما نعانيه اليوم من
فقدان الخبز الذي يتشدد بتمجيده ؟

وقال رينالدي معقباً على تساؤل ميكيلي :

- أتخيل موسوليني يقف في قصر فينيسيا وهو يضع يديه في
خصره ثم ينفخ أوداجه ويقول لنا :

- "حافظوا على (البشماط) واستعدوا لل-

ولم يستطع رينالدي إكمال بقية الكلمة التي أراد أن

ينسبها إلى الزعيم، فقد انتابته ضحكة طويلة سرعان ما سرت
عدواها إلى ميكيلي الذي انفجر هو الآخر في ضحكة اهتزت
لها يده حتى سقطت منها السجارة التي داس عليها لتحدث
بقعة سوداء على البلاط الذي ما زال يغطيه غبار الدقيق،
حدث هذا بينما وقف خليفة مذهولاً لا يدري سر ذلك الضحك
الذي أعقب كلمة الزعيم ..



ظلت الأيام تمر بطيئة مشحونة بالقلق، وسادت حالة
التوتر في المدينة، فمنذ أن تناقص العمل في الميناء وكاد أن
ينعدم أدى ذلك إلى تعطل العمال، ثم زاد الحالة سوءاً إغلاق
المخابز وبعض المنشآت المدنية، الأمر الذي ساهم في تضخيم
حجم البطالة وزيادة عدد العاطلين عن العمل، كل هذه الأسباب
مجتمعة خلقت التذمر في نفوس المواطنين التي طفحت
بالمرارة، وظل الرجال يعانون قسوة الأزمة ويحاولون التغلب
على المصاعب في سبيل توفير ما يمكن الحصول عليه من
المواد الغذائية التي ندر وجودها حتى في السوق السوداء في
تلك الأيام العصيبة التي حاصرهم فيها الخوف وأرعبهم شبح
الجوع، لقد طافوا على كل الأسواق في المدينة وضواحيها

بحثاً عن شيء يصلح للأكل ولم يجدوا سوى بعض (البراسيم) من التمر التي بدأ يتسرب إليها السوس من جراء تخزينها لمدة طويلة، ورغم أنهم كانوا يحملون نقوداً إلا أن هذه النقود لم تعد لها قيمة، فقد أصبحت عديمة الجدوى في غياب الحاجيات الضرورية، ولم تكن النساء أقل انزعاجاً من الرجال، فقد شعرن بهول المأساة منذ بداية غياب الدقيق عن البيوت، وظهر عمق ذلك الشعور على حالتهم وهن يقمن بإغلاق (التنانير) التي وضعت على فوهاتها ألواحاً معدنية مدعومة بقطع من الحجارة الثقيلة لحمايتها من تأثير العوامل الجوية، لقد ذرفت بعضهن الدموع وهن يقمن بهذه المهمة التي لم يكن ليلحس إليها لولا تلك الظروف الحرجة التي سببت لهن المعاناة والتي لا يعرفن إلى متى ستطول وتظل التنانير على هذه الحالة غير المرغوب فيها..



كانت منطقة دكاكين حميد ضاحية جميلة ذات بيوت بيضاء وأزقة ضيقة تحدها من الشمال كثبان الرمال ومزارع الخضروات التي تنتشر في منخفض واسع به عدة آبار من المياه العذبة، ومن الشرق والغرب أشجار النخيل الباسق،

ويحدها من الجنوب الطريق العام، كما تتوسطها ساحة صغيرة تصطف في جوانبها الدكاكين والمقاهي ومحلات الجزارة وباعة الفحم والحطب، ونظراً لوجود موقعها على ذلك الطريق الرئيسي أصبحت ملتقى للمواطنين الذين يرون بها صباحاً ومساءً خلال تنقلاتهم بين المدينة والقرى التي أوجأتهم إليها ظروف الحرب، وهذا الموقع المتميز جعل سكانها أكثر الناس اهتماماً بما يحدث في المدينة التي يستقون أخبارها من العابرين للطريق الذين يتوقفون فيها لقضاء بعض الحاجيات، وكان في مقدمة المهتمين بتتبع أخبار الحرب والتعليق عليها وتوقع النتائج التي قد تترتب عنها الحاج بوعطية الجندي المتقاعد والشاب خليفة زايد الذي أصبح عاطلاً عن العمل منذ إغلاق المخبز الذي كان يعمل به، كانا يلتقيان في ساحة السوق ويخبران المواطنين الذين يترددون على تلك الساحة في كل مساء بما تحوي جعبة كل منهما من الأخبار التي يتوصلان إليها عن طريق الاختلاط بالعبارين، ولما كان الحاج بوعطية يسكن قريباً من الطريق العام فقد أتاحت له هذه القربة مراقبة تحركات القوات المتحاربة على ذلك الطريق وتمييز هويتها حتى في الليالي المظلمة عن طريق تحاور العسكر مع بعضهم، فيعرف إن كانت من قوات الطليان والألمان أو من قوات أعدائهما

الإنجليز وأتباعها، وسواء كانت متجهة شرقاً أو غرباً، أو كانت في حالة تقدّم أو تقهقر، كان بوعطية يرصد حركات الكر والفر ويخبر الذين يحضرون إلى ساحة السوق بتوقعاته وفيما ستؤول إليه من نتائج حسب خبرته، وكان من بين الحاضرين من يقنّع بتوقعاته ومن يشكك في جدواها فينصرف غير مكترث بها .



في إحدى الأمسيات أخبر الحاج بوعطية المواطنين الذين تجمعوا في ساحة السوق بأخر ما توصل إليه من خلال مراقبته للطريق العام ورصد حركات القوات المتحاربة وبأنه قد شاهد في الليلة الماضية رتلًا من السيارات العسكرية تتجه غرباً وسمع ضوضاء بعض الجنود الإيطاليين مما يدل على الشروع في الانسحاب من جبهة القتال، ثم دعاهم إلى الاستعداد للتوجه إلى مواقع المنشآت العسكرية ومخازن الإمدادات لاقتحامها بعد مغادرة جنود الحراسة لها والاستيلاء على المخلفات التي لابدّ أن يكون بها بعض من المواد الغذائية التي تعوضهم عن أيام الحرمان التي طال أمدها، وسادت ضوضاء بين الحاضرين الذين أخذوا يتساعلون عن أماكن المنشآت والمخازن وكيفية

العمل للوصول إليها، في أثناء ذلك خاطبهم سي ميلود الذي كان يجلس أمام دكان الفحام كعادته كل مساء :

- عليكم بمخازن الجرمانيا راهي مليانه بالبضائع !
- قول لنا شنو فيها خير ما نتعبوا بلا فائدة؟، تساعل الفحام..
- فيها جميع ما يسمي فمك من بضائع، غير توكّلوا على الله ..
- من قال هالكلام، ايش عرفك بالبضائع اللي اتقول عليها؟، تساعل رجل آخر ..
- انا كنت نخدم فيها ما سيبتها نين بطلوني منها في الشهر الفائت ..

وأنهاى خليفة زائد تلك المحاوره الساخنة طالباً من الجميع التوجه إلى منطقة رأس عبدة حيث توجد مواقع منشآت الأشغال العسكرية ومخازن التموين الكبيرة، التي عرفت لدى المواطنين باسم (مخازن الجرمانيا) منذ أن شاهدوا سيارات القوات الألمانية تتوافد عليها للتزود بمواد التموين ..

وبات سكان دكاكين حميد تلك الليلة يترقبون مطلع النهار ويحلمون بالمخازن التي قيل لهم إن بها موادًا غذائية، حتى إذا انتشر ضوء الشمس أخذوا يجهزون عربات الكارو ويعدون العدة للتوجه إلى منطقة رأس عبيدة، وسرعان ما تكوّنت قافلة من العربات مختلفة الأحجام التي تجرها الخيول والحمير وتحركت عبر الطريق الخالي من الحركة في بواكير الصباح، في جو من الصمت فقد كان الرجال يتوجسون خيفة من خطر ظهور قوات إيطالية قد تتعرض لهم، ولا يعلم أحد ماذا سيكون مصيرهم بعد ذلك، وواصلت القافلة سيرها حتى إذا وصلت إلى منطقة رأس عبيدة توقفت في ساحة المخازن التي تقصدها، كانت تلك المخازن التي تتكون من بناية ضخمة ذات سقف بيضاوي بها ثلاثة مداخل تعلو على مستوى الأرض وبها ثلاثة أبواب من الخشب المتين مثبتة بها دعائم حديدية، وارتاب الرجال من عدم وجود قوة حراسة ظاهرة إلا أنه ما كادت تمضي دقائق معدودة على توقف القافلة بتلك الساحة حتى توافدت عليها جموع من سكان تلك المنطقة الذين جاؤوا بعرباتهم عندما علموا بقدوم القافلة فانضموا إليها وأخبروا الرجال بأن جنود الحراسة تركوا المخازن وغادروا المنطقة منذ الليلة الماضية، وعند ذلك اطمأن رجال القافلة وقام الجميع بضرب الأقفال الحديدية الكبيرة بقواديم

(الماصّات) حتى تمكنوا من كسرها بعد جهد شاق، وما إن تمّ لهم فتح الأبواب حتى اندفعوا إلى الداخل يتزاحمون بالمناكب ثم بدأوا يخرجون محملين بأكياس الدقيق والسكر وصناديق المعلبات يضعونها على العربات حتى إذا ثقلت أحمالها أخذ كل من يعبئ عربته يسرع في مغادرة الساحة ليبتعد عن ذلك المكان، فقد تناهت إلى أسماعهم أصوات طلقات نارية آتية من داخل المدينة وأشيع بينهم أن قوة الشرطة الإيطالية ما زالت باقية في مراكزها ولهذا انتابهم الخوف من حضور أفرادها المدججين بالأسلحة الرشاشة والذين لا يتورعون عن إطلاق النار عليهم، والحيلولة بينهم وبين الغنائم التي حصلوا عليها بشق الأنفس، وتقادياً للخطر المحتمل قرر الرجال القادمون من منطقة دكاكين حميد العودة من الطريق الترابي المحاذي للسبخة بعيداً عن داخل المدينة حتى يأمنوا على ما تحمل عرباتهم من المواد الغذائية التي حرّموا منها زمناً طويلاً وتحصلوا عليها بعد تجشم المخاطر، وهكذا أخذت قافلتهن الصغيرة تعبر ذلك الطريق الموحد الذي أجهد الخيول والحمير وهي تجر العربات بصعوبة بالغة، وجعلهم يتناوبون على دفع العربات من الخلف لتخفيف العناء على تلك الحيوانات.



كان الوقت ظهراً عندما وصلت القافلة العائدة بالغنائم إلى المكان الذي انطلقت منه منذ شروق الشمس لتقابل بتصفيق الصبيان الذين تجمعوا حولها فرحاً بعودة آبائهم سالمين، لقد دبت الحياة بين المواطنين في منطقة دكاكين حميد الذين ذاقوا مرارة الحرمان وقوة الجوع مثل غيرهم من سكان المدينة المنكوبة، وسرعان ما انتشر الصبيان بين النخيل يجمعون الحطب المعتاد للوقود والمكوّن من (الكرناف) و (الليف) و (العراجين الجافة)، وبأشرت النساء العمل في إعداد العجائن وتخميرها كما قمن بإزالة الأغطية عن (التنانير) وتنظيفها وحشوها بالحطب الذي أحضره الصبيان ثم إضرام النار فيها حتى بدأ لهيبها يتصاعد وسط كثافة الدخان الذي انتشر في الجو مخترقاً جريد النخيل الساكن في ذلك الجو المشبع بالرطوبة، وما إن تمّ إعداد التنانير بالحرارة اللازمة لإنضاج الخبز حتى أخذت النساء في إصاق أقراص العجين المستديرة في جنباتها، ومع بداية الغروب ارتفع ضجيج الأطفال الذين أسعدهم عمل الأمهات وهن يدخلن أيديهن في أفواه التنانير الحامية ويخرجن منها أقراص الخبز الطازج الذي ملأت رائحته جو المكان .



وفي تلك الليلة كان كل شيء هادئاً عدا ما كان يسمع بين حين وآخر وهو نباح الكلاب الآتي من الجهة الشرقية حيث توجد مزرعة الكروم الكبيرة، وكانت البيوت تتلألاً أنوارها، لقد التأمت السهرات العائلية في كل أطراف المنطقة ونسي الجميع أوامر الأحكام العرفية التي تمنع إضاءة المصابيح بعد الغروب تحسباً للغارات الجوية، وفي مربوعة الحاج بوعطية التأم شمل الجيران في سهرة، وأخذوا يتناقشون فيما بينهم عن أحوال المدينة وتطورات الحرب، وقد تصدرت حديثهم حكاية الانسحاب الذي شاهد الحاج بوعطية بدايته منذ يومين والغنائم التي تحصلوا عليها..

- لولا كلام الحاج بوعطية على نوضة الطليان ما حصلنتو هالواغمه، قال خليفة زايد ..

- صحيح لو كان ما دلنا على مكان المخازن ما كانت خاطره علينا بلكل، أجاب القهواجي ..

- بوعطية دلکم عالمخازن وانا اللي وريتکم شنو فيها انسيئو!، قال سي ميلود ..

- صدقت يا سي ميلود بوعطية دلنا على مكانها وانت خبرتتا عليّ فيها، قال خليفة زايد ..

- يا جماعة هالنوضه اللي اتقولوا عليها ازعم ايسير منها؟
ماندروا عليها؟ تساعل سي ميلود ..

- النوضه اموايرها باينه، كلام الحاج بوعطية كلام راجل
امجرب، قال خليفة زايد ..

- لو كان الكلام صحيح راهو خبرونا العرب اللي يمروا
علينا كل يوم، قال القهواجي ..

وبينما كان الجميع يتحاورن بين مؤيد لتوقعات الحاج
بوعطية ومعارض لها، منهمكين في ذلك الحوار الذي شغلهم عن
مرور ساعات الليل، وصل إلى أسماعهم ما جعلهم يتوقفون عن
الحوار وهم في حالة من الذهول، لقد بدأ هدير المدرعات التي
كانت تعبر الطريق متجهة غرباً يملأ الجو صخباً، وقفز الحاج
بوعطية من مكانه فأطفاً (الفتيلة) ثم أسرع إلى فتح النافذة على
مصراعها حتى تتضح الأصوات ويرى بعض الآليات الضخمة
تسير في خط متوازٍ مع رتل من السيارات العسكرية المحملة
بالجنود كأنها في حالة سباق مع الزمن، وأدرك الجميع أن
الانسحاب الثاني لقوات المحور كان حقيقة.



معطف النقيب

كان الوقت مساء في ذلك اليوم من أيام الربيع، وكانت السحب البيضاء تملأ الأفق تحت زرقة السماء، بينما كانت ريح شمالية خفيفة تهب وسط برودة الجو التي تعقب انحسار الشمس في تلك الأيام الربيعية .

وكان سي محمد سعيد عائداً مع ابنه سالم يحثان الخطى في طريقهما إلى قرية (اللثامة) التي اتخذ منها مقاماً لعائلته منذ بداية الحرب الكونية في الأربعينيات، كانا عائدتين كعادتهما بعد قضاء اليوم في الدكان بسوق الجريد، ولفت نظرهما وجود سيارة واقفة بجوار المرتفع المعروف باسم (الزريرعية)، كان بعض المواطنين يتزاحمون حولها وعندما وصلا إلى ذلك التجمع تبينا أن السيارة لوري من نوع (بيدفورد)، وأن بها علامات وأرقام تدل على أنها تابعة للقوات البريطانية التي كانت قد انسحبت منذ أمس، كانت السيارة عاطلة، ويبدو أن المنسحبين تركوها بكل ما فيها من الأمتعة العسكرية ولاذوا بالفرار التماساً للنجاة من قوات الألمان التي تتعقبهم، ورأى سي

محمد أن المواطنين يتسلقون السيارة ويستولون على الملابس والبطاطين وأدوات الأكل والطبخ وغيرها، فقام هو الآخر بتسلق السيارة وأخذ منها معطفاً وبطانيتين من الصوف ونزل ليجد ابنه سالم يطلب منه الإسراع بالذهاب ويشير إلى ناحية الغرب، ولما نظر سي محمد إلى حيث أشار ابنه رأى بعض الإيطاليين المسلحين بالبنادق قادمين نحو مكان السيارة، فجرى مسرعاً يقطع الطريق في اتجاه العلوة بحمله من الغنيمة حتى تواری وراء النخيل وأشجار (الهندي) ولحق به ابنه سالم الذي كان ينظر إلى المواطنين الذين هربوا متجهين شمالاً وشرقاً وهم يحملون الغنائم من مخلفات الإنجليز ..

وفي (الحلاق) الذي اتخذه مسكناً لعائلته إلى جوار المواطنين من أهل المدينة الذين هربوا من جحيم الحرب، جلس سي محمد وسط (البراكة) تحيط به العائلة، وأخذوا يتفحصون المعطف والبطانيتين على ضوء (الفتيلة) التقليدية المعبأة بالكبروسين، كانت البطانيتان جديدتين من الصوف، لونهما بني وبكل واحدة منهما أربعة خطوط بيضاء، أما المعطف فكان من الصوف الناعم رغم خشونة مظهره، لونه أصفر داكن وبه شريط من القماش مثبتة فيه ثلاثة (دبابير) فوق كل من

الكتفين، كما توجد به سطيحتان من النحاس بهما عبارة (استرليان كومونويلت)، ولم يعرف سي محمد معنى هذه العبارة رغم أن له إماماً باللغة الإيطالية، وتأمل أضرار المعطف النحاسية اللامعة وهو يهز رأسه إعجاباً، وأدرك أن صاحب المعطف يحمل رتبة (نقيب) ..

ونام كل من سالم وأخته فاطمة وهما يشعران بالدفء الذي غمرهما تحت البطانيتين الجديدتين، كانت أمهما تجلس في فراشها وهي تغالب النعاس، وكان الوالد مشغولاً بتأمل المعطف ويفكر في كيفية نزع الشارات والدبابير والأزرار من ذلك المعطف لتغيير سيمته بصباغته بلون بني ليكون معطفاً مدنياً كما يفعل المواطنون في تلك الأيام، لطالما تمنى الحصول على معطف من هذا النوع الذي أصبح الآن بين يديه يقيه برد الشتاء في ذهابه وإيابه من الدكان الذي ورثه عن أبيه واستمر يديره ويرتق من دخله من المواد الغذائية والتبغ والملح المصرح ببيعهما من (دائرة احتكار التبغ والملح)، وظل سي محمد ساهراً تختلط في ذهنه الأفكار وتساءل بينه وبين نفسه : يا ترى أين هو الآن ذلك النقيب الذي ترك معطفه وهرب خوفاً من العدو الذي يطارده؟ من أي مكان في هذا العالم جاء ذلك

الضابط مع أمثاله ممن أتت بهم الحرب؟ هل كانوا يحلمون برؤية البلدان التي لم يعرفوها؟ ربما عرفوا هذه البلدان على خريطة العالم عندما كانوا على مقاعد الدراسة؟ على كل حال ها هم جاءوا إلى بلادنا وخرجوا منها مدحورين ومن يعرف ماذا يخبيء لهم المستقبل؟ وبدأ النعاس يجثم على سي محمد وسمع صوت زوجته التي ما زالت تتقلب في فراشها تقول :

- مَبْرَكٌ عليك كبوط طير النوم من عينك كذك ما ترقد ..

وبدون أن يتكلم أطفأ الفتيلة ودلف إلى الفراش وفي رأسه أحلام كثيرة .

كان قد مرَّ أسبوع على تلك الليلة التي أدخلت السرور إلى قلوب عائلة سي محمد بن سعيد عندما حضر إلى دكانه رجل إيطالي يبدو على وجهه التجهم ورمى بورقة مالية على الطاولة التي تعترض مدخل الدكان وقال بلهجة أمرة :

- اعطني علبة سجائر من نوع (ثلاثة نجوم) .

- آسف ليس لدي سوى سجائر (ماشيدونيا) .

- أنا لا أدخن هذا النوع الرخيص أعطني النوع الذي طلبته .

- قلت لك إن النوع الذي تريده غير موجود لدي .

- لقد رحل الإنجليز، انتهى عهدهم، وسنصفي حساباتنا معكم

أيها الماكر سترون ذلك .

- أنا ليس لي شأن بالإنجليز، لماذا تغير الموضوع ؟

- كنتم تعتقدون أن إيطاليا لن تعود أيها الملاعين .

- لا داعي للشكائم دعنا في حالنا أيها السنيور .

- قلت لك أعطني السجاير نوع ثلاثة نجوم أيها العربي

القذر..

وهنا فارقت الدماء في عروق سي محمد فمدّ يده من

داخل الدكان وصفع ذلك الإيطالي المتغطرس على وجهه حتى

سقطت نظاراته على الأرض فالتقطها ومضى مهرولاً وهو

يتحسس صدغه الذي احمرّ من الصفعة ويتوعد بالانتقام ..

ولم تمض دقائق معدودة حتى عاد ذلك الإيطالي اللعين

بصحبة اثنين من شرطة (الكارابينييري) أحدهما إيطالي والآخر

سباني وبمجرد وصولهم إلى الدكان أشار الإيطالي إلى سي

محمد قائلاً :

- هذا هو الوغد الذي اعتدى عليّ .

وأشار الشرطي الإيطالي بيده إلى سي محمد وهو يتوعدده
وقال بلهجة أمره :

- اخرج أيها الملعون .

وما كاد سي محمد يخرج حتى وضع الشرطي القيد في
يديه واقتيد مكبلاً إلى مركز الشرطة القريب من السوق ..

بعد ثلاثة أيام علمت عائلة سي محمد أنه قد حكم عليه
بالسجن مدة ثمانية عشر شهراً وأن جميع السجناء الموجودين
في (حبس الكوفية) سينقلون إلى طرابلس لإيداعهم بالسجن
المركزي حيث يقضون مدد العقوبات هناك، وحتى لا يكون في
مقدور الإنجليز إطلاق سراحهم كما تصوروا فيما لو عاد
الإنجليز إلى احتلال المدينة مرة أخرى .



انقضت الشهور وانتهت مدة الحكم وعاد سي محمد من
طرابلس بعد الإفراج عنه، عاد وكان قد تغيرت سحنته وبدا
عليه الهزال، لقد غادرته الحيوية التي كان يتمتع بها وأصبح
أكثر عصبية مما كان عليه قبل ذلك الحكم الجائر، كان قد
تعرض للسخرة وقاسى من العمل المرهق اليومي بالمزرعة

المتابعة للسجن، كما تعرض للجوع بسبب قلة الطعام ورداعته وداهمه البرد الشديد وهو ينام على الأرض ويلتحف بطانية مليئة بالتقوب في تلك الحجرة التي لا تعرف الشمس إليها طريقاً والتي يشاركه فيها بعض السجناء من أبناء بنغازي المرشحين من حبس الكوفية، وبقي مدة في استراحة بين أهله وشعر بتحسن طفيف في صحته وحاول أن يعاود نشاطه بأن يساعد ابنه الذي يدير الدكان وحده منذ غيابه عنه، إلا أنه لم يتمكن من مزاوله النشاط كعادته فقد ظلت تعاوده نوبات السعال ولم يعد في إمكانه الوقوف على رجليه بسبب الوهن الذي أصابه...

وفي المستشفى المدني الذي أدخل إليه سي محمد كان العنبر الكبير الذي شيد في الساحة الكبيرة خارج المباني القديمة لاستيعاب المرضى إلى جانب الجرحى القادمين من الميدان، لم تكن هناك عناية بالمرضى والجرحى إلى جانب قلة عدد الأطباء وعدم وجود الأدوية وغياب لوازم التخدير وأربطة الكسور والحروق، وكان التذمر بادياً على وجوه الأطباء والمرضى من الراهبات، كان كل طاقم المستشفى من الإيطاليين إلى جانب بعض المواطنين الذين امتهنوا حرفة التمريض، وكان الجميع يشكون من التعب بسبب كثرة المرضى والجرحى ونقص

الأسرة مما يجعل بعض المرضى ينامون على أرضية العنبر الذي اقتلع زجاج نوافذه من إثر الهزات التي تحدثها الغارات الجوية . كان لا يسمع سوى أنين النزلاء التعساء يتردد في جوانب ذلك العنبر الفسيح، وفي ذلك الجو المشحون بالتوتر كان سي محمد يسعل ويئن ولا يجد الدواء الذي يريحه، وحين ألح في طلب الدواء قالت له الراهبة العجوز التي عاصرت هذا المستشفى منذ إنشائه قبل سنوات :

- صلي حتى يشفيك الله، كلنا نصلي من أجل المرضى
والمساكين ...

- أعرف معنى الصلاة جيداً لكن أريد دواء، نعم دواء فقط..
- ليس لدينا أدوية الآن، كل الأدوية نقلت إلى مستشفى الميدان،
ألا ترى أننا في حالة حرب، الميدان ابتلع كل شيء ..
- إذن سأخلي لكم هذا السرير ليشغله أحد هؤلاء المرضى
المعذبين ..

- وماذا ستفعل في البيت ؟

- سأصلي كما قلت لي وأنتظر نهاية الحرب لأحصل على
الدواء ..

- وأنا أيضاً سأصلي من أجلك يا بني ..

وعاد سي محمد إلى مسكنه على عربة (كارو) يجرها
حصان أحمر هزيل استأجرها ابنه من محطة الفندق البلادي؛ إذ
لم تكن هناك سيارات إسعاف بذلك المستشفى الوحيد، وفي ذلك
(الحلاق) الذي يحيط به النخيل يجلس سي محمد على سريره
ويظل يتطلع من نافذة (البرّاقة) إلى العراجين التي تتوء
بحملها من البلح الأصفر والتي تحط عليها الطيور ويستمع إلى
أغاني (العلم) التي تصدر عن السقائين وهم يقومون بسقاية
الخضروات كل صباح، ويتذكر أيام الصبا ويتحسر عليها عندما
تعود به الذاكرة إلى ما كان يتمتع به من صحة أيام الشباب،
وتمر بخاطره أغنية (علم) طالما سمع الناس يتغنون بها كلما
داهمتهم مصائب الدنيا وضاق بهم الحال « عليكن إن ضاق
الحال، اطرن عزيز ياتيكن فرج »، ويسرح مع الخيال حتى
تفاجئه نوبات السعال التي تفسد عليه اللحظات التي عاشها مع
الذكريات، فيرتفع صوته منادياً :

- يا حليلة، يا حليلة ...

وتحضر زوجته مسرعة وتقدم له فنجان الحلبة الممزوجة
بزيت الزيتون :

- خد كاشيك من هالحلبة اتهون عليك هالدااء ..

- مليت من الحلبة المرة ما دارت لي شي، يقول ذلك ..

ثم ينزل على طلب زوجته التي يرى الحنان في عينيها
ويأخذ ملعقة كبيرة من الحلبة ويضع رأسه على الوسادة يحاول
النوم ولكن بدون فائدة، وهكذا يظل أسيراً لمرضه المزمن ينام
قليلاً ويصحو كلما عاودته نوبة سعال يشعر بها تمزق أحشاءه،
وكان كلما استيقظ مد بصره إلى الناحية المقابلة لسريره حيث
يوجد المعطف المعلق في مسمار دقّه هو بعد عودته من السجن
ويتأمل الأضرار النحاسية التي غلفها الصدأ ويتحسر على عدم
قدرته على تغيير تلك الأضرار وصبغة المعطف ليبدو كأنه
معطف مدني، هكذا كان نظره معلقاً بمعطف النقيب ..

وفي إحدى أمسيات الخريف كانت زوجته تساعده على
تناول (الشربة) التي أعدتها له واسترعى اهتمامها أنه كان
يأكل بينهم تلك الأمسية وهو ينظر إليها بارتياح كأنه طفل
يحتضن أمه بعينيه، وشعرت بعطف عليه وهو يبتسم لها بين
لحظة وأخرى، كان يبتسم لأول مرة منذ أن أصبح طريحاً
للفراس، وانتهى من الأكل وطلب جرعة ماء دلقها في جوفه
وقال: الحمد لله، ثم استند على جناح السرير وأخذ يحدق في

المعطف وفجأة داهمته نوبة قوية من السعال الحاد اهتز لها جسمه الواهن وكاد يسقط من السرير لولا أن أمسكت به زوجته التي هوى على صدرها، وعندما رفعت رأسه صدرت عنه حشجة وانقطعت أنفاسه فأدركت أنه أسلم الروح، وأمسكت به برفق فمددته على السرير وغطته بالبطانية وأرادت أن تصرخ لكن الصوت احتبس في حلقها، إذ كانت العبرات قد أخذت تهز جسمها النحيل .

obeikandi.com

التحويلات

كانت الحرب العالمية الثانية قد انتهت جولاتها في بلادنا منذ فترة قصيرة، وكان قد تمّ ترحيل عساكر المستعمرات الذين جاءوا من كل قارة من قارات العالم، وكانوا خليطاً من الأعراق والأجناس المختلفة وقد وحدث بينهم عمليات السرقة حيث كانوا ينهبون مستودعات الإنجليز و يبيعون التبغ والسكر والشاي وكل ما تصل إليه أيديهم في السوق السوداء، ثم يسكرون ويعربدون ويشتكون مع المواطنين في عراق كلما اختلفوا في عقد صفقة معهم، ورحيل هؤلاء العساكر تنفست المدينة الصعداء وبدأت جموع المواطنين تعود إليها بعد هجرة فرضت عليها مدة هذه الحرب التي شوهدت المدن في بلادنا وجعلت من صحرائنا مقابر لعنادها الذي استهلكته المعارك الطاحنة، كانت بعض العائلات قد وجدت بيوتها سالمة رغم ما أصابها من تصدع، وكانت أسعد حالاً من عائلات أخرى وجدت بيوتها انقاضاً وأصبحت في حاجة إلى المأوى، ولم تجد بداً من البحث عن مساكن تستأجرها، ومن بين هذه العائلات الأخيرة

عائلة (سي عبدالسميع) التي فقدت عائلها زمن الحرب واضطر ابنها الأكبر إلى العمل في معسكرات الإنجليز لإعالتها وتوفير أسباب المعيشة لها طيلة سنوات الهجرة، ثم الالتحاق بالميناء البحري بعد العودة، حيث أُتيحت له فرصة عمل في ورشة الصيانة، وبعد بحث في الحي القديم الذي كانوا يسكنونه قبل الحرب وجدت (أم حامد) بيتاً صغيراً تملكه عجوز تدعى (غزالة)، كان هذا البيت ضيقاً ليس به سوى حجرتين صغيرتين ومطبخ ومرحاض لا يكاد يتسع لمن يدخل إليه، وتمّ الاتفاق على الإيجار الشهري، وكان قدره ستين قرشاً، وفي ذلك البيت الصغير شعرت عائلة (عبدالسميع) بالراحة والدفء بين أربعة جدران بعد المعاناة في سكنى أكواخ الخشب والصفوح خلال سنوات الحرب الصعبة.

وما كاد ينتهي الشهر الأول حتى سمعت (أم حامد) طرقات على باب البيت، كان الوقت مازال مبكراً وعندما فتحت الباب وجدت أمامها العمّة (غزالة) تلك العجوز ذات الوجه المتجدد الذي يعلوه شعر كثيف مصبوغ بالحناء التي يبدو لونها أحمر لامعاً تتدلى خصلاته على (جردها) الأبيض الناصع، ونظرت (أم حامد) إلى تلك العجوز في استغراب ثم دعتهما

إلى الدخول، غير أن العجوز رفضت الدخول بحجة أنها في عجلة من أمرها وقالت :

- ما جانبي إلا زيادة الكرى الرخيص ..

- ما هو كنت راضية بيه في الأول ؟

- لا يا خيه ما عاد نرضى إلا بسبعين قرش ..

- هذا موش حق اتزيدي علينا الكرى من أول شهر ..

- هذا هو الحاضر، كان عجبكم وإلا دوروا حوش آخر ..

قالت العمّة غزالة هذه العبارة وذهبت دون أن تعير كلام أم حامد أي اهتمام، وعندما حضر حامد من العمل أخبرته والدته بما حصل بينها وبين صاحبة البيت التي تطالب بزيادة الإيجار، وبعد تفكير عميق وافق حامد على الزيادة المطلوبة وهي عشرة قروش تفادياً لمشاكل البحث عن مسكن آخر، وهكذا ظفرت غزالة بمبتغاها، وظننت أم حامد أنها ارتاحت من هذه المشكلة، غير أنه لم يمر الشهر الثاني حتى فوجئت أم حامد بالعمّة غزالة تطرق باب البيت للمرة الثانية، وتكرر مرة أخرى طلب زيادة الإيجار بحجة أن جميع المؤجرين رفعوا قيمة الإيجار وأنها تطالب ثمانين قرشاً فقط، واستاءت أم حامد من

تلك العجوز الجشعة واشتبكت معها في مشادة كلامية :

- عيب عليك يا خالتي غزالة ليش هالعمل ما عندكش حق.

- وين تعرفوا العيب يا اكلاب تبو تاكلو حق الناس.

- ما نحسابكش خائبة هكي، يا بتي.

- كني خائبة سيئو حوشي.

- طيح اسعدك وسعد حوشك يا جالطة.

- طيح سعدك أنت يا قردة.

وبهذه العبارة أنهت العمدة غزالة المشادة وذهبت تجر رجليها وسط البيوت التي أطلت من وراء أبوابها بعض النساء، وفي تلك اللحظة برزت عجوز عمياء من البيت المقابل، كانت على ما يبدو تسترق السمع من خلف الباب إلى ما دار بين المرأتين وقالت بصوت أجش :

- عادت ريمه لعادتها القديمة، هذي غزالة يا طالباتها،

ورغم أن أم حامد عرفت ما تقصده العجوز العمياء إلا انها لم تعر كلامها اهتماماً وأغلقت الباب بقوة حتى تتأثرت من جنبه شظايا من الجير الأبيض بفعل الاهتزاز الذي ارتعدت

لصوته فرائص العجوز العمياء فأسرعت بإقفال باب بيتها وهي تتمتع بعبارات لم تكن واضحة للسامع.

وما كاد حامد يعود من العمل ويجلس على (الحصير) وهو يمد رجليه في إعياء محاولاً التقاط أنفاسه حيث عمل وقتاً إضافياً ذلك اليوم، حتى بادرت والدته بإخياره بكل ما دار بينها وبين صاحبة البيت، فتملكه الغضب وأخرج من جيبه علبة (الغريان)، وجذب منها لفافة أشعلها وأخذ ينفث دخانها وحانت منه النفاثة إلى جدران البيت القديمة التي أحدثت بها مياه الأمطار سيولاً حمراء بلون الطين المطروح على السقوف، وظل يتأمل هذه الخطوط التي تتحدر من أعلى الجدران حتى أرضية البيت المتشقق بلاطها كان كأنه يراها لأول مرة وأخذ يفكر فيما إذا كان هذا البيت الضيق بجدرانه المتصدعة يستحق زيادة في الإيجار، وهل يرضخ لطلب تلك العجوز المزعجة؟ ومن يضمن له أنها لن تعود في الشهر التالي لطلب زيادة أخرى؟ في هذه الحالة لن يجدوا راحة معها وهي تكرر عملية الابتزاز، واستغرق في التفكير حتى جاءت والدته تذكره بموعد العشاء وتحضر له صحناً لم يكد يرفع غطاءه حتى رآه مليئاً (بالطرشي) المعد من القرعة الحمراء ولم يرد بدأ من الأكل

من الطعام الذي أصبح غذاءً شبه دائم تلجأ إليه والدته في الأيام الأخيرة من كل شهر رغم كراهية أخته عائشة وأخيه فرج الصغير لذلك الطعام، وشرب كوب الشاي ودخل حجرة النوم واستلقى على السرير الحديدي القديم الذي أحدث صريراً مزعجاً، وظل يدخن لفافة إثر أخرى حتى داهمه النعاس فأطفأ مصباح (القاز) وأغمض عينيه وراح في نوم عميق .

في اليوم التالي قال لوالدته وهو يشرب قهوة الصباح :

- دوري لنا حوش آخر معاش نبي نقعد في حوش غزالة!

ومرت أيام قليلة وعثرت أم حامد على حجرة للإيجار لدى عجوز تدعى الحاجة (حليلة) وُصِفَت لأم حامد بأنها امرأة طيبة وقنوعة وأنها حسنة المعاملة مع جميع الجيران، وما إن سمعت أم حامد شهادات الجارات في هذه العجوز حتى أسرع إليها واتفقت معها على استئجار الحجرة بمبلغ خمسين قرشاً في الشهر، وهكذا انتقلت عائلة (سي عبدالمسيح) إلى محطة أخرى حطت فيها رحالها .

ورحبت الحاجة حليلة بأم حامد وأبنائها الذين أعجبتهم الحجرة الكبيرة التي تحوي في أحد أركانها (سدة) خشبية قديمة مزخرفة بألوان فاقعة وغير متجانسة وتحتها خزانة مليئة

بالعناكب، وكانت هذه الخزائنة تستعمل لتخزين الشحم والقديد في
مواسم الشتاء إلى جانب استعمالها كحمام أو مطهرة كما كانوا
يسمون الحمام، كانت الحاجة حليلة امرأة بدينة وضعيفة النظر،
وظلت الشهور تمر وتوثقت العلاقة الطيبة بين أم حامد والحاجة
حليلة التي اطمأنوا إلى جوارها حتى أصبحت كأنها قريبة لهم
لفرط حنانها وحبها عليهم، شيء واحد ظل يعكر صفو الجيرة،
ذلك الشيء هو عادة الحاجة حليلة التي كانت دائمة الجلوس
أمام حجرتها المقابلة لهم والسؤال عن خرج وأين ذاهب وعن
دخل وماذا أحضر معه، كما أنها كانت لا تغفل عن عد الأيام
بالساعات لمعرفة متى ينتهي الشهر ومتى يحين موعد صرف
أجور العمال، وكانت هذه العادة التي لا تطاق تزعج أم حامد
التي أصبحت تستاء من تصرفات الحاجة، ولم يلبث حامد أن
تبرم هو الآخر من أسئلة الحاجة المتكررة التي تمطره بها كلما
رأته داخلاً أو خارجاً، وافق مع والدته على البحث عن مسكن
آخر دون إعلام الحاجة برغبتهم في ترك بيتها حتى لا يثير
اهتمامها ويدفعها إلى التساؤلات، وخلال البحث عن مسكن
التقى حامد بجارهم القديم المعروف باسم مفتاح (البقال) الذي
علم منه رغبته في البحث عن مسكن للإيجار فأرشده إلى إحدى
قربياته التي تملك بيتاً للإيجار، وقامت أم حامد بالاتصال

بصاحبة البيت التي كانت تدعى حواء، وهي امرأة طويلة
بيضاء البشرة ذات ملامح دقيقة، وكان يبدو عليها الإعياء وهي
تحدث أم حامد بأنها امرأة مطلقة ولها ابنتان صغيرتان وأنها
اقتطعت جزءاً من البيت الذي ورثته عن والدها وخصصته
للإيجار لمواجهة متطلبات المعيشة، كان البيت صغيراً وكانت
جدرانه بيضاء نظيفة وأما الحجرة فهي مستطيلة من النوع
المعروف في البيوت القديمة منذ أجيال بعيدة، وكان إلى جانب
هذه الحجرة يوجد مطبخ ومرحاض صغير به رف ووضِع عليه
(جردل) مما يدل على استعماله كحمام للاغتسال، وتمّ الاتفاق
على تأجير هذا البيت بإيجار قدره مائة وخمسون قرشاً في
الشهر كانت الإيجارات قد بدأت ترتفع بالمدينة في تلك الفترة .

ودون أن يبلغا الحاجة حليلة برغبتها في الانتقال إلى
بيت آخر، أخذوا في جمع الأمتعة استعداداً للرحيل، ولم تلبث
الحاجة حليلة أن شعرت بما يجري دون علمها فأخذت تبكي
وتتسأل عن السبب الذي دعاها لترك بيتها، ولم تجبها أم
حامد سوى بعبارة مقتضبة :

– ماء وملح وفرغ يا حنا، الله يسامحك.

وقالت حليلة وهي تجفف دموعها بقطعة منشفة قديمة :

- هذا بختك يا حليلة، بختك اشوي .

وهكذا حطت عائلة (سي عبدالسميع) رحالها في المحطة الثالثة وقد استقبلتها السيدة جواء بإعداد وجبة الغداء، كانت تلك الوجبة مكونة من الكسكسي واللحم الذي ظهرت رائحته مع البخار المتصاعد من (القصعة) بعد رفع الغطاء عنها، وتلى الغداء شرب الشاي الأخضر المعطر برائحة النعناع، وتبادل الأحاديث عن حسن الجوار وعن المعاشرة الطيبة بين الجيران التي تجعلهم يتبادلون الود فيما بينهم ويصبحون كأنهم عائلة واحدة ..

وسارت الحياة على خير ما يرام وازدادت روابط الود والألفة بين أم حامد وحواء حتى أصبحت علاقتهما تثير إعجاب الجيران الذين تعودوا على مراقبة حركات بعضهم .

كان يوم عيد الأضحى المبارك من أجمل أيام الحياة، حيث تمكن حامد من شراء كبش لأول مرة بعد وفاة والده الذي كان لا يغفل عن شراء الأضحية كل سنة، وتم ذبح الكبش السمين في جو من الفرح والابتهاج، وتضاعفت رائحة الشواء

تملاً جو البيت، وأكلت عائلة سي عبدالسميع وجبة لم تـرَ مثيلاً لها منذ زمن بعيد .

كان الوقت ظهراً عندما فوجئت أم حامد بجارتها حواء تدخل عليها وهي في حالة غضب شديد ودون أن تتقوه بكلمة تقدمت حواء مسرعة إلى حيث كان يقف حامد وبيده مطرقة صغيرة وقامت بنزع المسامير التي تثبت جلد الضحية على الجدار ورمت بالجلد على الأرض وهي تقول :

- هذا خراب في الحوش، هذه اللي قدرتو عليها ..

كان حامد قد قام بتثبيت جلد الضحية على الجدار الفاصل بين البيتين بعد غسله وتملّحه ليجعل منه (نطعاً) يجلسون عليه كعادة الناس الذين يعدون الجلود بعد غسلها وتمشيط صوفها لطرحها في البيوت، ولم تطق حواء صوت المطرقة التي تدق جدار البيت فأقبلت على جيرانها في حالة غضب غير متوقعة، لقد انزعجت من الخراب الذي حل ببيتها على يد الجيران فجاءت لتؤنّبهم وخرجت مسرعة دون أن تلتفت إلى أم حامد التي وقفت مشدوهة، وتبادل حامد النظرات مع والدته وهما في حالة استغراب من فعلة حواء التي كانت أول من دخل

عليهما في صباح ذلك اليوم وهي تحمل طبقاً مليئاً (بالكعك)
والحلوى وتهنئهما بالعيد ..

وفي صباح اليوم التالي من أيام العيد كان الجيران
لايزالون يتبادلون التهاني ويزور بعضهم بعضاً، عندما خرج
حامد يطوف بين الشوارع والأزقة بحثاً عن سكن آخر، ورغم
ما تكبده من عناء صباح ذلك اليوم الذي ينعم فيه الناس بالراحة
ويستمتعون بفرحة العيد فإنه لم يعثر على مسكن للإيجار في
الأحياء الشعبية، لم يجد بيتاً واحداً كتبت على بابه عبارة
(منزل للإيجار)، كما كانت العادة المتبعة عندما كانت البيوت
متوفرة، ولم يجد حتى حجرة في بيت من البيوت التي تشترك
عدة عائلات في سكنها قبل تلك الحرب التي خلفت أزمة سكن
بسبب الدمار الذي لحق بالمدينة من جراء الغارات الجوية
العنيفة، كانت جميع البيوت مزدحمة بالمواطنين الذين فقدوا
بيوتهم وقد وجدوا الراحة لدى بعض العائلات التي وفرت لهم
المأوى في بيوتها بتأجير بعض الحجرات لهم حتى يمكنهم
الاستقرار بعد المعاناة التي فرضتها عليهم ظروف قاسية ..

كان (سي مفتاح البقال) أشد الجيران انزعاجاً مما حدث لعائلة (سي عبدالسميع) فهو الذي كان سبباً في تعريفهم بقريبتهم حواء، ولهذا قرر بينه وبين نفسه أن يساعد حامداً في العثور على مسكن للإيجار وفعلاً بدأ يطرق الأبواب بعصاته ويسأل في كل مكان ويستفسر ممن يعرفهم ولم يترك حتى الحي الغربي الذي يعد من الأحياء الجديدة ولم يوفق في مسعاه، إذ كانت بيوت ذلك الحي التي تركتها العائلات الإيطالية المهاجرة شاغرة غير أنها مرتفعة الإيجار، بسبب جشع ملاكها الذين حددوا الإيجارات كما يريدون دون حسيب أو رقيب، وأنسى للفقراء من أمثال حامد أن تكون لهم القدرة على مثل هذه الإيجارات الباهظة، وهكذا عاد سي مفتاح وهو يجر أذيال الخيبة، وما كاد يرى حامداً عائداً من عمله عشية ذلك اليوم حتى ناداه ليخبره بنتيجة البحث :

- يا حامد دورت على مسكن لكن ما القيتش !
- ما القيت حتى حوش صغير والا دار وحده ؟
- في الشوارع الغربية فيه حيشان فاضية لكن إيجارها غالي.
- لا والله أنا ما نقدر على الكرا الغالي .

- عندك حق يا أوليدي إيفرج الله ..

- هو صاحب الفرج، كثر خيرك يا سي مفتاح ..

قال ذلك حامد ومضى في طريقه بينما ظل سي مفتاح واقفاً ينظر إليه في قلق، ويكيل الشتائم لجواء، وما كاد حامد يقترب من بيت حواء حتى سمع أصوات نسائية كثيرة يختلط بعضها ببعض وتحدث ضجيجاً يملأ جو البيت، وكان صوت حواء يعلو فوق ذلك الضجيج وهي تصيح :

- حولو من حوشي، حولو خطوني .

كان البيت مفتوحاً على مصراعيه وكانت الجارات اللاتي حضرن لفض النزاع بين أم حامد وحواء يملأن البيت وهن يحاولن تهدئة بائرة حواء دون جدوى .

- ليش هالعمل في الجيران ؟

- والله أم حامد ما رينا منها سوء .

- انعلي الشيطان وريحي جيرانك .

- خودي بخاطر جاريتك يا حنا .

-- وذهبت كل هذه التوسلات أذراج الرياح، كانت حواء متعنتة وكانت في حالة هياج وهي تردد نون- انقطّاع- .

- حولو من حوشي مش بالسيف الكرا .

وفي تلك اللحظات تذكرت أم حامد ما قالته لها إحدى الجارات في الأيام الأولى لسكناها مع حواء :

- ردي بالك من حواء راهي جالطة، صاحبة طهقة .

وعندما التفتت وراءها رأت تلك الجارة التي حذرتها من سوء معاملة حواء للجيران ولم تصدق كلامها في غمرة الفرحة بترحيب حواء بها في الأيام الأولى لجيرتها، كان سبب تلك الضجة الكبرى التي أحدثتها حواء كما علم حامد من والدته أن حواء وجدت بعض الأطفال يلعبون داخل البيت مع أخته الصغيرة وهم ينفخون المزامير ويفجرون البالونات الملونة، فثارت نائرتها وقامت بطرد الأطفال وأطلقت لصوتها العنان وظلت تردد عبارات السخط والاستهجان حتى أسمعت الجارات اللاتي حضرن مسرعات لتهدئتها دون جدوى .



وخرج حامد من البيت وقد استولى عليه القلق وشعر برأسه يكاد ينفجر من الغضب ويزيد في توتر أعصابه، وأخذ طريقه في الشارع دون وجهة محددة وظل يشعر في تلك

اللحظة بأن العالم على سعته قد ضاق به وأطبق على خناقه، ودون أن يدري انعطف شمالاً ودخل الشارع الضيق الذي كان يوجد به بيت أهله الذي ولد وترعرع فيه، والذي أحالته الغارات الجوية الإنجليزية إلى أنقاض، ثم وجد نفسه يقف بين ركام الحجارة والطين، هذا الخراب الذي كان بيتاً ضم أهله عشرات السنين، وأخذ يلتفت يميناً وشمالاً وينظر إلى بقية الجدران التي لازالت واقفة ولا زالت تحتفظ بلون الطلاء الأصفر الذي طُليت به حجرات البيت قبل الحرب بزمن بعيد، ورأى في إحدى الزوايا المنهارة المسمار الحديدي الذي كانت والدته تعلق به مصباح الضوء الثقليدي (الفتيلة) والذي كانت تملأه (بالكبروسين) كل عشية وتمسح زجاجته لإزالة ما علق بها من دخان في الليلة الماضية، وشدّ انتباهه الشباك الحديدي المكوّن من مربعات متساوية والذي كان مثبتاً بالإطار الخشب-ي المحيط بنافذة الحجرة الصغيرة التي كانت تجلس فيها جدته العجوز وهي تقضي يومها وليلها ممسكة بالمسبحة تعدّ حباتها وتتمتم بالأوراد التي حفظتها عن والدها، وخيل إليه أن رائحة (البخور) لاتزال تعبق بين ركام البيت المنهار.

جلس حامد على كومة أحجار مستغرقاً في تفكير عميق

وبقي على هذه الحالة لمدة طويلة حتى شعر كأنه غاب عن الوعي عندما سمع أصوات الأطفال ذوي الأرجل الحافية التي كساها غبار الشارع المترب وهم يتصايحون في تلك الأمسية ويقذفون بكرة (التتس) فيما بينهم، وعند ذلك قام من مكانه وأخذ طريقه نحو منطقة الصابري حيث يقيم خاله في حي الأكوخ القديم .



المشوار الطويل

لم يهدأ بال شريف منذ أن أنفق آخر قرش من مدخراته التي جمعها من كده أيام الحرب ومخاطرها، لقد نفذت المدخرات وقلّت فرص العمل بعد أن وضعت تلك الحرب أوزارها وحلّت أيام السلم المرتقبة، كانت الأمور لم تستقر بعد، وفي تلك الحالة التي سببت له الانزعاج والتي ليس في مقدوره الإفلات منها ظل حائراً لا يعرف كيف يتصرف حيالها ولا يدري كيف ستكون نتائجها، ثمّة أناس لهم أراضٍ يؤجرونها للحرثة، وثمّة أناس لهم بيوت يؤجرونها لمن ليس لهم سكن، أمّا هو فلم يرث عن والده سوى هذا البيت الصغير المتداعي الذي يحشر فيه أولاده، إنه لا يدري لماذا عاش والده فقيراً ومات فقيراً، ربما لأن والده كان يعمل حصاداً (رباعاً) ممن لا يعملون إلا في موسم الحصاد وينامون بقية السنة بعد أن يذخروا جزءاً من حصتهم في المحصول، وخلال استغراقه في التفكير استعرض شريف حياته البائسة وتراعت له أيام الحرب التي لم تكن فرص العمل متوفرة فيها

بصورة دائمة بسبب الكر والفر وتعاقب الجيوش المتحاربة على المدينة، إلا أنه رغم ذلك عمل في عدة جهات وفي أعمال مختلفة ولفترات محدودة ومنقطعة أتاحت له توفير لقمة العيش الذي كان نادراً وباهظ الثمن، فقد عمل مع الطليان في بناء المخابئ وعمل مع الألمان في إحدى القواعد الجوية وكان آخر عمل له مع الإنجليز حيث ألفت به المقادير في أحد المعسكرات ليعمل مع وحدة عسكرية متخصصة في تفجير الألغام وكانت مهمتها عندما عمل معها هي تجميع القنابل التي تركها الطليان بعد انسحابهم النهائي، كان يقوم مع بقية العمال تحت إشراف الإنجليز بتجميع القنابل من مخازن الذخيرة ونقلها إلى مكانين محددين، الأول في منطقة (بوعطني)، على بعد ميل من محطة السكة الحديدية العاطلة منذ بداية الحرب، حيث يتم تفجير القنابل الصغيرة، أما الثاني فهو ميناء المدينة حيث يتم شحن القنابل الكبيرة في سيارة لوري تتجه بها إلى ذلك الميناء ثم تشحن في عبارة من ناقلات الجنود تعبر بها أمواج البحر بضعة أميال، حيث يتم إلقاءها في المياه العميقة، كانت مهمة شاقة ومحفوفة بالمخاطر يقوم بها العمال بين البر والبحر، ومع كل ذلك ظل شريف راضياً بعمله وحسبه توفير الخبز للعائلة، إلا أن

انتهاء العمل في ذلك المشروع الحربي وانتقال الوحدة الإنجليزية إلى مكان آخر كان سبباً في تسريح العمال للاستغناء عن خدماتهم، لقد قطع مشواراً طويلاً منذ أن بدأ العمل ومرت به ظروف صعبة غلبه بعضها وتغلب على بعضها، وها هو الآن يواجه ظرفاً عصياً ويفكر كيف يمكنه الاهتداء إلى حل ينقذ عائلته من شبح الجوع الذي بدأ يخيم على البيت، وطال به التفكير وطافت بذهنه فكرة استبعادها أول مرة، فهي لا تعدو أن تكون حلاً مؤقتاً تنفجر به الأزمة لعدة أيام ثم تعود الحالة إلى ما كانت عليه إذا لم يحصل على عمل إضافة إلى أنها ستترك أثراً سيئاً في نفوس الزوجة والأولاد لأنها تحرمهم من أشياء لا يمكن الاستغناء عنها لأن التفريط فيها يترك فراغاً في البيت، إلا أنه تحت ضغط الحاجة أذعن لهذه الفكرة واضطراً إلى تنفيذها فقام بجمع بعض أثاث البيت وسط دهشة العائلة التي فاجأتها تلك المبادرة وأحضر عربة جاره فحمل عليها ما جمعه من الأثاث ومضى بها يدفعها في طريقه إلى (سوق التركة) الذي يقع عند المدخل الغربي لحي الصابري، كان ذلك السوق الشعبي مكوناً من مجموعة من الأكشاك الخشبية القديمة المبعثرة في ذلك الفضاء الذي يحيط به النخيل الباسق، وكانت تلك

الأكشاك تَغص بمخلفات الحرب العالمية الثانية التي تشمل الأبواب والشبابيك المحطمة أضلاعها والمنزوعة من ركام المنشآت والبيوت والدكاكين المهدامة، إلى جانب فضلات الجنود المتعددي الأجناس من بدل صيفية وشتوية وأحذية مختلفة الأحجام والألوان، وهناك في ساحة السوق عرض شريف ما جلبه من آثاء وعهد به إلى العم جبران ذلك الشيخ الذي اشتهر بالمناداة على ما يسمونه (روبافيكيا) التي تعني بالإيطالية الأشياء القديمة، قام ذلك الدلال بالمناداة وتداول سماسرة السوق على الآثاء المعروض ولم ينل قبولهم فقد فحصوه وقيموه ولم يجدوا فيه ما يمكن أن يجلب لهم ربحاً، وكان مكوّناً من بعض (الحصران) والبطاطين القديمة وفراش من الصوف وبعض أدوات الطبخ المختلفة من بينها (قدر نحاسي) ما زالت عالقة به آثار (البازين)، وتطوع أحد السماسرة أخيراً وقَدّم عرضاً بمبلغ أربعة جنيهات مصرية العملة التي أحضرتها الإدارة العسكرية البريطانية لتداولها في شرق البلاد وهي عكس (الليرة) التي أصدرتها لتداولها في غرب البلاد لغرض في نفسها، ووافق شريف على هذه الصفقة وقبل المبلغ المعروض عليه وأخذ يستعجل قبض ثمن ذلك الآثاء المكس بساحة السوق والذي لا يرغب

في العودة به إلى البيت، إلا أن السمسار الذي عرض المبلغ المالي تراجع عن عملية الشراء بحجة أنه ليس لديه مكان لتخزين ذلك الآثاث، وكاد شريف الذي شعر بالغضب أن يشتبك مع السمسار الذي سبب له الإحباط إلا أن بعض الحاضرين حالوا بينهما، وطاف العم جبران بأصحاب الأكشاك محاولاً إقناعهم بشراء ذلك الآثاث، فهو يعرف أن هناك فقراء يضطرون إلى بيع آثاثهم وهناك فقراء يضطرون إلى شرائه، إلا أن أصحاب الأكشاك لم يُبدوا رغبة في الشراء، منهم من قال هذا آثاث مستهلك لا يصلح للاستعمال، ومنهم من قال ساخراً دع صاحب الآثاث يطوف به في الفندق ربما يجد هناك (كياًلأ أعور) ينال الآثاث إعجابه، ولما لم يجد العم جبران من يرغب في الشراء وباء مجهوده بالفشل عاد أدراجه ليجد شريفاً جالساً على العربة مهموماً، كان النهار قد انتصف ولم يحضر أحد للنظر في الآثاث حتى من باب الفضول .



كان هناك رجل يطوف السوق يبدو كأنه يبحث عن شيء معين وقد لفت انتباهه ما تعرض له شريف من سخرية

أصحاب الأكشاك الذين استهانوا به، فقرر أن يشتري ذلك الأثاث لحاجة أضمرها في نفسه، فتقدّم من شريف ليعرض عليه مبلغ ثلاثة جنيهاً هي كل ما كان بحوزته لعله يقبلها ثمناً لذلك الأثاث المكوّم أمامه، وشعر شريف بالراحة رغم أنه كان يطمع في أكثر من ذلك، أخيراً قدر له أن يجد من ينقذه من ذلك المأزق وتهلّل وجهه وهو يرد بالقبول على ذلك العرض المفاجئ من الرجل الذي لا يعرفه والذي تبدو على وجهه الأسمر آثار الطيبة عندما دفع إليه النقود التي يملكها ثمناً للأثاث الذي رفض شراؤه سماسرة السوق، وقال العم جبران الذي كان يراقب الموقف وقد سرّه ما فعله المشتري :

– بارك الله فيك يا سي العربي، عملت طيب .

وعند ذلك عرف شريف اسم الرجل الذي سارع إلى مساعدته دون معرفة سابقة وهمّ أن يغادر ذلك المكان، كان يستعجل الذهاب إلى سوق احداش لشراء احتياجات البيت من المواد الغذائية، إلا أن سي العربي استبقاه حتى يساعده في نقل الأثاث إلى بيته القريب من السوق، وشحنا هما الاثنان الأثاث على العربة وغادرا تلك الساحة وهما يدفعان العربة

أمامهما، وما إن ابتعدا عن ذلك السوق الذي يشغل حيزاً كبيراً بين النخيل حتى قام سي العربي بإيقاف العربة وقال لشريف :

- اسمع يا بوي خود ادبيشاتك وروّح بها لهلك، أنا ما عنديش حاجة بيها .

وقال شريف الذي فوجئ بذلك الموقف غير المتوقع :

- اماله انرد لك فلوسك كذك ما تبيش الدبش !؟

- لا اترد لي الفلوس لا تقبلها منك انا امسامحك فيها، هي حلال عليك كيف حليب امك .

وقام شريف الذي أذهله الموقف حتى دمعت عيناه بمعانقة سي العربي وهو يقول :

- الله يقدرنا على رد اكفاك ..

obeikandi.com

المحطة

لم يكن سكان شارع سيدي الشريف يعلمون سر تلك الضجة التي أحدثها المتسولون وهم يتصايحون ويكفون أمام المقبرة التي تضم رفات ذلك الولي، ثم ينطلقون في موكب يضم الرجال والنساء والأطفال، بينهم المكفوف والأعرج وغيرهما من ذوي العاهات الأخرى، أخذوا جميعاً يشقون طريقهم نحو الجنوب في جو ذلك اليوم المشحون بالحرارة، الأمر الذي أثار اهتمام سكان ذلك الشارع المشهور الذين استغربوا هذا الحدث غير المألوف لديهم، وكان وجه الغرابة في ذلك الموكب أنه لم يكن يتحرك في أول النهار، ولم يكن يحدث أمام أعينهم في هذه المرة وفي تلك القيلولة، لأن أولئك المتسولين لا يتحركون عادة إلا في ساعات المساء الأولى للتوجه إلى المآتم لحضور مآدب الصدقات، وهكذا يبدو أن الأمر قد اختلف، مما استدعى خروج الأطفال من البيوت وجعل النساء تطل من وراء الأبواب والنوافذ لمشاهدة ما يجري في الشارع، لقد أصيب السكان بالدهشة وهم يتابعون مسيرة ذلك الموكب الغريب الذي ملأ الجو ضجيجاً ولم يتبادر إلى أذهانهم أن السبب في انطلاقة هؤلاء المتسولين كان خبراً هزّ أعماقهم ودفعهم إلى التحرك في

وقت لم يتعودوا عليه، فقد بلغهم نبأ وفاة شخص عزيز عليهم، أصابهم خبر وفاته بصدمة قاسية أذهلتهم وهم ينتظرون حضوره في ذلك الصباح كعادته، وسار ذلك الموكب حتى وصل إلى زقاق ضيق متفرع من شارع الزوبيك وتوقف أمام بيت صغير كانت تتبعث منه أصوات العويل .



انتهى ماتم جواد الذي لم يدم سوى يوم واحد، إذ لم يكن هناك من يتردد عليه فلا زحام ولا سهرة كما يحدث عادةً في المآتم الأخرى بالمدينة التي تشهد زحاماً يدم ثلاثة أيام، فلم يحضر ذلك المآتم سوى أولئك المتسولون الذين عادوا إلى مواصلة تجمعهم أمام ساحة المقبرة، حيث يجلسون على امتداد جدارها المتداعي في انتظار هبات المحسنين وترقب حضور الزائرات لضريح سيدي لشريف في كل يوم جمعة، حيث يقدمن لهم الصدقات والنذور كان انتظارهم يتركز في صبيحة الوفاة على ترقب حضور جواد ذلك الشاب الذي تعود على المجيء إليهم وإعطائهم ما يتيسر من النقود التي يوفرها من مصروفه الأسبوعي، كان جواد شاباً في مقتبل العمر وكغيره من أبناء

جيله الذين تلقوا نصيباً من التعليم الابتدائي والذين شغفوا لممارسة الهوايات المختلفة كلعبة الكرة والملاكمة وغيرهما من أنواع الرياضة الأخرى التي بدأت تهتم بها المؤسسات الأهلية، اهتم جواد بهواية أخرى مختلفة عن هوايات أترابه، فقد عشق هواية جمع صور الممثلين والممثلات الذين أتاح له عمله بدار سينما الاستقلال فرصة الحصول على تلك الصور من ملصقات الإعلانات التي تحوي المناظر الملونة للأفلام السينمائية وهي كثيرة، كان ينتقي منها صور أجمل ممثلات السينما في هوليوود ويزين بها مربوعته التي بدت كأنها مكتب إعلانات، وكانت أقرب الممثلات إلى نفسه (أفا غاردنير) التي يطلقون عليها اسم (فينوس) إلهة الجمال، و(جين راسل) ذات الصدر الأكثر بروزاً بين الممثلات والتي سميت بـ(الصدر الأعظم)، إضافة إلى (ايسثير وليامز) التي سميت هي أيضاً بـ(السابحة الفاتنة) بعد ظهورها بالمايوه في فيلم (السابحات الفاتنات) الذي أدت فيه حركات راقصة وسط المياه العميقة بقوامها الرشيق، وغيرهن من الممثلات الشقراوات اللاتي أبهرن شباب العالم في كل مكان وصلت إليه أفلام هوليوود المصورة بالألوان الطبيعية والسينما سكوب التي جعلت

المتفرجين يتزاحمون على شبابيك التذاكر في دور السينما
التابعة لها وفي غيرها من الدور الأخرى ..



رغم اهتمام جواد بهواية جمع الصور التي شغلته عن
أشياء كثيرة فقد كان الشيء الذي لم يغفل عنه ولم ينسه هو ذلك
الموعد الأسبوعي الذي لم يتخلف عنه ولو مرة، فقد كان ملتزماً
به منذ سنوات حيث تعود على زيارة المتسولين في المحطة
التي توارثوا التواجد فيها أمام تلك المقبرة القديمة، لقد ربطته
علاقة قوية بأولئك الناس منذ كان صغيراً وكانت والدته تكلفه
بنقل بعض الأطعمة إليهم، لقد ظل مواظباً على زيارتهم،
وأحياناً يحضر لهم الخبز الطازج للإفطار، حتى أصبح محبوباً
لديهم وظلوا يترقبون حضوره ويفرحون بإطلالته ويدعون له
بكل ما يخطر على بالهم من الأدعية الماثورة، هكذا كان جواد
يحضر إليهم وكان يتكرر ذلك اللقاء المرتقب في صباح كل يوم
جمعة بلا انقطاع، حتى كانت الجمعة الأخيرة التي لم يحضر
فيها، فقد ظلوا ينتظرونه بشوق كعادتهم ومرّت الساعات وارتفع
قرص الشمس في وسط السماء ولم يظهر ما يدل على قدومه
من عطفة الشارع البحري الذي كان يطل منه وقد ارتسمت

على محياه تلك الابتسامة التي تطفح بالحب والمودة، لم يحضر جواد الذي كانوا ينتظرونه في تلك اللحظات وإنما ظل عليهم صديقه سليم لا يحمل ما اعتادوا عليه من جواد بل كان يحمل لهم الخبر الذي هزَّ أعماقهم وأحدث ضجة بينهم، خبر وفاة جواد الذي جلسوا يترقبون حضوره منذ الصباح الباكر، وفي هذا اليوم بالذات يوم الجمعة، وارتفع عويل العجائز والشيوخ والأطفال، كانت هذه الفاجعة هي الحادثة المؤثرة التي أصابت قلوب أولئك المساكين، والتي أثارت فضول سكان شارع سيدي الشريف عندما استغربوا مرور ذلك الموكب الحزين .



بعد انقطاع عن الذهاب إلى دار السينما دام أكثر من شهر عقب وفاة جواد رأى صديقه سليم الذي كان متأثراً لفقدانه أن يذهب إلى تلك الدار ليرى ما حدث فيها خلال غيابه عنها بعد وفاة صديقه، وهكذا أخذ طريقه في ساعات المساء الأولى مثل عادته مخترقاً سوق الجريد وشارع بوغوله ومنتجهاً نحو ميدان الفندق البلدي حيث توجد دار سيئما الاستقلال التي اعتاد التردد عليها للقاء صديقه جواد الذي كان يعمل بها، وأمام تلك الدار وقف سليم يجيل النظر في جميع زوايا الصالة التي طالما دخل

إليها، ورغم أنه لم يطرأ عليها أي تغيير إلا أنه شعر بأن جوها بدأ موحشاً وأنها لم تكن كما كانت حينما كان يتصدر مدخلها صديقه الوحيد جواد، أما في ذلك المساء فقد كان يتصدر مكان صديقه رجل غريب يقوم بالعمل الذي كان يؤديه جواد وهو استقبال المتفرجين وتمزيق تذاكر الدخول كما جرت العادة، إضافة إلى إرشاد من يحضرون بعد بداية العرض وإطفاء الأنوار إلى المقاعد المحجوزة لهم، لقد اختلف الأمر عما كان عليه، وهذا سر ما شعر به من وحشة عند بداية وقفته يجيل النظر في تلك الصالة التي بدت له غريبة، وظل يتأمل صامتاً ما يجري أمام الدار التي احتشد على رصيفها باعة الزريعة والكاكوية والحمص ينادون على مبيعاتهم كالعادة، بينما بدأ شباك التذاكر عمله المعتاد وأخذ المتفرجون يتوافدون عليه، فقد اقترب موعد عرض الفيلم الذي تتصدره صورة النجمة السينمائية الجميلة (أنيتا اكبيرج)، ولم يرَ فائدة في وقوفه وسط زحام الناس أمام ذلك المبنى الكبير المسمى (سينما الاستقلال) والذي شعر في تلك اللحظات أن صلته به قد انقطعت، ولم تعد هناك علاقة تشده إليه بعد رحيل جواد .

لقد أخذت آلام التأثر تزداد إيغالاً في نفسه وشعر بالحنين

إلى مقهى هلال الذي تميز بالهدوء دون سائر مقاهي الفندق البلدي، ووجد نفسه يخطو نحو ذلك المقهى، ثم يجلس بين الأقواس على نفس الطاولة التي كان يجلس إليها مع صديقه جواد وفي نفس المكان الذي اختاره بعيداً عن بقية الطاولات المتلاصقة، وطلب من النادل أن يحضر له زجاجة (بورتيلو) ذلك المشروب اللذيذ الذي كان يتناوله مع صديقه الودود في الأيام التي جمعتها معاً وأبت الآن إلا أن تفرق بينهما، لقد كان يرتاح إلى هذا المقهى في السابق لكن في هذه المرة شعر بأنه غريب عنه، فها هو يجلس وحيداً مستغرقاً في التفكير الذي لا يقطعه إلا مرور الحافلات التي تتطلق من محطة الفندق إلى جنوب المدينة والتي تملأ الجو ضجيجاً بين لحظة وأخرى ويعكر صفو من كان في مثل حالته يفكر في صمت، ويذكر سليم ما إذا كان هذا الضجيج قد سبق أن عكر صفو جلساته الماضية مع جواد أو ربما يكون موجوداً من قبل ولكن لم ينتبه إليه بسبب استغراقه في الحديث والمزاح مع صديقه الذي كان يستمر لساعات طويلة، وارتاح لأن ذلك الضجيج لم يكن متواصلاً وأخذ يفكر في دفعه إلى المجيء إلى ذلك المقهى في تلك الأمسية ويجلس في المكان الذي طالما شاركه فيه صديقه،

وتذكر لقاءاته مع جواد التي استمرت لسنوات عديدة فأخذ يستعرض مراحل حياته منذ عرفه صبياً حتى صار شاباً مثله، ووقزت إلى ذهنه علاقته بأولئك المتسولين الذين كان يشعر بمعاناتهم ويتوجع لهمومهم، ثم ظل يتواصل معهم ويقدم لهم العون بقدر ما كان في استطاعته منذ تعرف إليهم، وعند ذلك تنهد سليم بعمق وقد أحس بمقدار ما كان يعمر قلب جواد من حب لأولئك المساكين الذين تقطعت بهم سبل الحياة، وغمره شعور عميق بأن عليه هو بالذات أن يواصل ما انقطع بوفاة صديقه وأن يقوم بنفس المهمة التي كان يؤديها جواد كل يوم جمعة دون كلل أو ملل، وهكذا قرر أن يواصل ما انقطع بوفاة صديقه جواد، وهو زيارة ساحة تلك المقبرة القديمة التي توارثها المتسولون جيلاً عن جيل واتخذوها محطة للانتظار الدائم، وظل يزداد عدد اللاتئذين بها مع مرور الزمن وشهدت توسعاً في أعقاب الحرب العالمية الثانية .



العرس

لم يكن في مقدور أحد من جيران شارع الحشر أن يعرف ما إذا كان الحاج ارخيص جاداً في كلامه عندما أعلن عن عزمه على إقامة فرح لابنه ناجي أم أن ما قاله لم يكن سوى دعابة من دعاباته المثيرة للضحك التي اشتهر بها وتعودوا على سماعها منه، وآخرها هذه المرة التي لم تلقَ استجابة منهم رغم أنه أكد لهم أنه سيقوم عرساً لم تشهد المدينة مثيلاً له، الأمر الذي أوقعهم في حيرة من أمرهم، إذ كيف يمكن للحاج ارخيص أن يقيم فرحاً وهم يعلمون أن حالته المادية المتدنية لا تسمح له بالدخول في مشروع زواج يتطلب مصاريف باهظة ليس في مقدوره توفيرها من دخله المحدود الذي يتحصل عليه من بيع الخضروات (والمصير) و(اللبن)، في ذلك الدكان الصغير القابع في مدخل (قوس بيّله)، وفي الوقت الذي لم يكن هناك من يجرؤ على مجرد التفكير في زواج ابنه وما أكثر الآباء الذين يتمنون زواج أولادهم ولا يجدون إلى ذلك سبيلاً، فقد كانت إقامة الأفراح

مقتصرة على حالتين، أولاهما حالة رجل تعود على الحراثة وصادف حرثه عام صابة فآثر محصولاً وفيراً من (الغلة) درّ عليه مالاً كثيراً مكنه من تزويج من يشاء من أولاده، والثانية حالة رجل تحصل على حصة في ميراث أرض من مخلفات أجداده فباعها بمبلغ من المال وفر له ما يلزم لإقامة فرح لابنه الذي بلغ سن الزواج، لقد كانت هاتان الوسيلتان هما مصدر تمويل مشاريع الزواج المكلف، وكانت المدينة تعاني من كساد اقتصادي في ظل الإدارة العسكرية البريطانية بسبب عدم توفر فرص العمل، حيث لا يحصل العامل على فرصة إلا بشق الأنفس ولا يتقاضى إلا أجراً ضئيلاً توفره المشاريع المؤقتة التي لا تتعدى صيانة بعض العمارات التي تركتها العائلات الإيطالية عند رحيلها وتم تخصيصها لإقامة عائلات الضباط الإنجليز وأتباعهم من بلدان المستعمرات الذين يعملون في خدمات دوائهم، هكذا كانت طبيعة العمل الذي حددت له الإدارة البريطانية أجوراً بواقع عشرة قروش في اليوم، الأمر الذي دعا أحد أعضاء المجلس البلدي المعين إلى الاستفسار عن السر في تحديدها بهذا الشكل المجحف، وردّ عليه العميد الإنجليزي بإجابة صاغها في شكل سؤال مآكر : « أليس من الأفضل تشغيل عشرين عاملاً بأجر قدره عشرة قروش بدلاً

من تشغيل عشرة عمال بأجر قدره عشرون قرشاً؟»، وذهل
السائل من غرابة الإجابة التي رد بها العميد الإنجليزي ولم
يكن يستوقع أن تكون بهذا الشكل المموج الذي أكد له دهاء
الإنجليز الذي كان يسمع عنه قبل رؤيته لهم وجهاً لوجه .



في تلك الظروف القاسية كان من الطبيعي أن لا يتطلع
أحد إلى أبعد من الحصول على القوت اليومي لعائلته، وكان
أمراً معتاداً أن يلاحظ الجيران كل ما يطرأ على حياة
بعضهم، ومن هؤلاء الحاج ارخيص الذي بدأ عليه تطور
مفاجئ غيّر نمط حياته منذ أن أصبحوا يرونه يشرف على
الاستعدادات التي تجري لإقامة الفرح الذي سبق أن بشرهم
به واعتبروه مجرد دعابة مسلية من دعاباته، فقد كان في تلك
الأيام يستقبل عربات الكارو التي تصل تباعاً وهي محملة
بالأثاث والحصران والشياه والمواد الغذائية وغير ذلك من
لوازم الفرح، ظلوا يشاهدون ما يجري أمام أعينهم وهم في
حالة استغراب شديد، ظلت مصاحبة لهم حتى فاجأهم الحاج
ارخيص بالدعوة لحضور عقد قران ابنه ناجي، وهكذا التقى

الأقارب والجيران في المقهى التجاري بميدان البلدية تلبية لدعوته وتهنئته بهذه المناسبة السعيدة، كان المقهى قد امتلأ على سعته بالحاضرين الذين أرففوا أسماعهم لما كان يتلوه المأذون من شروط العقد والذي عرفوا منه أن الحاج أرخيص قد تمكن من مصاهرة عائلة ميسورة الحال وأنه أذعن لشروط تلك العائلة التي فرضت عليه تقديم خمس أوقيات من الذهب معجلاً، الأمر الذي زاد في حيرة الجيران وجعلهم يتهامون فيما بينهم ويتبادلون الغمزات وهم يتناولون المرطبات والشاي والحلوى ويشربون قازوزة (زمزم) ذات الطعم اللذيذ، بعد عقد القران مباشرة بدأت ليالي العرس التي أعدت لها العممة هنية أم العريس، فتولت دعوة زوجات الأقارب والجيران لحضور تلك المناسبة العزيزة على قلبها وأحضرت الدرباكه (حفصة) التي أحييت ليالي الفرح الثلاثة في أول ظهور لها في الأعراس، وقد كان أداؤها للأغاني رائعاً لاقى إعجاب النساء خاصة عندما صدحت بالأغاني المستوحاة من أيام الحرب مثل (يا جديدة يا دار اللوح، ياللي فيك الغالي مجروح) و(في اللثامة ما جانا نوم، برغوت وطيّار بحوم) وغيرهما من الأغاني القديمة التي أثارت كوامن الذكريات

وجعلت النساء يصفقن بحرارة وهن يرقصن ويطلقن
الزغاريد ويرددن الأغاني مع تلك الدرباكه الجديدة التي غنت
وأطربت الجميع وجعلت ليالي ذلك الفرحة من أجمل الليالي
التي حرمت منها المدينة طيلة أيام الحرب الموحشة ..



في الوقت الذي كانت تتبعث فيه الأغاني الرائعة من
بيت الحاج ارخيص الذي تغمره أضواء المصابيح الكبيرة،
كانت السهرات لا تنقطع في بيت العم عقيلة القريب ممن بيت
آل ارخيص والذي كان يلتقي فيه الجيران للهدرزة
واستعراض مجريات الأمور اليومية وتفقد أحوال الناس وما
يطرأ على حياتهم من تغيير، كانت هذه اهتماماتهم التي
استولت على تفكيرهم وهيمنت على عقولهم، وفي إحدى
السهرات التي تزامنت مع ليالي العرس الذي أضفى على
الشارع جواً من السعادة والحبور تمَّ استعراض كل ما طرأ
على حياة الحاج ارخيص منذ أن بدأ يقوم بالاستعدادات
لتوفير لوازم العرس الذي سبق أن بشرهم به مروراً بحفلة
عقد القران وانتهاءً بهذه الليالي المفرحة التي استغرق

التحضير لها قرابة الشهر، وأخذ كل منهم يؤول سر المبالغ المالية التي أنفقها الحاج ارخيص على مستلزمات الزواج والتي لم يستطيع أحد معرفة مصدرها، وبينما كانوا مستغرقين في التأويلات فاجأهم العم عقيلة بقوله :

- الحكاية ما فيهاش سر خفي، عمركم ما اسمعتوا بشركة اليهودي ناحوم؟!

وعند ذلك نذكر الجميع تلك الشركة التي يمتلكها الثري اليهودي بيو ناحوم والتي تقوم بتصدير مخلفات الحرب العالمية الثانية إلى إيطاليا كما عُرِف عنها، كما أن ناجي ابن الحاج ارخيص كان يعمل بها في وظيفة مشرف على تسلّم حطام الأسلحة والآليات والمعدات العسكرية التي كانت منتشرة في صحراء بلادنا، وكان بعض المواطنين يجمعون ذلك الحطام ويبيعونه إلى تلك الشركة بثمن بخس لا يتناسب مع ما كانوا يتعرضون له من مخاطر كبيرة بسبب كثرة انفجارات الألغام المزروعة في تراب بلادنا التي طالما أدت إلى إلحاق الأضرار الفادحة بهم، كما أدت في الوقت نفسه إلى تحسين دخل بعض العاملين بتلك الشركة ومن بينهم ناجي ابن الحاج ارخيص الذي

استطاع أن يجمع مبلغاً من المال لا يعلم أحد مقداره ولا يعرف أحد كيف تحصل عليه، وهذا ما دفع الحاج ارخيص إلى الإقدام على زواج ابنه وإقامة ذلك العرس الذي قلَّ نظيره في تلك الأيام التي شحت فيها دخول الناس، ومن أقوال العم عقيلة التي فاجأ بها الجيران عرف الجميع السر الذي كان خافياً عنهم غير أنهم لم يدر بخلداهم أن العم عقيلة كان قد عمل فترة قصيرة بشركة ناحوم في بداية تأسيسها ثم تركها عندما حامت حولها الشبهات وترددت عنها الأقوال التي أكدت أن سفينة (الكارغو) التي كانت تتقل حطام الآليات والمعدات العسكرية التي قيل إن بينها بعض الأسلحة الخفيفة التي لازالت صالحة للاستعمال، لم تكن وجهتها المرافئ الإيطالية كما كان يشاع بين الناس وإنما كانت وجهتها مكان لم يخطر على البال، فقد كانت تمخر عباب البحر الأبيض المتوسط لتحت رحالها في ميناء حيفا بفلسطين، حيث تتولى تسلّم حمولتها إحدى الوكالات اليهودية المتخصصة في تهريب الأسلحة .

obeikandi.com

القارب المهجور

على طول الشاطئ الممتد من سور الميناء غرباً إلى ناحية اللثامة شرقاً حيث تمتد الصخور بموازاة ذلك الشاطئ توجد فتحة بين الصخور تكوّن شبه خليج صغير مقابل للمنارة البحرية تندفع منه المياه إلى حافة الشاطئ دون عائق عندما يرتفع المد، وكان هذا الخليج الصغير يستخدمه الصيادون كمرافاً لقواربهم، كما يستخدمه سكان شارع البحر كحوص للسباحة لعمق المياه به وقد عُرف لديهم باسم (البوغاز)، وهو الاسم الذي أطلقه عليه الأجداد الذين كانوا يسمعون بمضيق البوسفور وبحر الدردنيل ويطلقون هذا الاسم على ذلك المضيق المشهور، وكان الآباء يحذرون الصغار دائماً من السباحة فيه عند ارتفاع الرياح لأنهم كانوا يخشون الأنواء المفاجئة، ويعرفون أن البحر في مثل هذه الحالة كان يبتلع كل عام شخصاً، لهذا ينصحون الصغار بقولهم :

- ردوا بالكم راهو البحر ياخذ في كل عام ارقبه .

كان كل من يسبح في ذلك البوغاز عند أقل ارتفاع للمد

يشعر بالتيارات تجذبه إلى قاع البحر حتى يكاد يغوص في الأعماق ولا يخرج من تلك الدوامة إلا بشق الأنفس إذا قُدِّر له أن ينجو من الغرق، ولذلك كان السباحون خاصة الصغار منهم يمتنعون عن السباحة فيه عندما يشعرون بهبوب الرياح ولو كانت خفيفة، كانوا يجتنبون الخطر حسب وصية الآباء ويقومون بالسباحة في المياه الأقل عمقاً التي تقع خلف الصخور والتي يجدون فيها ما يشبه الآبار كالبيئر المعروف باسم (بئر الكلبة) وغيره من الآبار الأخرى، وعندما يكون البحر هادئاً جميلاً في أيام الصيف المشمسة كان السباحون من هواة الصيد البحري ينتشرون على امتداد الصخور وهم يلقون (السنانير) المغلفة بالطعوم ويقذفون بفتاة الخبز في البحر انتظاراً لأسراب السمك التي لا تلبث أن تأتي في إفواج متتالية فيحصلون منها على ما يكفي لإعداد وجبة (حرايمي) شهية .



كان من بين القوارب الثلاثة التي ترسو في ذلك البوغاز، قارب صغير مطلي باللون الأزرق وبه خطوط حمراء وبيضاء تلتف حوله في خط مستقيم، وكان يلفت النظر دائماً لعناية صاحبه به إذ كان يبدو نظيفاً لامعاً، كما عُرف عن صاحبه

الذي اشتهر بحب النظافة في كل شيء وهو الصياد مسعود المعروف بلقب (الكوال) لبراعته في لعب (الكارطه)، كما برع في الصيد والسباحة، حيث كان يغوص تحت الماء فترة طويلة يقطع فيها مسافة وهو يتحرك في رشاقة، كان معتدل القامة دقيق الملامح حليق الوجه دائماً، لقد تعود على الحضور مبكراً إلى ذلك المرفأ الصغير وهو يحمل (الخرج) الذي يحتفظ فيه بأدوات الصيد الخفيفة و (الطعوم) وبعض الخبز والجبن والتبغ كما يحمل قارورة المياه العذبة .

كان مسعود قد تعود على خلع سرواله على الشاطئ ووضع على كتفه ثم يدخل البحر مشياً على قدميه حتى يصل القارب وقد ابتل قميصه الأبيض الشفاف الذي يصل حد الركبتين والتصق بجسمه وكشف عن أردافه حتى يبدو كأنه عار مما يثير ضحك الصبيان المجتمعين على الشاطئ، فيسمع القهقهة ويلتفت إليهم ليمطرحهم بوابل من الشتائم والكلمات البذيئة وعند ذلك يهربون خوفاً منه، كان لا يعبأ بما يصدر عنه من سباب في حق آبائهم وأمهاتهم، وما يكاد يتعد الصبيان حتى يقوم بفك رباط القارب والمجدافين ويقفز إلى داخله بخفة ثم ينطلق في داخل البحر ويراه السباحون وهو يجذب بمحاذاة

الصخور مولياً وجهه إلى المشرق وهو يتأمل أعماق البحر كأنه يريد تحديد موقع الصيد الذي يرمي فيه شبكته، لم يكن يعول كثيراً على وفرة الصيد لأنه لا يعتمد عليه في معيشته فهو يملك مطعماً قريباً من سوق الحوت يؤجره لجاره سالم قلاية ويدر عليه دخلاً مناسباً، كان عشقه للصيد مجرد هواية رافقته منذ صباه، الشيء الذي كان يهتم به كثيراً ولا يحب العودة بدونه هو سمك (الساورو) الذي كان دائماً شغله الشاغل، فإن لم يحصل على هذا النوع من السمك في رحلته اليومية اضطر إلى استبدال بعض مما يحصل عليه من السمك الآخر بالنوع المرغوب فيه (الساورو) حتى يمكنه إرضاء جارتة (ليزا) التي كانت تفضل هذا السمك على غيره وتوصيه بإحضاره لها، فهو منذ وفاة زوجته لا يأكل إلا من يدي هذه اليهودية التي تقطن بيتاً مقابلاً لبيته ولا يفصله عنه سوى الشارع الضيق الذي لا يتعدى عرضه أربعة أمتار، والتي تربطه بها علاقة الجوار منذ عدة سنوات تجعله لا يرفض لها طلباً، كان هذا هو ظاهر العلاقة أما ما عدا ذلك فلا أحد من الجيران يعرف شيئاً عنها، وإن كان جاره المقرب إليه سالم قلاية يشك في براءة هذه العلاقة ومع ذلك لا يتجرأ على مخاطبته عنها ولا عن سؤاله عن سرها، وكان من أسعد الأوقات لدى مسعود أن يرى (ليزا)

تجلس في سقيفة البيت وهي تعد (طاجين) الحوت ثم تتادي أحد الصبيان من الشارع وتكافه بنقل ذلك الإناء المصنوع من الفخار والمخصص للطهي بالفرن إلى (كوشة الشعالية) المعروفة بشارع البحر، وتتفرغ بعد ذلك إلى تنظيف المكان من قشور السمك وهي تردد أغنية قديمة يقول مطلعها (من اللي فوق الوادي جانا، كيف انديرو يا مطرانا) وهي أغنية لمطرب يهودي ميث يدعى (بنحاس) كان يغنيها في أفراح اليهود وحتى في أفراح المسلمين كما كان اليهود يسمون المواطنين، كانت هذه الأغنية معروفة لدى الأهالي قبل الغزو الإيطالي لبلادنا، كان مسعود ينصت إلى ليزا وهو يتأمل قوامها الرشيق وملامحها الجميلة وشعرها الأشقر الذي تتدلى خصائله على جبهتها العريضة التي بها أثر لجرح صغير يظهر تحت (المحرمة) الحمراء التي تغطي رأسها والمعقودة على خدها مثل ما تفعل بقية اليهوديات اللواتي يرتدين الرداء المحلي المصنوع من الحرير، كانت جميلة بلا أصباغ ومساحيق، وإذا كان هذا ما يطرب مسعود كان ما يقلقه انتظار قدوم زوجها (رحمين خلفون) الذي كان يعمل في خمارة يملكها أحد اليهود في سوق (الحارة) ويرتاذا عمال الميناء كل مساء، كان رحمين يعود متأخراً في الليل وأغلب الأوقات يكون مخموراً

فيسمعه مسعود يدندن بأغنية تونسية معروفة مطلعها (يا اللي راجلها مغيار امعيشه مرة ليل نهار) فيعلق بقوله: (ما من غيره فيك يا تيس)، وما إن يدخل رحمين البيت حتى تتشب بينه وبين ليزا مشادة كلامية يكيلان فيها السباب لبعضهما ..

- طيح مزالك يا رحمين ولد المشوم خلفون ..

- طيح سعدك يا ليزا بنت الكلب إفرايم ..

ويظل مسعود ساهراً ينتظر انتهاء تلك المشادة المعتادة .



كان كل ما يضايق مسعود ويفسد عليه متعته النهارية وهو جالس في سقيفة بيته يتحاور مع ليزا هو قدوم شقيقتها (الياهو)، ذلك اليهودي ذو الوجه الأحمر الذي يشبه رئة الشاة التي تنتشر فيها البقع السوداء، والذي يعمل مدرساً بالمدرسة التلمودية كما قالت له ليزا ذات مرة وهي تتحدث عن سيرته، كان ذلك الوجه البغيض يثير اشمزازه ولم يكن يحتمل مجرد النظر إليه لأنه ينم عن حقد دفين كما يبدو من نظرات عينيه القلقة وهو يردد كلمات غريبة لم يسبق له أن سمع بها ولا يعرف لها معنى مثل: (أورشليم - تل افيف - هاغانا)،

ويطول الحديث الذي لا يفقه معناه ويشعر بالقلق من كلام الياهو، إذ كان بقدر ما يرتاح إلى كلام ليزا ذات الوجه الصبوح يكره مجرد النظر إلى وجه الياهو البغيض وسماع عباراته المبهمة، ولهذا يسرع بإقفال بيته والتوجه إلى (قهوة الشط) ليلتقي بالرواد الدائمين لذلك المقهى والذين كان أغلبهم من سكان شارع البحر والشوارع المتفرعة منه الذين يعملون بالميناء، منهم مرشدو السفن والبحارة الذين يعملون على ظهور السفن التجارية وعمال ورشة الصيانة بالميناء .

هناك في ذلك المقهى يجد مسعود (الكوال) ما يرفه به عن نفسه في مزاولة لعبته المفضلة (الكارطه) التي تستمر ساعات طويلة ينسى خلالها ما أزعجه وجعله يغادر بيته وما يكاد يأخذ مكانه في زاوية المقهى الشرقية حتى يسرع إليه بعض الرواد الذين يتسابقون إليه للفوز باللعب معه ومقابلته على الطاولة لمعرفةهم بأن من يسعده الحظ باللعب تحت إرشاده يطمئن إلى التغلب على خصمه، كانت براعة الكوال في لعب الورق وعد (الصائليات) التي تسقط والتي لاتزال في أيدي خصومه مثار إعجاب الجميع، لأنه لم يُغلب إلا نادراً ويكون ذلك بسبب فشل من يقابله كشريك له ولم يفهم معنى إشاراته

وعند ذلك يغضب ويمطر شريكه بأفزع العبارات، (يا غشيم، يا فقوم، لا تكوز، لا تعطي إسكنبيل يا مفشك)، كان على من يقابله أن يستعد في حال فشله لتلقي الشتائم التي تنهال عليه بلا عدد، وبينما يكون بعض الرواد منهمكين في اللعب وقد علت أصواتهم، يكون البعض الآخر قد تحلقوا حول الرايس منصور الذي يروي لهم ذكرياته عن أيام خدمته على ظهور المراكب الشراعية ومن ضمنها (القائق) الذي كان يملكه أشهر الرياس في وقته المدعو البكوش والذي كان يستخدم لنقل البضائع إلى ميناء (الزويتينة) الذي يعد هو المنفذ البحري لمدينة إجدابيا أيام الهدنة بين المجاهدين والطلليان، كان الرايس منصور يسرح بخياله وهو يستعيد ذكرياته وسط أعمدة الدخان التي تتصاعد من فمه وأنفه وهو يجذب أنفاساً عميقة من (الرقيلة) ويحدثهم عن أصعب رحلة واجهتهم عندما هاج البحر ذات مرة وكان الوقت أمسية خريفية وكان تغير الطقس المفاجئ غير متوقع فعند إبحارهم كان البحر ساكناً وكانوا أقرب ما يكون إلى المرفأ المقصود عندما داهمتهم الرياح الشرقية العاتية وظلت تدفع بالمركب وسط أمواج عالية، ويتهد سي منصور ويجذب أنفاساً من التبغ المحترق وهو يسوي وضع الجمرات فوقه (بالماشا) ثم يسترسل في سرد حكايته، إن البحر ليس دائماً

مأموناً كما يعرف ذلك كل من أبحر فيه سنين طويلة وصارع أمواجه التي طالما أودت بحياة رياس فحول لم تشفع لهم خبرتهم بالنجاة منه، لقد بذل الرايس (البكوش) قصارى جهده للسيطرة على اتجاه المركب المحمل بالبضائع دون جدوى، لم يفلح في مقاومة الرياح وأنى له ذلك، لقد عمل كل ما أمكنه عمله حسب خبرته الطويلة وتجاربه السابقة حتى أدركه الإعياء وأسلم الأمر لله وترك المركب لمصيره وهو يردد: يا خلاص الواحسين، يا مجيب دعوة المضطرين لقد بقينا في حالة خوف شديد كنا نشعر بالموت يرفرف فوق رؤوسنا وظلنا على تلك الحالة حتى أدركنا الله برحمته فتغير اتجاه الرياح بعد الغروب بساعات واستبشرنا خيراً بهذا التغير المفاجئ، واستطاع الرايس البكوش تغيير دفة المركب نحو الجنوب وسط الظلام الدامس، وغمرتنا الفرحة عندما شعرنا بالمركب تصطدم بالرمال بعد أن تجاوزت المياه العميقة وتبادلنا التهاني بالسلامة وعندما بدأت خيوط النور تملأ الأفق اكتشفنا أن المكان الذي رست فيه المركب يبعد كثيراً عن المرفأ الذي كنا نحط فيه الرحال، وعند هذا الحد توقف الرايس منصور عن الحديث فقد فاجأهم صوت المذياع الموضوع على رف كبير معلق في جدار المقهى، كانت دقات الساعة تعلن الثامنة مساءً موعد نشرة الأخبار التي

يترقبها المواطنون في جميع المقاهي لندرة أجهزة الراديو في بيوتهم وترك الجميع اللعب وساد بينهم الصمت وأخذوا يصيخون السمع إلى الأخبار الآتية من وراء البحار .

" هاجمت العصابات الصهيونية المسلحة المدن والقرى الفلسطينية وقتلت الكثير من النساء والأطفال والشيوخ، وقد عانت في الأرض فساداً و.. إلخ "

وانطلقت الأناشيد الحماسية وسط لحن موسيقى صاخبة (يا فلسطين جينالك) وعمت الضوضاء بين الحاضرين داخل المقهى وبين الذين كانوا يستمعون إلى الأخبار من خارجه وأخذ الجميع يتبادلون التساؤلات : كيف يمكن أن يحدث هذا؟ أين هم العرب؟ وقفز مسعود الكوال من مكانه ورمى بورق اللعب على بلاط المقهى وقال بصوت مرتفع:

- عطب الأيام ما فيش عرب يفرعوا لخوتهم ؟

وتتالت بعد ذلك أصوات الحاضرين منددة بجرائم اليهود البشعة .

- ما هو فيه ادول عرب نسمع بيها كنها ما تفرع ؟

- العرب اللي اتقولوا عليهم مالهم طاري لا حس ولا مس .

- حتى اليهود الدلالة يطمعوا في العرب عقاب الوقت !!

- هذا عار في جبين العرب !!؟

وظلت أحاديث وتساؤلات الحاضرين تملأ الجو ضجيجاً حتى حان موعد إقفال المقهى وتفرق الجميع وهم يلعنون عصابات اليهود المجرمة .

عندما حضر مسعود الكوال إلى المقهى في مساء اليوم التالي وجد الرواد كلهم متحلقين حول المدرس مختار سالم الذي كان يحضر كل مساء لمشاهدة مباريات اللعبة الشعبية المألوفة (الكارطه)، كان هواة لعب الورق كلهم قد تركوا هوايتهم ذلك المساء وحتى الذين كانوا يتحلقون حول الرايس منصور الذي يحدثهم عن البحر وأهواله قد تخلوا عنه لانشغالهم بحديث المدرس مختار الذي لم يسمعوا به من قبل، كانت العيون متعلقة بذلك المدرس الأشيب الذي أخذ يشرح لهم قضية فلسطين وأطماع اليهود في تكوين دولة عبرية وسط بلاد العرب بمعاونة الإنجليز المستعمرين القدماء، لقد شدّ ذلك الحديث أسماع الحاضرين وأشعرهم بمدى الخطر الذي يتهدد العرب في

مستقبلهم، وأخذ بعض الحاضرين يوجهون الأسئلة إلى المدرس مختار وهو يجيب عليها بطلاقة لسانه كأنه يشرح درساً في أحد الفصول المدرسية، وهنا خطر لمسعود الكوال ما كان يسمعه من اليهودي (الياهو الأبرص) الذي كان يحدث أخته بكلمات لم يفهم معناها فسأل المدرس

- يا أستاذ مختار انا سمعت كلام من اليهودي الياهو ما عرفتس معناه ؟

- شنو لكلام اللي اسمعته من اليهودي ؟

- كان يقول لأخته : ورشليم - تلافيف - هكانا - غريون..
وضحك الأستاذ مختار واعتدل في جلسته وهو يرى الحاضرين يترقبون الإجابة،

- معنى أورشليم هي القدس التي تحتل مكانة في قلوب المسلمين والتي يرغب اليهود في الاستيلاء عليها، أما نل أبيب فهي مقر العصابات اليهودية التي تتجمع في فلسطين لإنشاء دولة يهودية على أرضها، وأما (الهاغاناه) فهي أكبر عصابة يهودية تحاول إبادة العرب هناك، والكلمة الأخيرة (بن غريون) فهي اسم زعيم العصابة المجرم

الذي يقود الحملة لإيادة العرب كما سمعتم في نشرة الأخبار، هذا ما كان يعنيه ذلك اليهودي الذي يحرض اليهود على ترك البلاد والهجرة إلى فلسطين، ودوت المقهى بأصوات الحاضرين وهم يكيلون الشتائم لعصابات اليهود الإرهابية وأعوانها من الإنجليز، وقال مسعود الكوال بتأثر وانفعال قوي :

- لو كان عرفت معنى كلام الياهو راني عطبتها على خشمه .
وضحك الحاضرون وسط ذلك الجو المشحون بالحماس .



كانت عملية ترحيل العائلات اليهودية إلى فلسطين قد بدأت بمساعدة سلطات الإدارة العسكرية البريطانية المهيمنة على البلاد منذ احتلالها، وفي نفس الوقت قام المواطنون بتشكيل (لجنة مناصرة فلسطين)، وأخذوا يجمعون التبرعات باسم تلك اللجنة التي باشرت في تسجيل أسماء المواطنين المتطوعين للقتال إلى جانب أخوانهم أهل فلسطين .

في صباح أحد الأيام المشحونة بالتوتر والغليان شوهد مسعود الكوال وهو يسحب القارب الأزرق من ذلك المرفأ

الصغير ويحمله على عربة (كارو) حتى بيته ثم يضعه بجوار الجدار الذي يحد البيت مقابلاً للوسعاية الكبيرة التي يتخذها الصبيان ملعباً للكرة، ويتركه هناك، ثم يتوجه بعد ظهر ذلك اليوم إلى مقر لجنة مناصرة فلسطين في شارع البلدية وهو يحمل الصور الشمسية التي أعدها لأول مرة في حياته، وهناك يتم تسجيل اسمه ضمن المتطوعين ويعطى بطاقة تحمل شعار اللجنة وتتضمن اسمه وهويته وصورته الشخصية، ويعود بعد ذلك إلى بيته ليقوم بتحضير لوازم السفر مع صديقه سالم قلايا الذي سهر معه تلك الليلة حتى بدا النعاس يداهما فتركه ليأخذ قسطاً من النوم ويستيقظ مبكراً للذهاب إلى حيث سيتجمع المتطوعون أمام وكالة النقل والسفريات بمنطقة الفندق الجديد والتي ستتحرك منها سيارات النقل الكبيرة حاملة أولئك الرجال إلى ساحة المعركة.



مضت سنوات على رحيل مسعود الكوال، وانقطعت أخباره لم يعد أحد يعرف عنه شيئاً، حتى جاره وصديقه المقرب إليه سالم قلايا الذي كان هو الوحيد المطلع على علاقته بتلك اليهودية الجميلة كان حريصاً على إخفائها مراعاة لشعوره فلم

يخبر بها أحداً من الجيران تفادياً لأقاويل الفضوليين، حتى هو سالم نفسه لم يعد يعرف ما إذا كان الكوال حياً أو ميتاً وإن كان يتذكره باستمرار ولم تفارقه ذكرى ذلك الصباح الباكر عندما تسلّم منه مفتاح البيت وهو يتهاياً للرحيل، وأنى له أن ينسى صديقه وذكريات أيامه معه وهو يعبر كل يوم ذلك الشارع الذي جمعهما منذ كانا صغيرين وينظر إلى تلك الوسعاية الكبيرة حيث يقبع القارب بعيداً عن البحر منكفئاً وقد بدا طلاؤه الأزرق اللامع يبهت ويتآكل وتتطاير منه قشور الطلاء بفعل أشعة الشمس التي تصليه بحرارتها كلما توسطت قلب السماء .



obeikandi.com

حلاق امشيليا

كان (أبو زيد الزايط) الذي عرف في شارع (أبو غولة) بأنه من أشهر الحلاقين رجلاً طويل القامة غليظ الملامح كث الشوارب به حَوْل في عينه اليسرى، أما محل عمله فهو دكان صغير المساحة به مرآة كبيرة تتوسط إطاراً خشبياً من النوع القديم لا يخفي طلاؤه باللون الذهبي تشقق أضلعه، كان مثبتاً في الجدار المقابل للشارع وفي الجانب الأيمن منه إطار به صورة فارس يمتطي جواداً أبيض كانت مرسومة بألوان فاقعة ومكتوباً تحتها : فارس الفوارس أبو زيد الهلالي، أما في الجانب الآخر من المرآة فيوجد دولاب صغير له باب زجاجي مدهونة جوانبه باللون الأبيض وبداخله أدوات الحلاقة و(الحجامة)، وكان يتوسط الدكان كرسي كبير مصنوع من الخشب المحفور بالنقوش القديمة له مسندان ومبطن بقماش أحمر باهت بدت حشوته هابطة من أثر الجلوس، كما كانت توجد بعض الكراسي القديمة من النوع المعدة مقاعدها من حبال (الحلفاء)، كان أبو زيد مزهواً بهذا

الدكان الذي تركه له الأسطى (علي يوسف) الذي تعلّم على يديه مهنة الحلاقة، لقد كان هذا الدكان ملقياً لرجال الحي لاسيما كبار السن الذين يحلق لهم أبوزيد رؤوسهم ويجري لهم عملية (الحجامة) التي تعودوا عليها للتخلص من الدم الزائد الذي يسبب لهم الصداع كما يقولون، كان أبوزيد يبدأ في إعداد أداة الحجامة (المغائة)، وهي عبارة عن كوبين من الصفيح اللامع كل واحدة في حجم فنجان القهوة غير أنها ضيقة العنق وما يكاد يفرغ من حلاقة رأس الزبون كله أو نصفه الخلفي أحياناً حتى يقوم بتجريح عنقه بالموسى خلف الأذن اليمنى وخلف الأذن اليسرى ثم يشعل ورقة يعود تقاب يضعها داخل المغائة وهي ملتهبة ويثبتها فوق الجروح الأولى حتى تلتصق بها ويفعل نفس الطريقة مع الجروح الثانية، وهكذا تثبت الأدواتان فوق عنق الزبون ويدعمهما أبوزيد مدة دقيقتين أو أكثر حسب ما يرى ثم ينزعهما بعد أن تكونا قد امتصتا ما أمكنهما من دم ويمسح مكانهما بقطعة من القطن تبقى ملتصقة بالجروح فترة من الزمن، وهكذا تتم العملية ويشعر الزبون بالراحة ويقول لأبي زيد (الله يرحم من علمك يا الزابط) .

لقد عُرف أبوزيد بروحه المرحة وإجادته لرواية

(سيرة بني هلال) والحكايات الشعبية الطريفة الموروثة عن الأجداد فإنه لا ينسى في غمرة أحاديثه التي لا تنتهي أن يتحدث عن قرية (امشيليا) التي لا يترك فرصة تمر دون أن يذكر أيام صباه، حيث ولد وترعرع في تلك القرية الصغيرة حيث كان والده يملك بها (سانية) محاطة (بطابية) مبنية من الحجر والطين وبها أشجار من الزيتون واللوز والرمان، ولقد كان دائم الحديث عن هذه القرية حتى أطلق عليه شبان الحي لقب (حلاق امشيليا)، ولما كان أبوزيد من هواة الأحاديث عن التراث فقد وجد في جاره المدعو صابر الرايق صديقاً لا يمل الإنصات إليه إذ كان هو الآخر من هواة الأدب الشعبي، وهكذا توطدت علاقتهما وأصبحا لا يفترقان فما إن يفرغ أبوزيد من حلاقة زبون حتى يجلس أمام دكانه ويظل يتبادل الأحاديث مع جاره صابر الرايق ...



كان صابر الرايق صاحب المحل المقابل لدكان أبوزيد يعمل في صناعة (الحبال) و (المكناس)، وهو رجل في العقد السادس من العمر ضعيف البنية تبدو على وجهه آثار السنين التي تبرز في تجاعيد وجهه الكثيرة، وكان يجلب

(الليف) و عيدان (الجريد) اللذين يطرحان من النخيل عند تلقّـيـه، فيصنع منهما (المكناس)، كما كان يجلب نبات (الحلفاء) الذي ينقعه في الماء حتى يרטب ليصنع منه الحبال التي كانت أكثر رواجاً بسبب استعمالها في البيوت القديمة التي بها آبار مياهها قليلة الملوحة تستعمل في غسل أدوات الطبخ وغيرها .

كان سكان الحي قد تعودوا على رؤية صابر يجلس على حصير قديم أمام دكانه ويقوم بدق عيدان الحلفاء بمطرقة كبيرة من خشب (الزان) تسمى (المتجّته) يظل يدق بها حتى تنفتت عيدان الحلفاء وتستحيل إلى ألياف طرية يأخذ في فتلها بيديه المعروفتين حتى يصنع منها حبلاً متينة ذات مقاسات مختلفة منها ما يبلغ طوله عشرين (قامه) ومنها ما هو دون ذلك لاستعمالها حسب عمق الآبار .



كان أبوزيد كلما فرغ من حلاقة رأس أحد الزبائن يجلس مع جاره يتبادلان الأحاديث الطريفة والحكايات الشعبية ويعلقان على المارة رجالاً ونساء، فقد تعود أبوزيد الذي

لا تفارق شذقيه (المضغة) وصف النساء بعباراته المضحكة المعروفة لدى جيرانه، فكلما مرت امرأة أطلق عليها وصفاً فإن كانت طويلة قال: (هذه ناقه افواخر) وإن كانت قصيرة قال (هذه بترا)، أما إن كانت المارة امرأة بدينة قال (هذه زنبيل ..) كان لا يمل من إطلاق الأوصاف وهو يداعب شواربه الطويلة ويفتلها حتى يجعل جاره صابر لا يكف عن الضحك من تعليقاته وحركاته، المرة الوحيدة التي شعر فيها أبو زيد بالخجل من نفسه عندما مرت بهما امرأة سمراء طويلة فقال: (ريت يا صابر هالسمراء الطوالي)، فردت عليه قائلة (عيب عليك هذه قلة حياء)، واستغرق صابر في الضحك ثم قال له: (هالمره طحت في شوشانه يا ازويده،) .



كان أبو زيد قد حضر إلى دكانه متأخراً ذات صباح وقد بدت على وجهه علامات القلق التي لفتت نظر صديقه صابر الذي ارتاب في الأمر، وقبل أن يسأل صديقه عما ألقاه اندفع أبو زيد يحدثه عن زوجته سالمة التي طلقها اليوم لعدم ارتياحه لسلوكها، لأنها تمتهن حرفة (الدلالة) ولا تلتفت إلى متطلبات البيت فهي لا تقوم بغسل ثيابه إلا نادراً ولا تقوم بإعداد وجبات

الطعام في مواعيدها، كان كل همها أن تطرق على البيوت
لبيع الأقمشة للنساء وتعود متأخرة فلا تتمكن من عمل شيء
بسبب الإرهاق الناتج عن طوافها بالشوارع .

- كيف تبي انتدير تواء، تقعد بلا وليه ؟

- أنا وصيت رجعة الخبازة ودلنتي على مرا تسكن في
شارع حموش .

- صار لك مدة انتدور واتوصي ؟

- أيوه والله اجعلني أوليدك يا صابر ..

- خلاص كان والاتك هالوليه اللي اتقول عليها خودها ..



لم تمض ثلاثة أيام حتى تزوج أبوزيد بالمرأة المطلقة
التي وصفتها له الخبازة والتي اشترطت عليه أن يقيم معها في
الحجرة التي تستأجرها ويدفع إيجارها، كانت تدعى إمبركه وقد
بدت في بداية زواجها شديدة العناية به، فهي تعد له الطعام في
ميعاده وتقوم بغسل ملابسه وقد شعر بأنها قريبة منه لأنها كانت
تشاركه في السهر والحديث، فهي أيضاً من أصل قروي وقد

تتلذذت على العجائز اللواتي كن يجدن الحكايات عن عشاق وعاشقات عاشوا في الزمن الغابر، ولهذا ارتاح إلى حكاياتها عن (صوب خليل) وما فيه من أغان وألغاز، كان عيبتها الوحيد أنها تمارس حرفة (العرافة) فقد اكتشف ذات يوم أن جاراتها يطلقن عليها اسم (امباركه النقازة) وأن النساء يحضرن إليها كل عشية لنتظر لهن خفايا القدر، كانت امباركه تجلس وسط السيدات وقطع من العملات القديمة وكانت ترفع هذه والخرز الملون وقطع من العملات القديمة وكانت ترفع هذه الأدوات في قبضتها تسألها أن تصدق في قول الحقيقة ثم ترجها بين يديها وتلقي بها على الغربال، ثم تبدأ في فحصها وهي تشير إلى الودع وتخبر بما تراه، فتقول لإحدى الحاضرات (راجلك حايطة به وليه قصيره مليانه باللحم ربي يفكك من شرها،) وتقول لأخرى (بنتك سعدها زين آهي طريقها باينه)، وهكذا تظل تخبر بما تعودت عليه من كلمات مفرحة أحياناً ومحرنة أحياناً أخرى وتتبأ بعلم الغيب .

ورأى أبوزيد أن يغض النظر عن عمل زوجته في بداية الأمر لما وجد فيه ما يشبع هوايته في النظر إلى السيدات اللاتي يحضرن إلى البيت ومغازلة بعضهن، حيث كان يتأملهن

من نافذة الحجرة في غفلة من زوجته، وبمرور الأيام بدأ يتبرم بحياته مع التقاظة ويتمنى أن يتزوج من امرأة أخرى تشبه تلك الجميلات اللاتي يحضرن إليها، وهكذا ظل يتحين الفرص للتخلص منها فلم تعد تروق له ولم يعد يطيق البقاء معها .



عندما التقى أبو زيد بجاره صابر أخبره بأنه لم يعد يطيق الحياة مع امباركه التقاظة وأنه ينوي التخلص منها متى حانت الفرصة، ولما سأله عن السبب الذي يدعوه إلى تركها قال له إن البيت الذي يسكنه به ثلاث عائلات لها عدة أطفال وأنه لم يعد يجد الراحة في بيت تلد فيه النساء واحدة بعد الأخرى، واستمع صابر إلى كلام جاره الذي شعر بأنه مجرد حجة يفتعلها ويتحايل بها لطلاق التقاظة ولهذا قال له :

- أياه يا بوزيد امتى تلقى الراحة اللي تبيها؟ وامتى تلقى

الوليه اللي تعجبك ؟

- والله يا سي الصابر البلاد مليانه صبايا اللي يدور يلقي .

- اللي ياخذ ويطلق كيفك مش ديمه يلقي عرب يناسبوه ؟

- لهن رزق عند الله نصيب يا علم ما ينقطع !

- دابن هذا راك دير اللي يصلح بيك .

وانقضت أيام على هذا اللقاء وقام أبوزيد ذات صباح بالتخلص من التقاظة فقد طلقها وترك البيت الذي استغرب سكانه مما أقدم عليه بعد عشرة لم يروا فيها ما يدعو إلى طلاق جارتهم، وعاد أبوزيد إلى بيته الصغير الذي أفضله عندما تزوج التقاظة، وظل يعول على الزواج من جديد ويوصي معارفه بالبحث له عن امرأة طيبة يسكن إليها كما كان يقول لجيرانه القدماء، وطال انتظاره ولم يجد امرأة وحتى البلاد التي قال عنها أنها مليئة بالنساء سدت أبوابها في وجهه، لقد ضاقت به الأرض هذه المرة ولم يجد بدأ من مصارحة جاره صابر وطلب نصيحته، ولهذا عندما جلس بجواره كالعادة أخبره بما يلاقي من مصاعب في العثور على امرأة يتزوجها وقال له :

- دبر علي يا خوي صابر ما عرفت كيف اندير ؟

- امتي عمرك خديت الدباره والآ شاورت ؟

- هالمرة عندك وبانت دور امعاي من يناسبني !

ولما رأى صابر حالة جاره القلقة أخذته الشفقة عليه فأخبره بأنه يعرف أرملة طيبة تملك بيتاً تركه لها زوجها ربما توافق على الزواج منه لأنها تعيش وحيدة في بيت كبير إلا أنه يخشى أن يتوسط له في الزواج فيسبب له الإحراج .

- خايف ندخل في زيجتك اتحشمني مع هلها .

- عمري ما اندير حاجة اتحشم بيك هالمرة نبي انتريح ..

واقتنع صابر بكلام صاحبه بعد تردد ثم اتصل بشقيق جارتة الحاجة (صالحة) وخطبها له وتم الزواج وشعر أبو زيد براحة لم يألفها من قبل، لقد اعتنت الحاجة بنظافة ثيابه واهتمت بإعداد الأطعمة التي يفضلها كما وجد بيتاً واسعاً نظيفاً يجلس وسط جدرانه البيضاء على (كليم) ملون ويتكئ على وسادة ناعمة، ويظل يتأمل تارة في (العريشة) التي تغطي مساحة كبيرة من البيت وتمتد أغصانها فوق أسقف الحجرات الثلاثة، وتارة أخرى إلى الحاجة (صالحة) التي تختال بين جنبات البيت الواسع بردائها (الحصيري) اللامع المصنوع من خيوط الحرير الذهبية، كان يتأمل ويفكر ويسرح بعيداً بخياله وهو ينقل قطعة (المضغة) بين شذقيه كعادته ويصق بين

حين وآخر في (المحبس) الذي أعدته له الحاجة حتى لا يلقي بمنقوع التبغ على البلاط الأصفر النظيف..

وظلت الأيام تمضي تباعاً ولم يشعر أبو زيد بالملل في بدايتها إلا أن ما كان يقلقه بعض الأحيان أن الحاجة كانت تعودت على النوم مبكرة بينما كان هو متعوداً على السهر لساعات طويلة حيث لا ينام إلا متأخراً، كان يحب السهر والحكايات وتبادل الأحاديث مع الساهرين أمثاله، أما في هذه الحالة فهو أصبح يسهر وحيداً كأن البيت الكبير ليس به أحد سواه، لقد حاول مجاراتها في طبيعتها وهي تنام بعد صلاة العشاء وتصحو عندما تسمع مؤذن المسجد الملاصق لبيتها يفتح الباب الحديدي الذي يحدث صريراً يوقظها قبل الأذان فتقوم لنتهياً لصلاة الصبح، وباءت محاولته بالفشل فلم يعد في إمكانه التغلب على عادة السهر، وزاد في قلقه أن الحاجة كانت تذهب إلى المقبرة فتفتح ضريح سيدي غازي وتقوم بتظيفه ثم تجلس هناك لاستقبال الزائرات، كانت معروفة لدى الجيران بأنها تنحدر من سلالة ذلك الولي المعروف بالمدينة ولهذا تحرص على خدمة الضريح كل يوم جمعة وتجمع النقود التي تتصدق بها الزائرات ثم تحتفظ بها حتى يحين موعد الصيانة

فتفتقها على إصلاح الضريح وتجديد ستائره وأعلامه، لقد فكر أبوزيد كثيراً في حالته مع هذه المرأة فهو من جهة لا يريد التفريط كثيراً في هذه الراحة التي وجدها بعد عناء وهذا الاستقرار الذي عرفه لأول مرة في حياته، ومن جهة أخرى لم يعد في إمكانه القبول بهذا الوضع الذي يدعو إلى الملل، ولهذا قرر إخبار جاره صابر مرة أخرى بأنه ينوي ترك الحاجة صالحة رغم ما في ذلك من تضحية بهذه المرأة الطيبة التي تعهد له بأنه لن يفعل ما يخرجه أمام أهلها .



عندما حضر أبوزيد إلى دكانه كالعادة لاحظ صابر ذلك الصباح أن ما بدا على وجهه من تجهم ينبي بأن حالته غير عادية فلم يبدأ يومه بالضحك والمزاح كما كان يفعل مع سكان الحي ويداعبهم بتعليقاته المعتادة التي تثير ضحك الجميع، وهذا ما دعا صابر إلى الدخول عليه في دكانه والجلوس على كرسيه مقابل له مستفسراً عن دواعي قلقه، ولم يجد أبوزيد بداً من مصارحة جاره بكل ما مرّ به خلال الشهور التي عاشها مع الحاجة صالحة منذ زواجه منها وأنتى عليها لطيفة عشرتها وعَدَدَ صفاتها الحسنة حتى وصل به الحديث إلى الشيء الذي

كذّر صفوه وهو نومها المبكر وتركه يسهر وحيداً وكذلك ذهابها كل جمعة إلى المقبرة وقضاء اليوم هناك الأمر الذي أشعره بالقلق وجعله غير راضٍ عنها بالرغم من حسناتها،

لقد أنصت صابر إلى ادعاءات جاره أبوزيد ورأى أن كل ما قاله لا يعد مبرراً للقلق لاقتناعه بأن تصرفات الحاجة سالحة التي لم تعجبه ليس فيها ما يعيب امرأة شريفة تعودت على حياة خاصة لا يستسيغها أبوزيد الزابط وأمثاله، ولهذا كان قاسياً في رده على أبوزيد :

- الحاجة ما دارتش عيب انت اللي من يومك مانكش باهي..

- هي ما دارتش عيب لكن انا معش نقدر على عشرتها ..

- هدي وليه مرابطة وعشرتها صعيبه على غير هله ..

- عمرك اسمعت في قبيلتي حد امرابط ؟

- حتى كان ما فيها حد امرابط فيها ناس عقال ..

- ديرني ما نيش عاقل انا معاش نبيها نبي انفارقها ..

- كان ناوي الفراق فارقها بلكي تلقى راجل خير منك ..

وساد بينهما التوتر من جراء الغضب، كان كل منهما قد تأثر من كلام صاحبه فهذه أول مرة يحدث فيها صدام بينهما منذ أن تعرفا إلى بعضهما في شارع بوغوله، وقال صابر منهيّاً ذلك الجو المشحون بالغضب :

- خليك في ضللك لين يوطاك الندم ويتعدد راسك !!



كان سكان شارع الجهاني يحتفلون بليلة (عاشوراء) عندما حضر جارهم القديم أبوزيد الزابط عند المساء وفتح بيته الذي كان مقفلاً منذ زواجه بالتقازة التي انتقل للإقامة معها في حوشها وكعادة الجيران بما جبلوا عليه من فضول رأى (العبد) وهو أحد الجيران القدامى بالشارع أن يستفسر عن سبب حضور أبوزيد المفاجئ فطرق باب البيت الذي انفتح لأنه كان موارباً وسمع العبد صوت أبوزيد يدعوه للدخول.

- تفضل، تفضل يا ضيف.

كان أبوزيد جالساً وسط البيت يعد (الشاهي) وأمامه طبق به رغيف خبز وحبّات تمر، وبادره العبد بعد السلام :

- أنتست، شنو هالجيه إن شاء الله مش بزعل ؟
- ما في الغرب صابات - يا بو العبد - علي هلك يا عين
عاودي ..

- شورك طلقت الوليه التاليه؟ حتى الحاجة يا راجل؟ ..
- هذا اللي صار، الحاجة مش هي احدود الناس ..

وما إن انتشر خبر حضور أبوزيد حتى هرع سكان
الشارع إليه وأحضروا إليه أكلات (الكبيرة) الدسمة المكوّنة
من (الكسكسي) واللحم والبقول والحمص، وحضر الجيران
القدامى لقضاء سهرة من سهراتهم القديمة مع أبوزيد الذي
اشتاقوا إلي حكاياته ومداعباته، وبينما كان الأطفال يملأون
الشارع ضجيجاً بأغاني العاشوراء، عيشورة عيشورتى، كان
بعض الرجال يلتفون حول أبوزيد وقد جلسوا فرحين بقدومه
ومستغربين عودته المفاجئة، كانوا يتطلعون إلى معرفة ما جرى
له منذ فارق الشارع، ولم يمهلهم أبوزيد فقد أخذ يقص عليهم
كل ما مر به منذ انتقل للسكن بعيداً عنهم لم يترك كبيرة ولا
صغيرة فقد تحدث بصراحته المعهودة وطريقته المرححة التي
تشد السامعين إليه، وطالت الجلسة وتشعب الحديث وأخذ
الحاضرون يذكرون أيام الجوار الماضية وتوالت الذكريات وهم

يستعرضون أسماء الجيران القدامى الذين غادروا الشارع أحياء وأمواتاً، وتطرق بهم الحديث إلى الرجل الذي كان أكبر السكان سناً وأرجحهم عقلاً مصباح الوراق والذي انتقل للإقامة في حي (البركة) منذ عدة سنوات واستفسر البعض عن أحواله وعرفوا أنه لازال حياً يرزق، وأن ابنته الكبيرة قد عادت من المرج بعد وفاة زوجها، وما كاد أبو زيد يسمع أن ابنة الحاج مصباح قد أصبحت طليقة حتى اعتدل في جلسته وألقى بالمضغة بعيداً ليسأل عن حالة تلك الأرملة بلهفة ..

- هي سليمة روحت لهلها؟ امتى روحت ؟

- أيوه روحت لها مدة وقالوا يب-ي ياخذها العبد ..

وانتفض أبو زيد كمن لدغته حية وسأل أقدوره

العربدجي:

- صحيح هاخبر يا أقدوره امنين اسمعته ؟

- العبد هو اللي قال لي يب-ي يمشي يخطبها، حتى

الجيران عارفين !

وبينما انهمك الجيران في الحديث ظل أبو زيد يتذكر تلك

الشابة الجميلة التي كانوا يطلقون عليها اسم نواره الشارع،

والتي اختطفها إبراهيم الدباغ من بين شبان الحي الذي كان محظوظاً لأنه ظفر بها، وكانت ليالي عرسها من أجمل الليالي التي شهدتها شارع الجهاني، تذكر أبو زيد زواج سليمة الذي مضت عليه سنوات طويلة وانبتقت في ذهنه فكرة، لماذا لا يسعى إلى طلب يد سليمة؟ فقد أصبحت الآن حرة وفي إمكانه أن يقصد والدها قبل أن يسبقه أحد إليها، وما كاد الجيران ينصرفون وهم يودعونهم ويتمنون له الاستقرار والبقاء في جوارهم حتى استبقى جاره أقدوره العربدجي وحدثه عن رغبته في الزواج وطلب منه إحضار (العربية) في يوم الغد لنقله إلى البركة وسأله :

- تعرف حوش الحاج مصباح يا أقدوره ؟
- أيب، نعرفه مش أنا اللي شلتهم للبركة بعد حولوا .
- خلاص، أماله بكره اتشيلني للحاج مصباح نبي ناخذ سليمة.
- ما هو يبي ياخذها العبد، مش قلت لك !
- لا العبد ولا الهايك وراسك ما ياخذها واحد وهالشنب حي،
- اماله بوزيد يلعب !؟

قال أبوزيد هذه الكلمات وهو يمسح شواربه الطويلة

بيده...



في مساء اليوم التالي كان شارع البركة الطويل يكاد يكون شبه خالٍ من المارة في تلك الفترة من بداية الليل، حيث لا تمر منه سوى بعض السيارات التي تعبر الاتجاهين وبعض راكبي الدراجات، كانت أعمدة الكهرباء المنتصبة وسط الشارع وعلى طول الطريق قد بدأت تنتشر أضواءها، وفي ذلك الجو الهادي كانت سنايك الحصان الذي يجر (العربية) يبدد الصمت الذي ران على الشارع وهي تضرب الإسفلت اللامع تحت الأضواء ضربات رتيبة ارتاح لها أبوزيد الزايط الذي كان يجلس إلى جوار اقدوره العريدي في مقدمة العربية وقد بدت عليه علامات الزهو وهو يرتدي (الجرد) الأبيض و(كاظ الملف) الأزرق الذي تتدلى من صدريته سلسلة فضية متصلة بساعة (الروسكوبف) التي يحملها في جيبه، وعلى وقع حوافر الحصان التي يتمايل معها اقدوره مد أبوزيد يده إلى طاقيته الحمراء وأمالها حتى وصلت حاجبيه وقال ..

- انت صوتك سمح يا اقدوره غني لنا شي غناوة علم ..

ومد اقدوره يده إلى (الخرج) المعلق بجانب العربية
فأخرج منه زجاجة (عراقي) وامتص منها جرعة ثم أعادها
إلى مكانها ومسح فمه بيده وقال :

- ايش تبني انغني لك يا ازويده ؟

- قول (تاغب اريد الصوب العقل يا علم، راس حاجته)

وسرعان ما انطلق صوت اقدوره الرقيق يردد تلك
الأغنية في نغمات جميلة منسجمة مع دقات سنايك الحصان
التي تدق على الطريق دقات منتظمة جعلت أبوزيد يتمايل
طرباً في ذلك الجو الخريفي البارد ..

obeikandi.com

اليوم المشهود

كان يوماً مشهوداً في حياة المدينة، ذلك اليوم الذي أشرقت فيه الشمس لأول مرة على مجمع المباني الكبير الذي عرف لعدة سنوات باسم (كازيرما توريلّي)، كان المشهد جديداً، فهناك شيء غير مألوف كان يجري في الساحة بين المباني، لقد طرأ تحول على تاريخ ذلك المجمع غير مجرى الحياة فيه، فمنذ الصباح الباكر اكتظت ساحته الريحية بمجموع المواطنين الذين جاؤوا لمشاهدة أحداث يوم جديد، كانت أصوات التلاميذ تحدث ضجيجاً عالياً وهم يرددون الأناشيد الوطنية، وكان هذا الضجيج يطغى أحياناً على كلمة الافتتاح التي كان يلقيها ناظر المدرسة في تلك المناسبة السعيدة، فيتوقف بين حين وآخر يفسح لهم الجو لإطلاق العنان لحناجرهم فترتفع أصواتهم تدوي في الأفاق، كانت تلك الكلمة تلقى بمناسبة بداية أول يوم في العام الدراسي، لأول مرة في هذا المكان الذي كان معسكراً لجنود الأعداء يشغل مساحة كبيرة من الأرض المجاورة لنشاطى أخريبيش، وبه ثلاثة صفوف من المباني ذات الطابقين متعددة

المداخل والنوافذ المستطيلة والتي تكون مثلثاً تتوسطه ساحة واسعة معبدة بالإسفلت .

لقد جاء في كلمة السيد الناظر التي كانت تغالب الضوضاء : أن هذا الصرح القديم قد تمّ تشييده ليكون معسكراً لجنود العدو الوافدين من مختلف مقاطعات إيطاليا لمواصله الحرب ضد شعبنا وترسيخ الاحتلال لبلادنا، وشاء القدر أن يصبح هذا الصرح مدرسة يتعلم فيها أبناؤنا ما حرم منه الآباء الذين حالت سلطات الاحتلال الإيطالي دون تمكينهم من التعليم، ووسط تلك الساحة الفسيحة التي امتلأت طولاً وعرضاً بالمواطنين وتتصاعد في جوها الأناشيد وتتردد بين جنباتها الهتافات، وسط كل ذلك الهدير كان سي عبدالرسول يقف مشدوهاً أمام ما يراه، فجميع ما يجري أمام عينيه أقرب إلى الحلم منه إلى الواقع، أين كل هذه المظاهر من أيام الماضي الذي بدأت صورته تجري في ذهنه كأنها شريط من الأفلام التاريخية؟ كيف انتهت تلك الأيام التي شهدت هذه الساحة على مدى سنوات عديدة عندما كانت تعج بعساكر الطليان الذين كانوا يملؤونها صخباً؟ لطالما دوت في أرجائها أصدااء الألحان التي كانت تعزفها الفرقة الموسيقية بقيادة المارشال سلفاتوري، ذلك

الرجل الذي كان مهووساً بالحركات الإيقاعية التي لم يغفل عنها حتى وهو يعبر الشارع، فكان يشير بيديه كأنه أمام فرقته، وكان الصبيان يقلدون حركاته دون أن يلتفت إليهم أو يعيرهم اهتماماً، ولطالما هدرت ضربات أقدام العساكر على الأرض في أوقات الاستعداد للعروض العسكرية، أين كل ذلك الصخب الذي كان يحدثه الجنود وهم يملؤون الجو غناءً وصفيراً؟ إذ كانوا يقفون وراء الشبابيك الحديدية المحاطة بالنوافذ ويتبادلون العبارات المخلة بالآداب مع الصبيان الذين يلعبون في الشارع، كان الصبيان قد حفظوا عن ظهر قلب كل النكات البذيئة التي تعلموها منهم وظلوا يرددونها على مسامعهم كل مساء عندما يطلون من النوافذ .

كانت الحياة تسير على هذا المنوال عندما كان سي عبدالرسول يعمل نادلاً في حانوت ذلك المعسكر حتى قامت الحرب العالمية الثانية وسط دعاية مكثفة تبثها أجهزة الدعاية الفاشستية التي كانت تبشر بالنصر الأكيد على بريطانيا العظمى، واتضح فشلها بعد فترة قصيرة من نشوب الحرب، ولم تعد تتطلي على الرأي العام في إيطاليا التي ضللت بعض الوقت باختلاق الأكاذيب، إذ سرعان ما ظهرت الحقيقة وبطلت

الدعايات الزائفة، فقد انتهت تلك الحرب الطاحنة بهزيمة إيطاليا وخروجها مدحورة من بلادنا، هكذا ظل سي عبدالرسول يعيش مع صور الماضي المحفورة في ذاكرته حتى انتهت مراسم ذلك المهرجان الوطني الكبير، وأخذ التلاميذ يتجهون إلى فصولهم وهم يسيرون بخطوات ثابتة فوق الأرض التي طالما دنستها أقدام عساكر الطليان، التي أصبحت تشهد لأول مرة طوابيرهم وتهتز لوقع أقدامهم .



وفي مساء اليوم التالي كانت إدارة المدرسة الجديدة تشهد اجتماعاً دعا إليه السيد الناظر لمناقشة الاستعدادات والإمكانات المتوفرة لسير التعليم وتوزيع الحصص حسب ما جاء في الجداول التي أعدتها لجنة من المدرسين، كان الذين حضروا ذلك الاجتماع خليطاً من المدرسين القداماء ومن بينهم السيد الناظر إلى جانب المدرسين الشبان الذين يباشرون العمل لأول مرة، وأثناء المناقشات التي استمرت عدة ساعات وسط ضباب من الدخان الذي ينطلق من الأفواه والأنوف ورشقات الشاي التي تصدر عن تلمظ الشفاه استحساناً لمذاقه الطيب، استرعى انتباه الحاضرين سي عبدالرسول الذي كان يوزع عليهم أكواب

الشاي وهو ينتقل بينهم، وقد أحدثت خطواته على البلاط صوتاً
عالياً، إذ كان ينتعل حذاءً عسكرياً ثبتت في أسفله مجموعة من
المسامير ذوات الرؤوس المسطحة كان سي عبدالرسول متوسط
القامة يرتدي بذلة كاكي صفراء تبدو غريبة الموديل لدى
المدرسين الشبان لأنها مكوّنة من جاكيت فضفاض به أربعة
جيوب واسعة يتوسطها حزام من نفس القماش وبنطلون طويل
به آثار المكوى، كانت هذه البذلة تُسمى (سهاريانا) انتشر
لباسها قبل الحرب العالمية الثانية وكانت منسجمة مع (الشنه)
الحمراء التي تغطي رأسه وتبرز من تحت حافتها (معرقه)
بيضاء تتوارى وراءها خصلات الشيب القليلة التي تتخلل شعره
الأسود كان وجهه المستدير تزيّنه عينان واسعتان وأنف طويل
وفم باسم يعلوه شارب قصير مشذب على طريقة (شارلي
شابلن)، وكان يتمتع بخفة الحركة وسرعة البديهة وقد أذهل
المدرسين وهو يجيب على أسئلتهم بأحاديثه التي تتخللها الأمثلة
الشعبية ذات المعاني المتعددة .



لقد أشاع سي عبدالرسول جواً من المرح بين الحاضرين
أنساهم مرور الوقت ودفعهم إلى الطلب منه أن يحدثهم بما

يعرف عن زمن الطليان، كما جعل حضرة الناظر يستفسر منه
عن عمله السابق :

- وين كنت تخدم يا سي عبدالرسول ؟

- كنت نخدم في هالكازايرما ما شاب راسي إلاّ فيها .

- كنت عسكري مع الطليان ؟

- لا والله كنت نخدم في (السباتشو) حرفة (كماريري) .

وما كاد المدرسون الشبان يسمعون هذه الكلمات الغريبة
حتى انفجروا بالضحك وهم يتساءلون عن معناها الذي ما لبث
الناظر الذي يجيد اللغة الإيطالية أن شرحه لهم قائلاً :

- معنى الكلمة الأولى التكنة والكلمة الثانية الحانوت، أما
معنى الكلمة الثالثة فهو النادل.

ولما علم المدرسون الشبان أن سي عبدالرسول كان يعمل
نادلاً في الحانوت العسكري بهذه التكنة رغبوا في معرفة المزيد
عما كان يجري من أحداث خلال أيام الاحتلال الإيطالي، ووجد
سي عبدالرسول فرصة للحديث عن هموم الماضي، فسكت قليلاً
كأنه يبحث في ذاكرته عن حادثة تاريخية لها صدى في نفسه،
ولم يلبث أن عثر بين تراكم الذكريات في ذهنه عن حادثة طالما

أرقتة ذكرها كلما طغت على سطح الذاكرة التي توارت في أغوارها، ففتحح وبدأ الكلام :

في صبيحة أحد أيام الأحاد كانت مراسم رفع العلم الإيطالي تجري أمام واجهة هذه الثكنة وقد وقف طابور الشرف أمام مدخلها يؤدي التحية بالبندق بينما البوق يرسل أنغام السلام الملكي وأحد الضباط يرفع العلم بحركة بطيئة منسجمة مع تواتر تلك الأنغام، وكان كل من تصادف وجوده في الشارع واقفاً تلك اللحظة احتراماً لرفع العلم، وأثناء ذلك مرَّ أحد المواطنين ولم ينتبه لما كان يجري في ذلك الحشد من الناس والعسكر، ومضى في طريقه دون أن يتوقف، غير أنه ما كاد يراه أحد الضباط حتى جرى خلفه وهو يصيح مطالباً إياه بالوقوف، وحينما التفت الرجل مذهولاً بإدارة ذلك الضابط بصفتين على وجهه ثم انهال عليه ركلاً (بالقبالي) حتى سقط على الأرض يتألم من شدة الضربات التي انهالت عليه بصورة مباغته دون أن يعرف سببها، ولما سأله الضابط عن السبب الذي دعاه لعدم الوقوف احتراماً لعلم إيطاليا المجيد، ولما لم يفهم الرجل ما يُراد منه استدعاني الضابط لأتولى الترجمة بينه وبين المجني عليه، واتضح من إجابة الأخير أنه ليس من سكان المدينة ولا يعرف

شيئاً عن هذه الأمور الغريبة التي لم يسبق له مشاهدتها، وعند ذلك طلب مني إنذاره بعدم تكرار تلك الفعلة الشنيعة، وما كدت أبلغ ذلك الرجل بما قاله الضابط حتى التفت هذا الأخير إليّ وقال وهو يشير إلى الرجل الذي لازال قابعاً على الأرض يمسح آثار الدموع السائلة على وجنتيه :

- دعه يذهب بعيداً لا أريد أن أرى وجهه مرة أخرى في هذا المكان !

وقام الرجل ومشى بخطى بطيئة وهو يتحسس موضع الصفعات على وجهه والضابط يراقبه وهو يجر رجليه في تتألق حتى غاب عن ناظريه، وعند ذلك قال بلهجة تقطر حقداً:

- لازال أمامنا وقت طويل لتأديب هذا الشعب الجاهل ..
وأردف سي عبدالرسول :

- هذه حادثة واحدة من جملة أحداث كثيرة جرت على تراب بلادنا التي شهدت مآسي مؤلمة لا أراكم الله مثلها يا أبنائي.



وتبادل المدرسون الشبان نظرات الاستغراب، فقد تركت

هذه الحكاية أثاراً سيئة في نفوسهم بعد أن رواها لهم سي عبدالرسول، الذي بدت على ملامحه آثار حزن دفين، ولما كانت هذه الواقعة تمثل حلقة من تاريخ الاستعمار الغاشم الذي ذهب إلى غير رجعة، فقد دفعت المدرسين الشبان إلى طلب المزيد من المعلومات عن الاسم الذي أطلقه الطليان على هذه الثكنة، ولما كان ناظر المدرسة أحد الذين عاصروا عهد الاحتلال فقد حدثهم عن حقيقة ذلك الاسم الذي يريدون معرفته، وقد تهلل وجهه وسره حرصهم على معرفة وقائع التاريخ الوطني، فطلب من سي عبدالرسول إعداد دور (شاهي) إضافي ثم نزع نظارته وأشعل لفافة من نوع (كريفين) وأخذ يفتد دخانها نحو النافذة المشرعة على ساحة الثكنة ويتطلع إلى المدرسين الذين ران عليهم الصمت، وقال :

في سنة ألف وتسعمائة وثلاثة عشر، وذات صباح تدرت فيه السماء برداء من الغيم الرمادي الكثيف، أعدت القيادة الإيطالية حملة تم اختيار عناصرها بعناية من بين أفواج الفيلق الرابع التابع للواء الثاني الخاص، وأسندت قيادتها إلى أكبر الجنرالات رتبة وذلك للهجوم على تجمعات المجاهدين في منطقة (تاكنس) الجبلية في محاولة للقضاء عليها وتوجيه

ضربة قوية للمقاومة الوطنية الصامدة، غير أنه ما كادت تصل هذه الحملة إلى مشارف الجبل حتى تعرضت لهجوم عنيف ومباغت شن-ه المجاهدون على مقدمتها فانهار خطها الأمامي وتفرق جنودها يلوذون بالفرار في سفوح الجبل، وشعر قائد الحملة باحتمال حدوث هزيمة منكرة تحيق بقواته، فأراد أن ينقذ الموقف الحرج، ويتلافى ما قد يزعزع تماسكها فتحرك من فوره للحاق بالفلول الهاربة لإعادتها إلى مواقعها الأمامية إلا أنه ما كاد يمضي خطوات قليلة حتى شعر برصاص رجال القناصة من المجاهدين ينهال عليه في هجوم لم يحسب له حساب، كان أولئك الرجال مسلحين ببنادق (الموزر) و(المارتين) وغيرهما من البنادق التي غنموها من القوات الإيطالية في المعارك السابقة، لقد كان لهذه المفاجأة أثرها الرهيب في قلوب عساكر الطليان الذين أذهلتهم ضراوة المعركة وأحدثت بلبلة في صفوفهم وزاد من شدة تأثرهم مقتل قائدهم الذي سقط صريعاً على أيدي المجاهدين الأشداء، ولم يكن ذلك القائد الكبير الذي لقي حتفه في تلك المعركة الخاطفة يوم السادس عشر من شهر سبتمبر سنة 1913 إلا (الجنرال) المدعو (توريللي ألفونسو) الذي حضر من بلاده مزهواً برتبته العسكرية ومزوداً بعقيدة استعمارية ليلقى نهايته في سفوح الجبل الأخضر بعيداً عن

وطنه، ويطلقون اسمه على هذه القلعة التي كانت تبث الرعب في نفوس المواطنين ثم أصبحت الآن مدرسة وطنية تُعرف باسم (مدرسة النهضة الابتدائية)، والتي ستكون منارة إلى جانب المدارس الأخرى لنشر التعليم الذي طالما حالت سلطات الاحتلال الاستعماري دون انتشاره .

obeikandi.com

لعبة الكراسي

لم يشهد شارع بن غشير مثيلاً لتلك الليلة التي أعلنت فيها نتائج الانتخابات التشريعية التي جرت لانتخاب أعضاء المجلس التشريعي والتي فاز فيها مرشح الدائرة الانتخابية السايح ابن الشيخ جاب الله ذلك العجوز الذي عُرف بالصلاح والتقوى، كانت المصاييح التي تتدلى من واجهات البيوت تملأ الشارع نوراً وكان بيت الشيخ جاب الله مفتوحاً على مصراعيه إلى جانب بيوت الجيران التي ظلت هي الأخرى مفتوحة لاستقبال أفواج المهنتيين من سكان المحلة الذين يتوافدون على ذلك الشارع للتهنئة وحضور مأدبة العشاء التي ساهم في إعدادها الجيران ابتهاجاً بنجاح ابن جارهم فذبخوا الخراف وأعدوا الطعام المكوّن من الأرز واللحم اللذين يتصدران كل مناسبة سواء أكانت فرحاً أو مأتماً كما جرت العادة في المدينة، وبينما كان المهنتيون يلتهمون الطعام الذي تفوح منه رائحة السمن الوطني، كان أولاد الجيران يعدون الشاي الأخضر على مواقد الفحم التي تقور فوقها (السخاخين) الكبيرة وأمام كل واحد

منهم صفرة خشبية مستديرة عليها صفوف من كبايات الشاي الزجاجية وإلى جانبها أواني السكر والشاي والنعناع ...

كان أكثر المواطنين اهتماماً بمسار الانتخابات ومعاركها ونتائجها في كل موسم انتخابي هما محمد موسى صاحب محل القرطاسية وصديقه الحميم خليل بوجعفر المدرس المتقاعد، وقد حضرا تلك الليلة لتهنئة الشيخ جاب الله بفوز ابنه الذي ساهما في الدعاية له ومؤازرته خلال أيام التصويت، وقد استبشرا خيراً بنجاحه باعتباره من شباب الحي الذي يعول عليه لخدمة البلاد بعد سماع خطابه الذي حدد برنامج عمله المليء بوعود تتعلق بتحقيق مطالب المواطنين، وتحدث الصديقان مع الشيخ جاب الله والحاضرين عن نقص الخدمات والبطالة والإصلاحات المطلوبة في جميع المرافق وتمنى الجميع أن يوفق النائب الجديد في أداء مهمته التي أوكل إليه القيام بها، والتي عجز من سبقه من النواب التقليديين الذين انتخبوا على أساس عشائري عن تحقيقها ..

توالت الأيام ومررت الشهور واحداً تلو الآخر وظل المواطنون يترقبون بفارغ الصبر الإصلاحات التي وعد بها السايح ابن جاب الله الذي صوتوا لصالحه وأيدوه بكل ما

استطاعوا من جهد ودعم، وطال انتظارهم ولم تظهر أية بادرة تدل على اهتمامه بما وعد به من خدمات، فلم يتم رصف الشوارع المتربة وتجديد شبكات المياه والكهرباء والصرف الصحي ولم يُعيّن أحد من العاطلين عن العمل، بل لم يسمع أحد صوت ذلك النائب يدوي تحت قبة المجلس التشريعي كما كان يقال عن النواب من دعاة الإصلاح في تلك الأيام ..

وكانت الصدمة قاسية عندما اكتشف كل من يتابع سيرة ذلك النائب منذ دخوله المجلس التشريعي أنه جمع ثروة فتزوج وأقام حفلات دعا إليها بعض المسؤولين في السلطة كما اشترى سيارة جديدة من نوع (أوستين) واستبدل زيه الوطني بملابس أوروبية وظل يمضي في الشارع رافعاً هامته وكلما مدّ له أحد يده لمصافحته اكتفى بأن يضرب اليد الممدودة له بالحلقة التي تحمل مفاتيح السيارة والتي يعبث بها بين يديه دون خجل، كان لا يفارق السيارة طول النهار وهو يقفح بها شارع السوق الضيق ويزاحم عربات الحمالين الذين يلجأون إلى نقل عرباتهم من جهة إلى أخرى حتى يفسحوا له الطريق وهم ساخطون على تصرفاته الرعناء .

كان حضرة النائب المحترم السياح يأتي إلى السوق يجلس

في محل التاجر المعروف باسم (الجغل) الذي أثرى بعد عمله في مخازن المعدات التابعة للجيش البريطاني بمنطقة الفويهات، والذي برع في عمليات الغش والتلاعب بالأسعار، لقد ارتبط النائب بعلاقة قوية مع ذلك الرجل الذي احترف التجارة دون سابق معرفة بها وقوي نفوذه في السوق بسبب ثروته الكبيرة، ولما كان الجغل يأمل دائماً في الفوز بالعهادات التي تعلن عنها السلطات الحكومية بشأن تزويد مؤسساتها بالمواد الغذائية وغيرها من السلع الاستهلاكية فقد وجد في هذا النائب الشاب خير عون له على تحقيق أطماعه، وتمّ الاتفاق بين الاثنين على أن يتولى السياح مساعدة الجغل في الفوز بالعهادات التي تعلن عنها الدوائر الحكومية عن طريق اتصالاته بالمسؤولين وتقديم الرشاوى التي يتقاسمها الموظفون فيما بينهم، وبموجب الخدمات التي قدمها السياح للجغل نظير عمولة يتقاضاها عن كل صفقة واستطاع السياح أن يفوز ببعض العهادات لتزويد المستشفيات والمدارس الداخلية وغيرها من المؤسسات الرسمية بالمواد الغذائية واللحوم والخضروات وغير ذلك من المواد والسلع التي يقوم بمضاعفة أسعارها رغم قلة جودتها .

انتهت الدورة الأخيرة لجلسات المجلس التشريعي

وبانتهاؤها صدر مرسوم بحل المجلس وإجراء انتخابات جديدة، وبذلك خرج النواب المحترمون متأسفين على زوال تلك اللعبة الدستورية التي فتحت لهم أبواب الدوائر الحكومية لقضاء مصالحهم ومكنتهم من الإثراء بأسهل الطرق ثم حرمتهم من الامتيازات التي تمتعوا بها طيلة الفترة التي قضاها في النيابة، وخرجت إحدى الصحف الحكومية بمقال تشيد فيه بما حققه المجلس التشريعي من إنجازات بفضل التعاون بين السلطتين التشريعية والتنفيذية !!

كان الصديقان محمد و خليل يجلسان أمام محل القرطاسية وهما يتصفحان جريدة (البلاد) لمتابعة ما يستجد في عملية الانتخابات المزمع إجراؤها عندما لاحظا سيارة أوستن تقف بجوار الرصيف المقابل وعرفا أنها سيارة النائب السابق إلا أن الذي نزل منها لم يكن صاحبها السايح وإنما كان المدعو شعبان الهرش ذلك الرجل الأبيض البدين الذي لا يظهر إلا في مواسم الانتخابات لتقديم خدماته للمرشحين، وبعد أن أطلق عليهما السلام وجذب كرسيًا وجلس عليه قبالتها وهو يمسح حبات عرق سالت على شذقيه في تلك القيلولة، وما إن استرد أنفاسه حتى شرع في الحديث عن الانتخابات

الماضية وما حدث فيها من تزوير بسبب تدخلات السلطة
لحرمان المواطنين الصالحين من الفوز فيها وتمكين المقربين
إليها من دخول المجلس التشريعي، ولم ينسَ أن يذكر
للصديقين أنه عاصر عملية الانتخابات منذ بدأت الحياة النيابية
في البلاد، وأنه ساند بعض المرشحين الوطنيين، ورغم أنه لم
يذكر لهما صراحة أنه جاء إليهما لعقد صفقة معهما إلا أنهما
ارتابا في كلامه وظلا ينتظران ما يفصح عنه حتى يعرفان
لحساب من يعمل هذه المرة، ولاحظ هو أنهما لا يعيران كلامه
أي اهتمام فسارع إلى القول :

- أنا قاصدكم وحال الغاية اتساعدونا في التصويت للمرشح
الوطني .

- منو هذا المرشح الوطني اللي اتقول عليه ؟

- ماهوش غريب عليكم، هو السايح ولد جاب الله جاركم يا
سي خليل .

- أنت تعرف السايح من قبل يا سي شعبان ؟

- لا والله كان اتريد الحق انا مانعرفاش يا سي محمد .

- اماله كيف اتزكي في راجل عمرك ما عرفته ؟

- انا سمعت الجغل يقول السايح راجل وطني لا بد انساعدوه .
- نحنا ما عندناش شك في وطنية السايح وصاحبه الجغل !!!
قال ذلك الأستاذ خليل وهو يغمز صديقه محمد الذي كان
يداري ضحكة كادت تفلت من بين شفثيه، بينما طأطأ شعبان
رأسه، لقد أدرك الصديقان أن هذا السمسار يعمل لحساب الجغل
الذي له مصلحة في نجاح السايح، ولهذا سارعا إلى انتهاء
الحديث معه فقالا له :

- خينا انشوف المرشحين الآخرين قبل، وبعدين ساهل ..
ولم ترق هذه الإجابة لشعبان الهرش فقام من مكانه دون
أن ينبس بكلمة واحدة واتجه نحو السيارة القابعة بجوار الرصيف .



بدأت حملة الانتخابات وظهرت أسماء المرشحين في
جميع المدن والقرى والواحات وتوالت قوافل السيارات تتحرك
على جميع الطرق وفي جميع الاتجاهات وهي محملة بالشياه
وأكياس الأرز وبراسيم التمر والسكر والشاهي والملابس
الوطنية المختلفة مثل جرود الصوف وأردية النساء وغير ذلك
من الأدوات .

وبعد هذه الاستعدادات التي أظهرها المرشحون في تقديم الرشاوى إلى سكان المناطق النائية لكسب تأييدهم بالتصويت إلى جانبهم في المعركة التي يتنافسون فيها للفوز بمقاعد المجلس التشريعي تلى ذلك قيام المهرجانات في جميع الدوائر الانتخابية وبدأت الخطابات الجوفاء تملأ الساحات وأخذت السيارات تجوب الشوارع وهي تحمل صور المرشحين وترسل أصوات أبواقها التي تختلط بهتافات المنتمين من هذه الحملة الصاخبة ..

كان مرشحو الدائرة الثانية ثلاثة هم السايح ولد جاب الله والمدرس سالم محمود ومخزوم بن الشارف، الأول معروف لدى الناخبين أما الثاني فقد قال عنه المدرس بوجعفر إنه من المدرسين ذوي السمعة الطيبة في محيط التعليم، والثالث لم يعرف عنه سوى أنه موظف بسيط يعمل في إحدى الشركات وأنه من المترددين على المساجد وهذه شهادة له بالصلاح كما يعتقد الناس، ولم يظهر في الساحة مرشح يعول عليه كما يريد الصديقان محمد موسى وخليل بوجعفر، إذ لم يكن بين المرشحين الجديدين من سبق له الترشيح في الحملات الانتخابية الماضية أو من يجيد الخطابة حتى يمكنه استمالة الناخبين

وتسهيل مهمتهما في خوض المعركة ومع ذلك استقر رأيهما على هدف واحد هو العمل على إسقاط النائب السابق الذي خذل الناخبين، فإذا كانت العادة قد جرت بأن يعمل من يدير المعركة الانتخابية على إنجاح المرشح الذي ارتضاه بسبب وطنيته أو بسبب أمواله فإنهما قررا العمل عكس ذلك بالسعي لإحباط جهود المدعو السايح جاب الله وعدم تمكينه من التمتع بكرسي النيابة مهما كان الأمر، وهذا اتجاه غير مسبوق في المعارك الانتخابية وإن كان أضعف الإيمان كما يقال، وفي غمرة تلك الحملة الانتخابية الجديدة التي شملت جميع أنحاء المدينة تحرك شعبان الهرش وأعدائه يطوفون على الأحياء الشعبية ويقومون بشراء الأصوات وتحريض المواطنين على التصويت لابن جاب الله الذي يقولون عنه بأنه خير من يمثل الناخبين ويدافع عن مصالحهم، وفي نفس الوقت انطلق الصديقان محمد موسى وخليل بوجعفر يسيران في اتجاه معاكس لرغبة النائب الذي يدعو لانتخابه الهرش المدعم بأموال الجغل، لقد أجريا اتصالات عديدة بالأهل والأقارب والجيران يدعوان لعدم التصويت لمرشح الجغل الذي أدار ظهره لمصالح المواطنين الذين وضعوا ثقتهم فيه ونكث بوعوده لهم وأثرى على حسابهم، وخاض الصديقان معارك كلامية حامية مع بعض الناخبين

المدعومين بأموال الجغل واستطاعا التغلب عليهم ودحض دعايتهم بالكلمة الصادقة والحجة البالغة وهما سلاحهما الوحيد الذي يجابهان به خصماً مدعماً بطغمة من المنتفعين، وفي أحد الاجتماعات انهالت عليهما الانتقادات والأسئلة من بعض الناخبين الساخطين على عمليات التزوير التي حالت في السابق دون فوز من يتقون في إخلاصهم لخدمة المواطنين :

- من يوم بدأت الانتخابات ما القينا من يصلح لخدمة البلاد ..

- بطلنا التصويت خلاص فكونا من هالمسخرة .

- ملينا من الوعود الكاذبة والخطابات الفارغة .

ولما كان الصديقان يأملان في أن يكون أحد المرشحين الجديدين أصلح من النائب السابق فقد أخذوا يحاولان إقناع المترددين بالتصويت لمن يرغبون في التصويت له من بين الاثنين دون أن يحددا من هو أصلحهما، وساد هرج في الاجتماع واختلط الكلام بين مؤيد ورافض .

- نحننا ما نعرفش من هو اللي يصلح منهم .

- تبونا نعدد انجرب في النواب لعند يوم الحشر !؟

- دلونا على الرجل الصالح .

وإزاء هذه الاعتراضات من بعض المواطنين لم يجد الصديقان بدأ من القول بأن مهمتهما التي يقومان بها هي العمل بكل ما يمكن من جهد بالتعاون مع الجميع لسد الطريق أمام المرشح المدعم بأموال الجغل والذي أثبت عدم صلاحيته لتمثيلهم في المجلس التشريعي لأبد من العمل على إسقاطه مهما كان ذلك بالتصويت لأحد المرشحين الآخرين حتى يفوز بعضوية المجلس المذكور، وفي ختام الاجتماع قال محمد موسى :

- صوتو لى يعجبكم من الاثنين المدرس والا الموظف .

ثم قال خليل بوجعفر :

- المهم ما يصوت حد للمايح ولد جاب الله، هذا هو المطلوب منكم .

كان يوم التصويت من أشد الأيام قلقاً في نفوس المرشحين الذين يتربحون نتائج المعركة التي خاضوها بكل ما يملكون من أساليب اللعب على العقول، وكان الناخبون قد بدأوا يتوافدون على مراكز الاقتراع للإدلاء بأصواتهم وأعضاء

اللجان الانتخابية يسجلون الأسماء ويوزعون بطاقات التصويت عليهم للدخول إلى حجرات التصويت لوضع أصواتهم في صناديق الاقتراع ذات الألوان المختلفة والتي تنتظر ابتلاع البطاقات وهي قابعة في تلك الحجرات المغطاة بستائر تحجب الداخلين إليها الذين لا يعرف أحد من منهم يدلي بصوته طوعاً واختياراً ومن منهم يدلي بصوته مباحاً، واستمر الناخبون في التوافد على أماكن الاقتراع وقد شكلوا طوابير طويلة انتظاراً لأداء مهمتهم والإدلاء بشهاداتهم في حق من ينتخبونه وارتضوه ممثلاً لهم في المجلس التشريعي، وكان أعوان المرشحين يتابعون حضور الناخبين ويذكرونهم بألوان الصناديق التي تخص مرشحهم وبضرورة وضع البطاقات بها، وبينما كانت عملية التصويت تجري على قدم وساق مرت عجوز ترتدي رداءً أحمر بالياً وشقت طريقها وسط ميدان البلدية المزدهم بالناخبين وهي تغني بصوت عالٍ أغنية علم: « عويل ما عليه ملام، عليك يا لعلم يا ولدن »، وسارت في اتجاه البحر حتى توارت عن الأنظار وصدى صوتها يرن في أسماع المحشدين الذين لم يفهم ماذا كانت تعني بتلك الأغنية .

وظلت الساعات تمر بطيئة والضوضاء تملأ أماكن التصويت حتى حانت ساعة إقفال جميع المراكز عند الغروب كما كان محدداً لها، وتمّ نقل صناديق الاقتراع إلى مبنى المتصرفية تمهيداً لفرز الأصوات هناك، وقام كل مرشح بتوكيل نائب عنه يتوجه إلى ذلك المبنى ليقضي ليلته هناك قريباً من الصناديق التي يحرصون على حمايتها ويخشون التلاعب فيها قبل بدء عملية الفرز المنتظرة .



وفي صباح اليوم التالي بدأت عملية فتح الصناديق وانكبت لجان الفرز على حصر الأصوات، بينما كان أنصار المرشحين يتجمعون أمام مقر المتصرفية انتظاراً للنتائج التي ستسفر عنها هذه العملية التي طالما خيبت آمال المواطنين في السابق، كانت كل فئة تأمل في فوز مرشحها حتى تجني ثمرة جهودها، واستمرت عملية الفرز حتى الساعة الرابعة مساءً حين أعلن عن نهاية تلك العملية وتوافد الحاضرون يتراحمون كل واحد منهم يريد الاقتراب من مدخل المتصرفية حتى يسمع النتيجة عن قرب، وظهر رئيس لجان حصر الأصوات يحمل بين يديه قوائم تحمل أسماء المرشحين الفائز منهم والساقط

حسب الأصوات التي تحصل عليها كل منهم، وعند ذلك هدأت الأصوات وتعلقت العيون بذلك الرجل الذي يحمل القوائم التي يتطلعون إلى معرفة ما تحويه من أخبار لا يدرون كيف يكون وقعها على نفوسهم، وأعلنت النتائج التي كانت مفاجأة سارة للبعض وصدمة قاسية للبعض الآخر، سارة بالنسبة لمن فاز مرشحهم وهم جماعة المدرس سالم محمود وعلى رأسها الصديقان محمد موسى و خليل بوجعفر وهما اللذان قادا الحملة الانتخابية لإنجاحه رغبة منهما في إسقاط المرشح المرتشي، وقاسية بالنسبة لمن سقط مرشحهم السايح وهم جماعة شعبان الهرش الذي لم يتمالك نفسه وانهارت أعصابه فحُمِلَ إلى السيارة لتتطلق به إلى المستشفى المدني، وبينما السيارات التي تحمل جماعة النائب الفائز أخذت تعبر شوارع المدينة وسط هتافات الأنصار تفرقت جماعة المرشح الساقط وتشتت أنصاره في الشوارع يجرون أذيال الخيبة .

حافة المستنقع

كان الشتاء يلف المدينة بغطاء من الصقيع الذي يحمله شهر ديسمبر والذي تبدأ لسعته منذ الليلة الأولى من الأربعين ليلةً التي يسمونها (الليالي) والتي يميزونها بتفاوت شدة البرد فيها وظهور السحب البيضاء والسوداء ونزول الأمطار .، وكان سي جمعة قد فرغ لتوه من أداء صلاة العشاء وأخذ يتهيأ للنوم مبكراً كعادته عندما سمع طرقات على باب البيت ونحي السجادة جانباً ووقف مشدوهاً، من يكون هذا الطارق الغريب؟ الذي يزوره في الليل خاصة في مثل هذه الليلة الممطرة التي يأوي فيها الناس إلى النوم مبكرين، ولم يدع له الطارق فرصة للتفكير إذ أعاد الطرق على الباب، وفتح سي جمعة الباب ليجد أمامه شقيقه عيسى :

- يا سائر ما الذي دعاك للحضور في هذا الجو من (المفلوقة) ؟(*) قال جمعة ..

- جئت مع جاري خالد في سيارته الهمبر .

قال عيسى وهو ينحني للدخول من مدخل البيت الواطي،
وجلس الأخوان على (الحصير) القديم المفروش في الممر
الذي يفصل بين الحجرتين الصغيرتين .

- أريد منك أن تأخذ ابنك ليقيم معك، أعني في بيتك .
- وفوجئ سي جمعة بهذا الطلب الذي لم يكن يتوقعه من شقيقه:
- هل فعل عمر عملاً مشيناً؟ سأله جمعة في دهشة .
- كلا لم يفعل شيئاً منكراً فهو طيب الأخلاق .
- إذن لماذا تريد التخلص منه؟ سأله جمعة ..
- لم يعد في إمكاني استضافته لن أقبله في بيتي فالولد أصبح
مراهقاً ولا يمكن إبقاؤه مع بناتي الشابات اعذرني يا أخي.
- لكن أنت في بيتك الكبير متسع لإسكان الولد مع ابنك .
- حتى لو كان البيت كبيراً فلا أستطيع قبول ابنك مع بناتي .
- أنت تعلم أن هذا البيت مكون من حجرتين واحدة
مخصصة للبنتين والأخرى أنام فيها مع زوجتي وابني
الصغير (علي) .

- أعرف ذلك جيداً ولكن لا حيلة لي في هذا الأمر .

قال عيسى هذه الكلمات ولم يصبر حتى يسمع رد شقيقه جمعة الذي وقف غاضباً وهو يسمعه يغلق باب السيارة التي تحركت تحت وابل المطر .

جلس سي جمعة في فراشه ولم يشأ إيقاظ زوجته التي كان شخيرها يملأ الحجرة الضيقة، وأخذ يفكر في فعلة شقيقه التي زادت في همومه وعادت به الذاكرة إلى عشر سنوات مضت وظل شريط حياته يمر بذهنه بكل ما فيه من تفاصيل، تذكر كيف تمكن من الحصول على هذا البيت الصغير الذي فرح به في حينه بعد عدة طلبات وعدة اتصالات بالمسؤولين في قصر (الولاية) الذين تسلّموا مقاليد السلطة المحلية من الإدارة البريطانية التي كانت تدير حكم البلاد، كانت سلطات الولاية في تلك الفترة قد أعدت مشروعاً للإسكان الشعبي جندت له كل ما في جهازها الإداري من مهندسين وخبراء ومساحين من إدارة التسجيل العقاري، وتمّ اختيار موقع (السلماي) بناءً على توصية الخبراء لتشييد عدد من المساكن الشعبية، كانت قطعة الأرض المسطحة التي تمّ اختيارها لا تبعد كثيراً عن

المستنقع المعروف باسم المنطقة والذي تمتد حافته من طريق سيدي عبيد شرقاً حتى منطقة سيدي سعد غرباً المعروفة باسم (السكالي)، وتمّ بناء البيوت الشعبية، التي هللت لها بعض الصحف واعتبرت إقامتها خطوة تتلوها خطوات أخرى لحل مشكلة الإسكان في المدينة، وتمّ توزيع البيوت الشعبية على المواطنين الذين أمكنهم الحصول عليها بعد عناء ومن ضمنهم هو جمعة الشراوي، كانت الإقامة في تلك البيوت الضيقة غير مريحة بسبب قربها من المستنقع الذي يتحول في الشتاء إلى بحيرة تتجمع فيها مياه الأمطار وتتسرب إلى حوضها مياه البحر التي يدفع بها المد إلى الأرض المنخفضة فتزيد في عمق تلك البحيرة التي نجد فيها النوارس مرفأً دافئاً تحط فيه رحالها وتنتشر على مدى اتساعها فتجعل منها بساطاً أبيض تزيده الشمس لمعاناً عند شروقها بعد توقف المطر، أما في فصل الصيف فيبدو الأمر مختلفاً، حيث تجف المياه المالحة في الأماكن غير العميقة مخلفة وراءها طبقة كثيفة من الملح تبدو تتوهج تحت أشعة الشمس عند شروقها، وكان الشيء الذي يزيد في قلق السكان هي الروائح الكريهة التي تنبعث من جنث الحيوانات الميتة التي يلقيها سكان المناطق الأخرى في جوانب المستنقع

وتظل تتجمع حولها الكلاب الجائعة ويحوم حولها الذباب، إضافة إلى تكاثر البعوض الذي يتخذ من نبات (الديس) الذي ينمو في المياه الضحلة على حافة المستنقع مكاناً يأوي إليه ويجعله قواعدً تنطلق منها أسرابه الكثيفة لمهاجمة السكان ومنعهم من السهر خارج بيوتهم هرباً من القيظ، ولم تكن المعاناة قاصرة على القلق من المستنقع، لأن هناك مشكلة تؤرق السكان وهي مشكلة الضيق الذي يعانون منه ولا يجدون له حلاً، إذ لم تعد البيوت الشعبية الصغيرة تستوعب العائلات التي تكاثر عدد أفرادها، ولم يعد في الإمكان احتمال تكديس الأولاد والبنات في مساحات ضيقة وهم يتكومون على الأرض معاً، كانت مشكلة سي جمعة إحدى هذه المشكلات العويصة التي جعلته يلجأ لشقيقه كي يساعده في إيواء ابنه عمر في بيته الواسع ليخفف عنه المعاناة، ولكن ها هو شقيقه يطلب منه إعادة ابنه إلى بيته الضيق ولا يدري كيف يتصرف في هذه الحالة ..

تداعت كل هذه المشاهد في ذهن سي جمعة وهو جالس على سريره وتذكر كل ما مرّ به منذ أن انتقل إلى هذا البيت المزعج، وظل يفكر في كيفية العثور على حل ولو بصورة

مؤقتة، وقفزت إلى ذهنه فكرة رأى أن فيها حلاً يلجأ إليه، وهو إيداع ابنه في إصلاحية الأحداث حتى تنتفج الأزمة، إلا أنه استبعد هذه الفكرة التي لا تليق به، ثم عثر على حل ارتاح له وتهللت أساريره فرحاً، لماذا لا يقيم كوخاً أمام البيت يحل به هذه المشكلة وقد يستعمله حتى لتخزين بعض الأمتعة التي تضيق بها الحجرتان .

وفي صباح اليوم التالي كان أول عمل قام به سي جمعة هو ذهابه إلى سوق (التركة) الذي تباع فيه الأشياء القديمة والملابس المستعملة ومن هناك اشترى بعض القطع من الخشب وبعض ألواح الصناديق الخشبية المفككة وألواح (الزينقو) القديمة والمسامير، وبمساعدة الجيران الذين هبوا لنجدته استطاع إقامة الكوخ الذي جعله ملاصقاً لجدار البيت والذي عمل فيه حتى ساعة متأخرة من الليل ..وما كادت تشرق شمس اليوم التالي على الكوخ حتى جاءت الجارات يباركن لعائلة سي جمعة الدار الجديدة على حد قولهن، لقد أعجبن بهذا الحل الذي توصل إليه سي جمعة، وتمنت كل منهن لو يتوصل زوجها إلى حل مماثل لإراحتها من مشكلة الضيق ورفع المعاناة عنها، وفي مساء ذلك اليوم

سمع سي جمعة أصوات الجارات وهن يتشاجرن مع أزواجهن، كان الوقت يقارب المغرب، وكان جميع الأزواج قد عادوا من عملهم لتوّهم مرهقين، وتعالّت الأصوات في بيوت الجيران وطغى الضجيج ولم يتبين سي جمعة الذي خرج إلى الشارع سوى قول بعض الجارات :

- دير براكه كيف سي جمعة فكنا من الضيق ..

وأشفق سي جمعة على حالة الجيران وتمنى لو وجدوا حلاً مماثلاً لحله الذي توصل إليه ودعى لهم ماداً يديه إلى السماء كي تعينهم على حل مشاكلهم ..

كان قد مرّ أسبوع على إقامة الكوخ حين فوجئ سي جمعة الذي كان يقوم بإعداد (الشاهي) للفظور بسيارة لوري تحمل شعار البلدية تقف أمام بيته وينزل منها ثلاثة من رجال الحرس البلدي وبعد أن ألقوا عليه التحية المعتادة وهو ينظر إليهم باستغراب بادره الأول الذي يحمل رتبة ملازم :

- لقد جئنا لإزالة هذا الكوخ بأمر من مفتش البلدية .

- ولماذا تزيلون هذا الكوخ هل ضايقكم أيها السادة ؟

- نحن جئنا إلى هنا بتكليف من المسؤولين ولدينا أمر بالإزالة .
- أليست المدينة مكتظة بالأكواخ في كل مكان؟ لماذا تريدون إزالة هذا الكوخ بالذات ؟
- صحيح المدينة مليئة بالأكواخ ولكن الأمر يختلف هنا .
- ما هو وجه الاختلاف يا ناس ؟
- لأنك أقمت الكوخ في مكان غير مسموح ببناء الأكواخ فيه .
- لماذا لا يسمح ببناء الأكواخ هنا ؟
- لأن هذا المكان يقع قريباً من مدخل المدينة وبناء الأكواخ هنا يسيء إلى سمعة بلادنا ..
- قال الملازم هذه الكلمات ثم نادى على العمال الجالسين في مؤخرة السيارة، فنزل أربعة عمال اثنان منهم يحملان معدات الهدم الفأس والمطرفة الكبيرة، وتقدّم الأربعة نحو الكوخ لمباشرة مهمتهم وهنا انتبه سي جمعة إلى أن اليوم كان يوم عطلة رسمية فقال موجهاً كلامه إلى الملازم :
- هل تعملون حتى في العطلات الرسمية ؟

- نحن نعمل في حالات الطوارئ عملاً إضافياً .
- تعني أن اليوم أجره مضاعف إذا عملت يوم عطلة رسمية ؟
- بالضبط هذا هو نظام العمل في البلدية وغيرها من المصالح .

ثم أشار الضابط إلى العمال ببدء العمل وسرعان ما أخذت ألواح الخشب تتطاير تحت ضربات الفأس والمطرقة، بينما سي جمعة يضرب كفاً بكف وهو ينظر إلى عملية الهدم متحسراً على مجهوده الضائع، الشيء الوحيد الذي لم يعلمه أحد من الجيران هو أن سي جمعة كان قد استدان ثمن الخشب والزينقو من صاحب محل بيع الأخشاب بعد أن وعده بأنه سيسدد الدين عند استلام الراتب .



* منطقة (المفلوقة) هي الشارع الذي يصل بين رأس عبيده والمدينة الرياضية محاذياً لمبنى (السيلوس)، يقال إنه سُمي بذلك لأنه كان شبه وادٍ يفصل الطريق بين المدينة وضاحية البركة .

obeikandi.com

لحظات الوداع

كانت قد مضت أربع سنوات على تعيين خليل في المكتبة الإيطالية التي تقع في شارع طبرق خلف مبنى البريد الرئيسي، وقد أصبحت أجمل أيام حياته هي التي يقضيها بين الأرفف المحملة بالكتب المختلفة صباحاً ومساءً وفي كل الفصول بما فيها فصل الشتاء الذي يظلم فيه جو المكتبة قليلاً فتضيء زواياها المصابيح الكبيرة، كما أصبح يحفظ أسماء كبار الكتاب في العالم وعناوين مؤلفاتهم، وقد أتاحت له فرصة الاطلاع على أجمل الروايات العالمية، واكتسب خبرة في إدارة شؤون المكتبة جعلته يحظى برضا صاحب المكتبة السنيور لورينزو الذي كان معجباً بإخلاصه في العمل وأمانته، لقد كانت صلته بالمكتبة قديمة منذ أن كان تلميذاً في المدرسة الابتدائية يتردد عليها ليشتري مجلة الصغار التي كانت تنشر قصص (بنوكيو) صاحب الأنف الطويل المضحك، ولهذا أصبح وجهاً مألوفاً لدى رواد المكتبة من الإيطاليين والمالطيين وحتى بعض الأرمن من بقايا الاختلال التركي، كل هؤلاء قد حظي بإعجابهم لأدبه ولباقته إلى جانب إتقانه للغة الإيطالية ..

كان كل شيء يمضي على ما يرام، حتى كان ذات يوم طبع في ذاكرته شعور لن ينساه، فقد أوفده صاحب المكتبة لإيداع شيك في (صندوق التوفير بليبيا)، وهناك ظل ينتظر طويلاً فقد كان الصراف يقوم بإنجاز معاملات الإيطاليين ولا يلتفت إليه، وعندما قدّم له الشيك دفعه إليه بغضب وقال له :

- أنت عربي عليك الانتظار حتى أفرغ من معاملات الإيطاليين !!

وعندما عاد من البنك وسأله صاحب المكتبة عن سبب تأخره وأخبره بما حدث قال له :

- لا تبال يا بني فأمثال هذا الصراف كثيرون وسأتصل بمدير صندوق التوفير وأحتج لديه.

كانت هذه الحادثة قد تركت في نفسه شعوراً بالمرارة أيقظه من أحلامه الوردية وسط ذلك الجو الذي اعتاد عليه في المكتبة وبين روادها، فهو لم يكن ينكر في نزعة العداة بين الطليان والعرب لأنها لم تخطر بباله، حتى ذلك اليوم الذي دخل فيه ذلك المبنى الشامخ المسمى (صندوق التوفير بليبيا) وهو أحد المصارف الكبرى ..



في صبيحة أحد الأيام كان الصيف لايزال في بدايته وقد
بدا الجو منعشاً، وكان خليل مشغولاً بفرز مجموعة من الكتب
الجديدة المستوردة المنتثرة على الطاولة الكبيرة أمامه عندما
تتأهى إلى سمعه صوت خطوات تلمس أرضية المكتبة بحذر،
كانت تبدو خطوات خجولة، فالتفت إلى مصدرها ليرى فتاة
شابة لم تسبق له رؤيتها من قبل وأدرك وهو يتأمل جمالها
وشعرها الأشقر وقوامها الرشيق أنها زائرة جديدة وظن أنها
سائحة من شمال أوروبا، إلا أن ظنه لم يكن في محله، فما إن
قال لها مرحباً كعادته عند استقبال الوافدين الجدد :

- تفضلي أيتها الأنسة فقد تشرفنا بقدمك ..

حتى ردت عليه بلهجة إيطالية تدل على مستوى رفيع
من الثقافة :

- شكراً، هل يمكنني التجول في هذه المكتبة التي تبدو جميلة؟

- بكل سرور، هل أستطيع تقديم أي خدمة لك ؟

- شكراً، إنني أبحث عن دليل المدينة ؟

- تفضلي فهو في الرف الثاني على يمينك بهذا الممر ..

ودلّفت إلى ذلك الممر الطويل الذي أشار إليه، كانت الأرفف عن اليمين وعن الشمال مزدحمة بالعديد من الكتب المختلفة، وظلّت تستعرض كل رف حتى وقع نظرها على كتاب متوسط الحجم مكتوب على غلافه الأصفر (برقة اليوم) تأليف أ. تونينيتّي، وهو دليل سياحي مصوّر، فأمسكت به وراحت تقلّب صفحاته وتمعن النظر في الصور التي تظهر معالم بنغازي إلى جانب آثار الإغريق في مدينة شحات وغير ذلك من الأماكن السياحية الأثرية، ثم قالت :

- سأشتري هذا الكتاب، فقد حدثني شقيقي عنه، فهو يعمل هنا في بنغازي .

- في أي جهة يعمل شقيقك، ومن هو؟ ربما أكون أعرفه .

فاجأها السنيور لورينزو الذي جاء مستفسراً عندما سمعها فتحدّث عن شقيقها .

- استيفانو بليني الذي يعمل في شركة الإنشاءات البحرية ..

وهنا صاح السنيور لورنزو مغتبطاً وأخذ يشد على يدها كأنه يعرفها من قبل :

- إنه لشيء رائع المهندس استيفانو صديق لنا أليس كذلك يا خليل ؟

- طبعاً فهو أيضاً من الرواد الممتازين !
- تشرفنا بقدمك أيتها الأنسة، ما اسمك ؟
- مارييا بليني، حضرت إلى هنا لقضاء إجازتي الصيفية ..
- أعرف أن شقيقك يقيم بهوتيل فيينا في شارع درنه !
- بلى أنا أيضاً أقيم معه في ذلك الهوتيل الصغير، فهو هادئ ومريح .
- يبدو عليك أنك لازلت طالبة ؟
- فعلاً أنا طالبة بجامعة بولونيا ..
- لقد علمت من استيفانو أنكما تتحدران من مدينة بولونيا ..
- نعم فنحن من تلك المدينة الجميلة وبيتنا هناك، لا يقيم فيه حالياً سوى والديّ العجوزان
- أرجو لك إقامة طيبة في بنغازي، فهي جميلة أيضاً ..
- شكراً على شعورك الطيب ..

ظلت ماريا تتردد على المكتبة التي ارتاحت إلى ترحيب صاحبها وإلى جوها الهادئ الذي وفر لها وقتاً طيباً لقضاء ساعات فراغها، إضافة إلى التعرف على روادها من الإيطاليين والمالطيين وبعض الأرمن، لقد كانت تتجاذب الأحاديث معهم رجالاً ونساءً وتستمع إلى آرائهم حول كل ما يطالعونه في الكتب المختلفة، لقد أصبحت معروفة لدى الجميع الذين بهرهم جمالها، فقد كانت تشبه زهرة (بوقرعون) التي تفتحت في سهل روتة سيول المياه كما يقول شاعرنا الشعبي في وصف الجمال، كما بدت تستأثر باهتمام خليل الذي كان أكثر الآخرين إعجاباً بها والذي لفت نظرها ببراعته في التحدث باللغة الإيطالية خاصة عندما حدثها عن بنغازي وأهلها بكل عاداتهم الطيبة وتقاليدهم العريقة وكرمهم وطريقة حياتهم التي تتسم بالعطف والمودة فيما بينهم، كما أسرها بأسلوبه في التعبير بأجمل ما في لغتها من مفردات، ولهذا كان لحديثه الرائع أجمل الأثر في نفسها لأنه عرفها على أشياء كثيرة كانت تجهلها عن هذه البلاد التي تراها لأول مرة والتي لا تعرف عنها سوى ما يتردد بين الإيطاليين في بلادها الذين يستقون معلوماتهم مما تنشره الصحف هناك، وهو القول الشائع بأن الليبيين قوم من البدو الرحل المتخلفين الذين يعيشون حياة بدائية، لقد استمعت

إلى حديث خليل بانتباه وأصغت إليه وهو يعدد محاسن بلاده
قبل أن تقول في استغراب :

- لم يخطر ببالي أن أجد عربياً يتحدث اللغة الإيطالية بهذا
الشكل المذهل !؟

- هناك كثيرون من أبناء بلادي يجيدون الحديث بلغتكم، بل
إن هناك من هم أكثر مني معرفة بها ..

- كيف تعلمتم اللغة الإيطالية بهذه المقدرة التي تثير الدهشة ؟

- لقد تعلمناها في الحدود المسموح لنا بها، أي في المدرسة
الابتدائية فقط !

- هل كانت تكفي الدراسة الابتدائية لجعلكم تتحدثون بها في
طلاقة ؟

- نحن لم نكتفِ بهذه الدراسة الناقصة، لقد اعتمدنا على
أنفسنا في التحصيل العلمي بشتى الطرق وفي الاستفادة
من التآور مع الإيطاليين أنفسهم ..

- لقد جعلني حديثك الشيق أتطلع بشوق إلى التجول في
الأحياء العربية والاختلاط بالناس عن قرب، فأنا لم أشاهد

سوى الحي الغربي الذي يسكنه الإيطاليون والذي يشبه
المدن الأوروبية ..



لما تغيبت ماريا عن المكتبة يومين قبل أن تطل عليها في
صباح مشرق كان غيابها قد شغل السنيور لورينزو الذي افتقد
طلعتها التي تعود عليها، كما كان خليل أشد شوقاً لرؤيتها، ولهذا
ما إن رآها تدخل حتى تهال وجهه وهو ينظر إليها، فقد أذهله
منظرها وهي ترتدي بلوزة وتتورق من الحرير الأبيض وقد بدا
شعرها الناعم مسترسلاً فوق كتفيها وبعض خصائله تتأرجح
فوق جبينها الوضاء، وما إن أطلقت تحية الصباح حتى بادرها
السنيور لورينزو متسائلاً :

- لقد افتقدناك طيلة اليومين الماضيين، أين كنت يا بنيتي ؟

- كنت أقوم بجولة في المدينة مع شقيقي استفانو ..

- هل استمتعت بمشاهدة الأحياء الشعبية ؟

- لقد ركبنا عربة يجرها حصان سمين وكان الحودي الذي

يرتدي الزي المحلي يجيب على أسئلتنا التي يعرف الرد

على بعضها، كان يفعل ذلك وهو يلسع الحصان بالسوط كلما تباطأ في الهرولة تارة ويمسح على شاربه الطويل تارة أخرى، كان يبدو أنه شخصية ظريفة ..

- ألم تتجولا على رجليكما ؟

- بلى، لقد دخلنا حياً قديماً لا أذكر اسمه الآن، كانت به شوارع واسعة وأزقة ضيقة ذات منعطفات أشد ضيقاً وكانت البيوت والمساجد هناك مشيدة على الطريقة العربية في المعمار تضيء على المكان خصوصية ..

وتوقفت ماريا عن الحديث لحظة ونظرت إلى خليل الذي كان يتابعها باهتمام، وقالت :

- هل أجدت الوصف يا خليل؟ كيف ترى ذلك ؟

- بلى، كلامك صحيح فقد أحسنت الوصف .

وقال السنيور لورينزو ضاحكاً :

- يبدو أن كلامك قد أعجب خليل، هل لفت نظرك شيء آخر خلال هذه الجولة ؟

- لقد لفتت نظري أشياء كثيرة سأحدثك عنها إذا تسع وقتك لسماعها ؟

- قولي سأصغي إليك فإن حديثك يبدو ممتعاً !

وعقب خليل على قول السنيور لورينزو قائلاً :

- هل شاهدت سوق الظلام الذي يقصده السواح إذا جاءوا
لهذه المدينة ؟

- هل تقصد ذلك السوق المسقوف الذي يشبهه (الغاليريا) في
بلادنا ؟

- بالضبط هذا ما يعنيه خليل بقوله.. قال السنيور لورينزو .

وسكتت ماريا قليلاً كأنها تستجمع ما علق بذاكرتها ثم
استرسلت في الكلام :

- لقد دخلنا السوق وشاهدنا المحلات التي تغص بالأقمشة
المستوردة والمحلية والملابس الليبية المختلفة الأنواع، إلى
جانب محلات العطارين بما فيها من أنواع أدوات الزينة
الشرقية ومحلات بيع الذهب، ورأينا أصحاب تلك
المحلات وهم يجلسون بداخلها وقد أمسك كل منهم
بمروحة محلية يدعونها (النشاشه) كما علمت منهم، لقد
كانوا يحركونها يمينا ويساراً ليطردوا الحر بما توفره من
هواء قليل.

وقال خليل :

- كان هذا السوق يفتقد إلى التهوية، حتى الفتحات نصف
المستديرة القريبة من السقف لا تكفي لترطيب الجو في
أيام الصيف الحارة .

وسكت قليلاً، ثم أردف :

- أرجو أن لا أكون قد أفسدت عليك تسلسل أفكارك ؟

- كلا لم يحدث ذلك، فالمشاهدات لازالت قريبة في الذاكرة
لاسيما زحام السوق وصياح الدالين الذين يحملون على
أكتافهم وفي أيديهم الحلبي الذهبية والفضية وينادون عليها،
هذا ما شاهدته في ذلك السوق الذي يعد من أجمل المعالم
التي رأيتها في هذه المدينة .

- هل هناك المزيد من المعالم التي أثارت إعجابك؟، تساعل
السنيور لورينزو ..

- أجل، بعد الخروج من ذلك السوق الشرقي انعطفنا إلى
سوق آخر مجاور له به مقاهٍ ومطاعم ودكاكين لبيع اللحوم
وباعة خضروات وفواكه ..

- هل صادفك شيء سبب لك ضيقاً؟، تساعل خليل .

- كلا يا خليل، لم أجد خلال جولتي في هذه المدينة ما سبب لي ضيقاً على الإطلاق .

قالت ذلك وهي تنظر ملياً إلى خليل ذلك الشاب الوسيم الذي أذهلها بأحاديثه الممتعة وثقافته وحسن معاملته .

وقال السنيور لورينزو معقّباً على حديث ماريا :

- أنا أعرف ذلك السوق الذي يسمونه (سوق الخضارة)، فقد كنت أذهب إليه لشراء الخضروات والفواكه إنه سوق شعبي نظيف .

واستطردت ماريا :

- لقد تجولت ورأيت أشياء كثيرة لم أكن لأعرف عنها شيئاً لولا مشاهدتي لها ..

- لقد أسهبت في الحديث الممتع الذي يدل على شفافية الإحساس، أليس كذلك يا خليل؟ هل سبق أن استمعت إلى حديث بهذه المتعة ؟

- كلا، نعم إن كل ما قالته ماريا يعبر عن ذوق مرفه .

- شكراً على هذا الإطراء، أنا لم أذكر سوى ما رأيته بعيني.

- وصفك يدل على موهبة مبكرة قد تصنع منك كاتبة مرموقة
ذات يوم ..

- شكراً يا خليل على شعورك الطيب، من يدري لعل ذلك
يتحقق ذات يوم ..

قالت ذلك في امتتان وهي تتبادل النظرات مع خليل
الذي ظل مأخوذاً بحديثها الممتع وكلماتها التي تتدافع في تناسق
وعذوبة، وقد لفهما صمت لم يقطعه سوى صوت السنيور
لورينزو الذي قال :

- ليس ذلك بمستحيل فأنت طالبة بكلية الآداب التي تنبت
الكتاب والشعراء، لقد قضينا سويعات كادت تنسينا موعد
الغذاء، ألا تشعران بالجوع مثلي؟ إلى اللقاء في المساء..



كانت المكتبة مزدحمة بالرواد كما جرت العادة في
الساعات الأولى من المساء التي يخرجون فيها للتجول في
الحديقة العامة والجلوس في المقاهي، وكان من بين الرواد في
ذلك المساء الذي خفت فيه حرارة الجو الأنسة ماريا وشقيقها
استيفانو الذي كان منشغلاً بالحديث مع بعض الخاضرين، بينما

كانت هي تستعرض الكتب كعادتها، وفي أحد الرفوف عثرت على كتاب مجلد له غلاف مزخرف بالصور من سلسلة كتب المشاهير من أدياء العالم وأعلام الموسيقى شدها عنوانه (أوبرا لاترافياتا)، فقلبت صفحاته ثم توجهت نحو خليل الذي كان يقف في مكانه المعتاد بين رفوف الكتب وسألته :

- هل اطلعت على هذا الكتاب الملفت للنظر؟

- نعم، لقد قرأته أكثر من مرة إنه يحتوي على أجمل الأوبرات العالمية كما ترين (لاترافياتا) المأخوذة عن رواية (غادة الكاميليا) للكاتب (إسكندر دوماس الابن).

وأطبقت ماريما الكتاب ووضعتة في مكانه وهي تهز رأسها في إعجاب ثم تساءلت:

- بالمناسبة هل لديكم مسرح وطني هنا؟ أعني هل تزاولون التمثيل؟

وفوجئ خليل بهذا السؤال الذي ذكره بالمسرحية الوطنية التي شارك في تمثيلها مع فرقة الهواة ولم تسمح السلطات الإيطالية بعرضها، الأمر الذي سبب إحباطاً لتلك الفرقة الناشئة، فقال متحسراً :

- نحن ليس لدينا مسرح خاص بنا، بينما هناك مسرحان أولهما مسرح (بيرينتشي) وثانيهما مسرح (الدوبو لافورو) التابع للحزب، أما بالنسبة للتمثيل فلدينا فرقة هواة المسرح التي أنسب إليها ..

- يبدو أنك كنت مولعاً بالتمثيل أليس كذلك ؟

ونظر خليل ملياً إلى وجه تلك الفتاة الجميلة التي تتسم أسئلتها بالبراءة والشفافية ثم تتهد وقال :

- بلى كنت مشغولاً بفن التمثيل حتى صُدمت بما حدث لأول مسرحية شاركت في تمثيلها، ولم يُقدر لها أن ترى النور .

- لماذا حُجبت عن العرض تلك للمسرحية؟ ما هو السبب في ذلك؟

وقال خليل في تأثر بدا على محياه ولم يغب عن فطنة ماري :

- السبب في منعها من العرض هو مضمونها الذي يجسد صفة حميدة من صفات العرب والذي دفع السنيور (توبيني) مدير مسرح (الدوبو لافورو) إلى عدم الرضا عنها ورفض عرضها لأن عنوانها (الوفاء العربي) لم يرق له .

- ألم يكن في إمكانكم إقناع ذلك المدير ليسمح لكم بعرض

تلك المسرحية ؟

- لا يمكن لأحد أن يقتنع السنيور توبيني سكرتير الحزب

الفاشستي الذي يجاهر بعدائه لنا !

- يبدو أنه من أشرس رموز الحزب الحاكم ! أليس كذلك ؟

- إضافة إلى ذلك فهو رئيس تحرير صحيفة (برقه) التي

يصدرها الحزب والتي كتب فيها مقالة عنوانها (خبزنا)

طالب فيها بطرد الموظفين الليبيين من دوائر الحكومة

رغم قلة عددهم !

- ماذا يقصد من هذه الدعوة السخيفة ؟

- الأمر واضح، فهو يرى أن الليبيين يشاركون الإيطاليين في

خبزهم اليومي ولذلك يجب التخلص منهم وإحلال الطليان

مكانهم .

- لم أكن أعرف أن الكراهية تصل إلى هذا الحد المقيت !؟

قالت ماريا ذلك ثم أطرقت قليلاً كأنها تبحث عن المزيد

من الأسئلة وأردفت :

- هذا عن المسرح وماذا عن الصحافة؟ هل لديكم صحافة
ليبية؟

فأجابها خليل بلهجة تقطر مرارة :

- توجد لدينا صحيفة عربية واحدة تشرف عليها السلطة ولا
تنشر سوى نشاط الوالي وتعليمات الإدارة في ما يتعلق
بتسيير الأمور والنظام .

- وماذا عن المجالات الثقافية الأخرى؟

- هذا ما يثير القلق حقاً أيتها الصحفية التي تبحث عن
المتاعب !!

وضحكت ماريانا من وصفها بالصحفية لكثرة أسئلتها
التي تدل على رغبة في المعرفة، وقالت لخليل لقد وجدت فيك
معيناً على التزود بالمعلومات .

- ما يدعو للغضب أن هناك أيضاً مجلة عربية مصورة تُعنى
بنشاط الدوائر الرسمية والترويج لمشاريعها، وليس بها
سوى مساحة صغيرة تنشر فيها بعض القصص والأشعار
العربية التي يتمكن رئيس التحرير الليبي من تمريرها

بصعوبة وفي غفلة عن عيون الرقابة التي لا تكثر
أحياناً بهذا النوع من النشاط المحدود .

- هذا شيء مؤسف حقاً، ربما يسمحون لكم في المستقبل
بمزاولة نشاطكم الثقافي من يدري لعل السلطات تتساهل
معكم .

- ليتمهم يتساهلون معنا بالسماح لنا باستيراد الكتب العربية
الممنوعة والتي تجلبها مكتبة وطنية عن طريق التهريب .

وإلى هذا الحد توقفت ماريا عن التساؤلات التي كانت
تطرحها على خليل وتصغي إليه في اهتمام وهو يجيب عليها
بتدفق وعفوية حتى لا تزيد في إحراجها، فقد أحست من خلال
تلك الإجابات أنها قد أثارت كوامن نفسه وجعلته يبوح بصدق
مشاعره نحو بلاده، كما أحسّ هو الآخر أن هذه الفتاة التي
تتجبر حيوية وتقويض مشاعرها بالبراءة تدفعه بشفافية روحها
إلى الاسترسال في الحديث معها دفعاً للملل وتنقيساً عن الهم،
وأعقب ذلك فترة صمت لم يتخللها سوى ما كان يدور بين
الرواد من أحاديث .



كانت آخر جولات ماريا في المدينة زيارة مصيف جليانه مع شقيقها استيفانو الذي أراد أن لا تفوتها زيارة ذلك الموقع الرائع، فقد قضت هناك يوماً ممتعاً تسبح في تلك المياه الشفافة التي تتوهج في أعماقها الرمال الذهبية وشاهدت المطار البحري الذي كانت ترسو فيه طائرة شراعية بيضاء تبدو وسط زرقة البحيرة كأنها مراكب لها جناحان تطير بهما، وقد سجلت كل ما شاهدته ذلك اليوم في كراسة الملاحظات التي سجلت فيها كل ما شاهدته من معالم المدينة خلال زيارتهما للأماكن الشعبية والأسواق العامة، وعندما حضرت مع شقيقها إلى المكتبة في المساء كانت تشعر بأن في جعبتها الكثير من المعلومات التي ستكون مدار حديثها مع خليل، وفي داخل المكتبة أخذ شقيقها يتبادل الأحاديث مع الزبائن، بينما قامت هي بإلقاء تحية المساء على صاحب المكتبة، ثم اتجهت إلى حيث يوجد خليل بين رفوف المكتبة فحيتته وشرعت تحدثه بإعجاب عن جليانه ومصيفها ويحيرتها، وبينما كانت منهمكة في الحديث لاحظت ما طرأ على ملامح خليل فجأة، فقد تجهم وجهه وغازت ابتسامته وهو ينظر إلى مدخل المكتبة التي أطل منها في تلك اللحظة شاب إيطالي طويل القامة نحيل الجسم كان يمسح بيده على شعره الأشقر وهو يخطو داخل المكتبة في كبرياء ويتفحص

وجوه الحاضرين، وفجأة صدرت عنه شهقة عندما وقع نظره على ماريا تلك الفتاة الجميلة التي يراها لأول مرة في المكتبة، والتي كانت واقفة بجوار خليل فلفت ذلك انتباهه، وفي نفس الوقت أشعل الغضب في صدره، كيف يجروُ ذلك العربي الذي لا يطيق رؤياه على التحدث مع تلك الشابة الإيطالية الجميلة التي لم تسبق له رؤيتها؟ أليس من المؤسف أن يحدث مثل هذا الأمر بين جمع من الطليان؟ وبدون وجل تقدم نحو ماريا دون معرفة بها متسائلاً :

- عفوا أيتها الأنسة هل كنت تتبادلين الحديث مع هذا العربي اللعين ؟

وجّه هذا السؤال الغريب إلى ماريا وهو يشير إلى خليل، وظلت هي صامتة، فقد فاجأها السؤال الذي لم تكن تتوقعه من رجل لا تعرفه، ولاحظ شقيقها ما بدر من ذلك الشاب الذي يدعى مارشيلو والذي كان يلتقي به أحياناً عند المجيء إلى المكتبة، فتقدم نحوه متسائلاً :

- ماذا حدث؟ ماذا تريد من شقيقتي ؟

- هل هي شقيقتك؟ كيف تسمح لها بسماع ترهات ذلك العربي الجاهل !؟

- وماذا في ذلك من خطأ؟ هل هناك ما يمنع الحديث بين الناس في محل عام؟

- لا يليق بالإيطاليين أن ينزلوا إلى مستوى العرب، هذا خطأ فادح .

وما إن أتم مارشيلو كلمته حتى اندفع خليل نحوه وهو يلوح بقبضة يده، ثم وقف مواجهاً له وقال متوعداً :

- اسمع يا مارشيلو إذا لم تكف عن الاستهانة بي فسأضطر للرد عليه بما لا تتوقع، لماذا تعمد إلى استفزازي كلما حضرت إلى المكتبة؟

- كيف يمكن لعربي مثلك أن يتجرأ على تهديد إيطالي يعتبر سيده؟!

- أنا لم أهددك، أنا أحذرك فقط من مغبة تصرفاتك أيها الأحمق!

- أنت لا تستطيع عمل أي شيء، أنا الذي سأتولى تأديبك أيها الوغد .

وعند ذلك قام خليل بدفع مارشيلو حتى ألصقه بالحائط وكادا يشتبكان بالأيدي لولا تدخل السنيور لورينزو الذي حال

بينهما وتفرقا وهما يتبادلان السباب والوعيد، وأخذ السنيور لورينزو بذراع مارشيلو وظل يربت على كتفيه ثم اقتاده نحو مدخل المكتبة وهو يحاول تهدئته، بينما ظل خليل متحفظاً لملاحقته، وأيقن مارشيلو أن خليلاً جاد في تهديده وأنه قد يلحق به هزيمة وسط جمع من الرواد الذين ظلوا يترقبون نهاية المعركة في صمت فخرج من المكتبة وهو يلوح بيده مهدداً :

- سأريك من أنا أيها المأفون ..

وجاء السنيور لورينزو إلى خليل الذي كان لا يزال ينتفض غضباً فأخذه من يده وانتحى به في زاوية المكتبة وهو يربت على كتفه برفق وقال له :

- لو كان مارشيلو الأعمق يعرف قيمة التراث الحضاري الذي خلفه أجدادك في الأندلس ما كان يجرؤ على الاستهانة بك واستفزازك كلما حضر إلى هذه المكتبة !!

ونظر خليل نظرة امتنان إلى السنيور لورينزو صاحب المكتبة ولم يسعفه لسانه في تلك اللحظة بما يمكن أن يرد به على تلك اللفتة الكريمة التي صدرت عن ذلك الإنسان المهذب الذي يتحلى بالحكمة ..



عندما عاد خليل من العمل في مساء اليوم التالي وجد باب المنزل موارباً، وسمع من خلال النافذة المفتوحة أناساً يتحدثون في المربوعة فساورته الظنون: من هم هؤلاء الناس؟ وماذا جاء بهم؟ وفيما كانوا يتحدثون؟ غير أنه لم يكذب يدخل حتى رأى والده الحاج ميلاد يتحدث مع صديقيه منصور وجبريل، وبينما أخذ يسلم على صديقيه خرج والده وتركه معهما، وبعد تبادل التحيات المعتادة أخبره منصور أن والده استدعاهما وأخبرهما بما حصل بينه وبين الشاب الإيطالي وطلب منهما إقناعه بالتخلي عن علاقته بالفنأة الإيطالية مهما كان الأمر، حتى لو أدى ذلك إلى ترك العمل بالمكتبة تفادياً للصدام مع ذلك الإيطالي الذي لا يتورع عن إهانته، واستغرب خليل كيف وصل الخبر إلى والده الذي لم يكن يعلم شيئاً عما حصل بينه وبين مارشيلو لأنه لم يخبره بذلك !!

وقبل أن يسأل عن أخبر والده سارع جبريل إلى القول:

- كان جارك المالطي المدعو كارميلو هو الذي أخبر والدك بما حدث بينك وبين الشاب الإيطالي لأنه كان حاضراً بالمكتبة أثناء المشادة .

وتذكر خليل أن كارميلو كان حاضراً فعلاً ولكنه لم يتوقع أن يخبر والده وأدرك أن الأمر لم يعد سراً فأخبر صديقيه بحقيقة ما جرى بينه وبين ماريا منذ حضورها للمكتبة، غير أن صديقيه بدا عليهما أنهما لم يفتنعا بما رده علي مسامعهما، وبادره جبريل قائلاً :

- يبدو من كلامك أنك متورط في علاقة مع تلك الفتاة الإيطالية دون أن تدرك عاقبة ما أقدمت عليه !

- ما حدث بيني وبين تلك الفتاة الزائرة لا يعدو كونه مشاعر ارتياح كنتك التي تنشأ عادةً بين الناس من خلال توافق أفكارهم، ولا أرى في ذلك ما يدعو إلى الارتياح يا أخ جبريل !

- إن ما تسميه مشاعر ارتياح يا أخ خليل ما هو إلا بداية تقارب لا يلبث أن يتحول إلى عاطفة يصعب التحكم في تطورها ولا يمكن معرفة نتائجها !

- لا تهول الأمر يا أخ جبريل أعتقد أن في إمكان خليل تفادي الاختلاط بتلك الفتاة مادامت المسألة لم تتطور بعد، هذا رأيي .

- هل تريد مني يا أخ منصور أن أقول لتلك الفتاة أرجوك
يا مريا ابتعدي عني لأن جوارك معي لا يروق للآخرين؟
هذا مستحيل !

- نحن لا نريد لك أن تتعرض لمثل ما حصل لصديقنا
رمضان حينما اكتشفت علاقته بتلك الأرملة الإيطالية التي
اتفق معها على الزواج وانتهت بإهانته وطرده من العمل
في متجر شقيقها وترحيلها إلى إيطاليا ..

- هناك فرق بين الحاليتين يا أخ جبريل ولا يمكن المقارنة
بينهما، فالذي حصل بيني وبين مريا هو مجرد تعارف
ينتهي بنهاية إجازتها بعد أيام قليلة ..

- مازلت أرى أنه في إمكانك نقادي التقارب منها ومن غيرها
من الإيطاليات حتى لا تتعرض لعواقب وخيمة ..

- وكيف يمكن نقادي الاختلاط بها وبغيرها من الإيطاليات
والإبتعاد عنهن في محل عام تقتضي طبيعة العمل به
التحاور مع الزبائن رجالاً ونساءً ! هذا أمر مستحيل يا
أخ منصور !.

وبهذا الرد الحاسم أنهى خليل حوارهم مع صديقيه اللذين

خرجا من عنده غير مقتنعين بكل ما قاله لهما رغم أنه يبدو محقاً فيما قاله عن طبيعة عمله، فهما قد شعرا بأن كلامه يوحي بأنه لا يكثرث بما يجري حوله ولا يقدر عواقب استفزازه للإيطاليين الذين لا يتورعون عن أهانتهم ومعاملتهم بقسوة، كما أدركا أن جهودهما في سبيل إقناعه بالتخلي عن تلك العلاقة التي يعتبرها مجرد تعارف قد فشلت بسبب إصراره على التعنت، وقررا إخبار والده بما بذلاه من جهود ذهب أدراج الرياح .



كان الوقت مساءً عندما أخذ مارشيلو طريقه إلى هوتيل فيينا وفي ذهنه فكرة تلحّ عليه وتدفعه إلى مقابلة ماريامصارحتها بما يعتمل في نفسه ويكدر صفوه، فهو لم يعد في إمكانه احتمال ما يراه ولم يعد يطيق الصبر على ما يجري في تلك المكتبة أمام عيون الجميع، إنه أمر مزعج لا يمكن تصوره ولا يمكن السكوت عليه، هل بلغ الاستهتار بتلك الفتاة الإيطالية أن تنهزه عندما يتبع خطواتها وهي تتجول بميدان البلدية في الليلة الماضية، كانت منشغلة بالتفرج على واجهات المحلات التي تعرض فيها بعض الأدوات المحلية المصنوعة من الجلود

المنقوشة، ولم تعبأ به وهو يحاول التحدث إليها، لقد فكر فيما حدث وقرر بينه وبين نفسه أن يكرر المحاولة معها إذ ربما كانت لا ترغب في الحديث معه بميدان عام، وها هو يمضي في الطريق إليها .

توقف عند باب الهوتيل الداخلي وطرق على الزجاج علامة الاستئذان فجاءه صوت صاحبة الهوتيل من الداخل .
- تفضل أيها السيد، تفضل .

كانت تلك المرأة النمساوية التي تعد في الخمسينيات من عمرها لازالت تحمل مسحة من الجمال، ونظر إليها مارشيلو وهي تتبادل الأحاديث مع النزلاء الذين بدأوا يخرجون للتزه في المدينة، وقال :

- مساء الخير يا سيدتي، هل يمكن مقابلة الأنسة ماريا بليني؟

- إنها على وشك الخروج هل استدعيها لك ؟

- لا داعي لذلك سأنتظر ها هنا، هل يمكنني الجلوس ؟

- تفضل يمكنك الجلوس لانتظارها هنا

وأشارت إلى الصالون.

وجلس ولم يطل انتظاره فقد لاحظت ماريًا وهي تهبط
الدرج في رشاقة، وكانت مفاجأة غير متوقعة لها عندما رأت
مارشيلو يتطلع إليها، ثم يقفز من المقعد الوثير محيياً .
- مساء الخير أنسة ماريًا .

وردت تحيته وهي تتوجس خيفة من حضوره الذي أثار
قلقها، غير أنها تمالكت نفسها حتى لا تتوتر أعصابها، وانتظر
مارشيلو أن تدعوه إلى الجلوس، ولكنها لم تفعل فقال:
- هل يمكنني الجلوس والتحدث معك قليلاً ؟

فدعته إلى الجلوس فأسرع إلى ذلك متلهفاً على الحديث
معها وجلست على مريض منتظرة ما يريد قوله وإن كانت لا
تستبعد أن يكرر على مسامعها ما سبق أن قاله لها في الميدان
وهي تتفادى الاستماع إليه، وقال في لهجة من يتوسل إلى من
يخاطبه .

- أرجو أن لا أكون قد أزعجتك، فقد دفعني شعوري كإيطالي
أن أحذرك من الاقتراب من ذلك العربي التافه الذي يعمل
بالمكتبة، أنت لا تعرفين ماذا يريد منك ؟

- أنا لا أجد مبرراً في تحذيري من الاقتراب من ذلك العربي
الذي تعنيه والذي لم أرَ في سلوكه ما يدعو إلى
الارتياب!!

- أما أنا فأرى أنه يحاول استمالتك بأحاديثه الملفقة، إنه يجيد
الثرثرة .

- هذا غير صحيح لم أرَ في أحاديثه شيئاً مما تدّعيه فهو لا
يتحدث إلا في نطاق عمله مع جميع رواد المكتبة .

- يبدو من كلامك أنك معجبة جداً بذلك العربي المغرور !

- لا أسمح لك بالتمادي في التدخل بما لا يعينك، بأي حق
تتكلم كأنك وصي عليّ، أنا لست طفلة يمكن التغرير بها،
اغرب عن وجهي .

لقد تفوّهت بهذه العبارة محذرة إياه من مغبة تصرفاته
التي صممت على وضع حدّ لها، ووقفت ترديد الإفلات من ذلك
اللقاء الصاخب، كما وقف هو الآخر غاضباً فقد أذهله ردّها
العنيف، وبينما أخذ طريقه نحو الخروج وهو يجر أذيال الخيبة.

صعدت مارياً إلى حجرتها حيث جلست وحيدة وقد
تدافعت في ذهنها التساؤلات، هل يمكن أن يكون ذلك الشاب

العربي الوسيم قد استهوأها؟ إنها لا تشعر نحوه سوى بالإعجاب ولا ترى في تصرفه ما يبعث على عدم الاطمئنان إليه واستحضرت في ذهنها صورة خليل بأناقته وقدرته على جلب انتباه الزبائن بأسلوبه المهذب في الحديث وثقافته التي تشد السامع إليه، أليس من الممكن أن تكون قد وقعت تحت تأثير مشاعر قوية قد تؤدي إلى ازدياد تعلقها به؟ وهل يمكن أن تصل هذه العلاقة البريئة إلى الحد الذي لا يمكن التراجع عنه؟ وماذا سيحدث بعد ذلك؟ وتوالت على ذهنها التساؤلات ولم تصل إلى إجابة توضح حقيقة شعورها وتحدد نوع العلاقة التي تربط بينها وبين خليل، ذلك الشاب العربي الذي ظهر صدفة في حياتها ..



كانت المكتبة لازالت غارقة في السكون الذي يغمرها عادة في الساعات الأولى من الصباح عندما حضرت ماريا لتبدد ذلك الصمت وتشيع بصوتها العذب جواً من البهجة وهي تطلق تحية الصباح، وفي تلك اللحظة شعر خليل بالسرور يملأ جوانحه كما كان كلما أطلت تلك الفتاة بوجهها الصبوح وابتسامتها المشرقة، كان قد تعود على انتظارها كل صباح منذ

أن تعرّف عليها، وتوقف عن العمل وأخذ ينظر إليها وهي تتجه إلى المكتب للجلوس مع السنيور لورينزو قليلاً قبل أن تباشِر جولتها بين أرفف الكتب، ولم يطل انتظاره فقد جاءت إليه بعد قليل وهي تتدفق حيوية وقالت بصوتها الرقيق :

– هل تعلم أين قضيت السهرة البارحة؟ أه كم كانت ممتعة!

– لو كنت أعلم ذلك لسبقتك إلى مكان السهرة لأتمتع بها مثلك.

– لقد دعانا السنيور لورينزو وزوجته أنجيلا للعشاء في مطعم جميل يُسمى (الكهف الأزرق)؛ لأنه معد بجوار كهف به مدخل شبه مستدير وبجانبه مبنى صغير به مطبخ لإعداد الأطعمة، وأمامه ساحة مربعة تحيط بها أحواض الزهور من كل جانب وقد صفت على أرضيتها الموائد البيضاء.

– هذا كله يبدو جميلاً يثير الرغبة في مشاهدة ذلك الكهف

لمن لا يعرفه، هل لديك وصف لأشياء أخرى؟

– دعني أكمل الوصف، كان هذا المكان كله مطلياً باللون

الأزرق الذي يلمع تحت أضواء المصابيح الكبيرة

المعلّقة في السقف الخشبي المزدان بالنقوش المحفورة

في الخشب.

- وهل طالت تلك السهرة الممتعة إلى ساعة متأخرة ؟
- نعم لقد استمتعتنا بالسهرة في ذلك الكهف الأسطوري !
- كان ذلك الكهف محفوراً في ربوة عالية عندما كان ذلك الموقع محجراً قديماً يزود المدينة بأحجار البناء .
- وما هو اسم المكان الذي يوجد به ذلك الكهف، إنه يبدو جميلاً عندما تراه وأنت قادم في العربة التي يجرها الحصان بين الأشجار المبتوثة على جانبي الطريق المرتفع قليلاً .
- ذلك المكان يُسمى (البركه) وهو من أجمل ضواحي المدينة الغنية بالأشجار التي ينعم في ظلها كل من يزور تلك الضاحية ويجلس في المقهى الشعب-ي الذي يتوسط الميدان الصغير .
- لقد عرفت من أحاديث رواد ذلك الكهف الأزرق أنه توجد بتلك المنطقة آثار تركية فأين هي من موقعه ؟
- بلى، ذلك الكهف الجميل الذي قضيت به سهرة ممتعة لا يبعد كثيراً عن دار الحاكم التركي والقلعة الكبيرة التي

تصوي عشرات العنابر المظلة بنوافذها على الجهات الأربعة إلى جانب المسجد المشيد على طراز المعماري الإسلامي بمأذنته العالية .

- لو كنت أعلم بموقع هذه الآثار لقمتم بزيارتها ولكن فات الأوان .

ويبدو أن ماريا قد اكتفت بهذا الحد من الكلام فتوقفت بعد أن أفرغت ما في جعبتها وأخذت تقلب صفحات الإعلانات في جريدة (الكورييري دي بنغازي) لتتأكد من موعد سفر الباخرة، بينما ظل خليل يتابع أناملها الرقيقة وهي تقلب تلك الصفحات ويفكر ويتساءل بينه وبين نفسه : كم هي جميلة هذه الفتاة الوادعة التي يشعر في حضورها بالارتياح، ما هي حقيقة شعوره نحوها؟ هل هو مجرد شعور بالارتياح سينتهي بنهاية إجازتها؟ أم أن ما يحس به نحوها عاطفة قوية أكثر مما يتصور؟ وإذا كان الأمر كذلك كيف يمكن الحد من هذه العاطفة؟ إنها تبدو غير مقبولة لأنها تقوم على عدم التكافؤ كما يرى أهلها حتى لو بلغت حدًا لا يمكن التراجع عنه ! وتواترت التدايعات واختلطت الأفكار بذهنه وظل شاردًا وهو سارح في خياله حتى سمعها تقول :

- لقد حان موعد انصرافي، انظر إلى الساعة أين وصلت عقاربها ؟

وعندما رفع رأسه ونظر إلى ساعة المكتبة وجدها تشير إلى الثانية عشرة ظهراً، وخرجت ماريا وهو في إثرها حتى بلغ عتبة المكتبة، فتوقف وأخذ يتابع خطواتها وصوت حذائها الذي ينقر الأرض ويصل إلى أسماعه حتى بلغت نهاية الشارع الصغير وانعطفت يساراً في شارع فيرينزي المؤدي إلى هوتيل فيينا .



كان الميناء يضح بالحركة عندما وصلت ماريا مع شقيقها استيفانو الذي جاء برفقتها ليودعها بعد أن أنهت إجازتها الصيفية وقررت العودة إلى إيطاليا لمواصلة الدراسة، وفي مبنى (الدوقانا) جلس الإثنان مع بعض الركاب لانتظار موعد تحرك الباخرة التي كانت راسية وسط الميناء والبحارة يتحركون على ظهرها استعداداً للإبحار، وبينما كانت تتبادل الحديث مع شقيقها عن الأيام التي قضتها في بنغازي وما فيها من ذكريات جميلة، كانت تنتاهي إلى أسماعها أصوات الحمالين

الذين يقومون بإفراغ شحنات البضائع من القارب المسطح الذي يسمونه (الماعونا) ويضعونها في الحاوية التي يدعونها (البراقه) فتتولى الرافعة نقلها من جوف القارب وإنزالها في عربات قطار الشحن الرابض بجوار الرصيف، كانت تلك الأصوات التي تعلو وتنخفض حسب ارتفاع وهبوط الريح تحمل أهازيج الحمالين وتوسلاتهم لطلب العون (يا امهون هون علينا)، وتذكرت في تلك اللحظات ما كان خليل يشرحه لها عندما كانت تسأله عن بعض العبارات العربية، وطافت بذهنها صورة خليل فشردت بفكرها وظلت ساهمة حتى انتهت إلى صوت السنيور لورينزو الذي جاء مع زوجته لتوديعها :

- لقد وصلنا في الوقت المناسب فالباخرة لم تتحرك بعد .

وهنا قامت ماريا وشقيقها للترحيب بالمودعين وقلت
السنيورة أنجيلا :

- رأيت أن أحضر إلى هنا حتى أكون إلى جوارك في آخر
لحظة تغادرين فيها المدينة .

وقالت ماريا :

- شكراً يا سنيورة أنجيلا على مشاعرك الطيبة أنا أعتبرك
أماً ثانية لي .

- لقد تعودت على صحبتك وأشعر أن رحيلك سيترك لديّ
فراغاً كبيراً يا عزيزتي .

وقال السنيور لورينزو :

- حتى لو افترق الناس بفعل ظروف الحياة لابدّ أن يكونوا
على اتصال ببعضهم بالمراسلات

ولاحظت ماريّا حضور خليل الذي وصل لتوّه فقالت
بصوت مرتفع أرادت أن يصل إلى سمعه .

- لن أنسى الأيام الجميلة التي قضيتها في هذه المدينة
وسعدت فيها بصحبتكما وبمعرفة خليل الذي كان يتمتع
بالذكاء وحسن الخلق، إنها أيام ممتعة سأظل أتذكرها كلما
خطرت ببالي أيام الإجازة الرائعة التي قضيتها في هذه
المدينة الجميلة .

وفي تلك اللحظة وصل القارب الآلي الذي سينقل
الركاب إلى حيث ترسو الباخرة فتوجه الجميع إلى الرصيف
وبدأ الركاب ينزلون إلى القارب وأخذت ماريّا تصافح مودعيها

بما فيهم خليل الذي صافحته لأول مرة منذ أن تعرفت عليه،
وما كادت تسحب يدها التي احتضنها خليل بين يديه حتى
لمحت مارشيلو يركض باتجاه خليل ويديه خنجر فأطلقت
صرخة مدوية :

- انتبه، خليل، انتبه .

وما إن التفت خليل حتى رفع مارشيلو يده بالخنجر
محاولاً أن يسدد له طعنة قوية فأسرع خليل للإمساك بذراعه
وأهوى مارشيلو بالخنجر يريد إصابته في صدره، غير أن
قبضة يد خليل التي أمسكت بذراعه في قوة شلت إرادته ومنعته
من إحكام الضربة فجاعت الطعنة خفيفة أصابت خليلاً بجرح
صغير في كتفه الأيسر ونجا من تأثير ما كانت ستسببه له تلك
الإصابة كما أرادها خصمه مارشيلو الذي سرعان ما اختفى
وسط الزحام .

وبشعور مفاجئ طغى على ألم الجرح وجد خليل نفسه
يصيح وهو يلوح بيده اليمنى :

- وداعاً ماريا وداعاً .

وهكذا رغم حيرتهما في معرفة حقيقة العاطفة التي
ربطت بينهما فاضت مشاعرهما عنوة وضجت الأعماق في
لحظات الوداع التي زلزلت كيان كل منهما .
